الدكتور توفيق الطويل
كلية الآداب - جامعة القاهرة

قصة
النزاع بين الدين والفلسفة

الطبعة الثانية

منقحة وموسعة

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

إهـــــــداء2005

أ.د./ محمد عثمان نجاتي

القاهرة

الدكتور توفيق الطويل
أستاذ فلسفة بجامعة القاهرة

قصة النزاع بين الدين والفلسفة

الطبعة الثانية

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة
٣٧ (ب) شارع كامل صدقي "الفجالة"

« فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض . . »

« قرآن كريم »

مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب غفلا من السبب الذى أدى إلى وضعه ... هو مناقشة أثيرت حول موضوعه بين بعض أساتذة الآداب فى جامعة الإسكندرية ، ... انتهت بمحاضرة عامة ألقيتها لبيان رأيى فى الموضوع مفصلا ، فأثارت جدلا رأيت معه أن أضع فى تفسير موقفى كتابا ، فكان « قصة النزاع بين الدين والفلسفة » !

وقد نفدت طبعته الأولى بعد صدورها بأمد وجيز ... ثم قدر للكتاب بعد أن يبعث حيا ، صحبته إضافات أو تعديلات لم تغير شيئا من معالمه ، بل أبقت على وجهة النظر التى استغرقت طبعته الأولى .

وبعد ، فليس فى طبيعة الصراع نفسه ما يثير الضيق ، إذ ليست الحياة فى كل صورها إلا ألوانا من النضال يبدو سافرا حينا ومحجبا حينا . . . إنما يثير الضيق أن تكون بواعث الصراع أو أهدافه بحيث لا تجرى مع سنن العدل أو لا تتمشى مع منطق العقل ، أو لا تساير مقتضيات الطبيعة . . ؟

سبتمبر ١٩٥٨ ت . ط .

مقدمة الطبعة الأولى

إمكان الجمع بين التفلسف والتدين — لا يستقيم النضج العقلي بغير حرية فكرية — العداء مع اللاهوت وليس مع الدين — متى قام النزاع بين العقل والإيمان طوال التاريخ — اضطهاد الفلسفة فى الإسلام — موقف الدين من اضطهاد العقل — كلمة فى علاجنا لموضوع الكتاب — خلاصة هذا الكتاب وعلاقته بكتابنا عن الاضطهاد — كلمة أخيرة

إمكان الجمع بين التفلسف والتدين :

جمد التفكير الفلسفى بعد اليونان أجيالا طوالا ، خضع فيها لسلطان دين فتيّ قد استبد هواه بقلوب الناس واستأثر بعقولهم ، ولما أقبل عصر النهضة كان العقل قد بدأ يستيقظ ، وكادت حركة التحرير أن تقوّض سلطان الدين ، وتعصف بتقاليده وتجتاح نفوذ رجاله ، فلما أشرق العصر الحديث فى مطلع القرن السابع عشر ، نزع العقل الجديد إلى إنشاء فلسفة عقلية مبتكرة ، ومن هنا ظن الذين تخدعهم الظواهر وتستخفهم النظرة العاجلة ، أن العالم الأوربى قد أخفق فى إبداع فلسفة جديدة ، حتى آن له أن يتحرر من سيطرة الدين ونفوذ تقاليده . . ! ولهذا الحكم دلالته على نهوض الاستقراء التاريخى شاهداً على قيام التعارض بين الدين والفلسفة ، وتعذر الإنتاج العقلى الناضج ، مع الإيمان بالوحى الدينى ومقتضياته ! أى أن التفلسف يقتضى الإلحاد ، والإيمان يمنع الابتكار ! كما أشرنا فى مستهل حديثنا عن فلسفة القرن السابع عشر .

وفى ضوء هذه النظرة ، أصبح من المساغ أن يرد الباحثون « الأصالة » originality فى الفلسفة اليونانية ، إلى استقلالها المطلق عن كل دين ! كما قرر سانتهلير ، وأن يرجعوا « عبقرية » اليونان إلى ما تهيأ لهم من حرية واسعة النطاق فى مجال الدين والسياسة معاً ، كما قال لفنجستون — وقد عرضنا رأيهما بشىء من التفصيل فى الفصل الذى عقدناه على « العقل والإيمان ، فى فلسفة اليونان والرومان » .

وإذا جاز أن يصدق الرأى الذى أيده أمثال هؤلاء الباحثين فى أصالة التراث اليونانى ، فإن صدقه لا ينفى خطأ الوهم القائل بأن التفلسف يقتضى الإلحاد ، وأن الإيمان يمنع الابتكار والإبداع !

وسنرى فى دحض هذا الوهم ، أن حركة التحرر من الدين ، كانت عنيفة واضحة فى عصر النهضة ، ومع هذا التحرر الذى أوغل فيه المفكرون إلى أقصى آماده ، لم يستطع مفكرو ذلك العصر أن يبدعوا فلسفة جديدة مبتكرة ، وظل التفكير الفلسفى عندهم نزاعاً إلى إنشاء العلم الطبيعى ، ميالا إلى ابتعاث المذاهب الفلسفية القديمة . . ! أما الفلسفة المبتكرة حقاً ، فلم تولد إلا فى مطلع العصر الحديث — فى القرن السابع عشر . . . الذى اشتد فيه الإيمان بشريعة العقل ، مع الإبقاء على قدسية الدين وحرمة تعاليمه . . ! وكانت فرنسا فى قرنها السابع عشر أصدق مثال للتعبير عن هذه الظاهرة ، فقد كانت روح النهضة على تنافر ملحوظ مع روح العصر الوسيط ، لأن حركة البعث قد أعلت صوت العقل ، الذى كان قد خبا فى العصر الوسيط[1] ، وسار فى ركاب الوحى ، فجدّت الفلسفة الفرنسية فى القرن السابع عشر فى إزالة هذا التنافر ، وحاولت أن تقيم التوازن بين مقتضيات الطبيعة وأوضاع الإيمان الدينى ، وجمعت بين التسليم الملحوظ بسلطان العقل ، والإيمان العميق بوحى المسيحية ، فيما يقول باروى على ما سنعرف بعد ، وكان هذا هو معقد الطرافة فى فلسفة هذا القرن ، وضح فيه التزاوج بين الفلسفة والدين ، يتكشف هذا فى مذهب مالبرانش فى فرنسا ، وسپينوزا فى هولندة ، وجون لوك فى انجلترا . . !

ولم يكن تلاقى العقل الفلسفى والإيمان الدينى فى هذا القرن عقيما مجدبا ، بل تكشف عن إبداع فلسفى خليق بكل إعجاب . . وإذا كنا نثبت بهذا فساد القضية التى تقول إن التفلسف يقتضى الإلحاد ولا يستقيم مع الإيمان ، فإننا لا نعتقد بأن عكس القضية صحيح ، أى أن الإلحاد يمنع التفلسف ! وإنما نريد

---

(١) هذا حكم عام ، يقصد مؤرخو الفلسفة بتعميمه الحكم على الجو العقلى فى هذه العصور مقيسا به فى غيرها ، مع علمهم بتنوع الحركات العقلية فى أواخره ، وازدهار التفكير الفلسفى فى القرن الثالث عشر بوجه خاص .

أن نقول إن فى الإمكان أن نجمع بين الإذعان لمنطق العقل والإيمان العميق بوحى الدين ، بل فى وُسع الإنسان أن يكون فيلسوفاً مبدعا مع وفائه لعقيدته الدينية وإيمانه بوحيها . . ! وقد يتحقق له ذلك مع إلحاده — على غير ما يرى ديكارت . . ! هذا فى مجال الفلسفة العقلية الخالصة ، ناهيك بالفلسفة الدينية العميقة ، التى مثّلها كبار المدرسيين فى أوربا وعلماء الكلام فى الإسلام . . ! فإن فى مثل هؤلاء يكتمل الجمع بين التفلسف الصادق والتدين العميق .

لا يستقيم النضج العقلى بغير حرية فكرية :

على أن تسجيل هذه الظاهرة يقتضى الإشارة إلى ظاهرة أخرى ، لها خطرها فى هذا الباب ، ذلك أن استقراء تاريخ الفلسفة مع الدين يقول : إن التفكير الفلسفى قد نضج أيام اليونان ، لقد شادوا فلسفة ضخمة فى وقت كانت فيه حرية النظر مكفولة لكل مفكر ، ثم ركدت ريح الفلسفة — المستقلة عن الدين — وجمدت تياراتها فى العصور الوسطى ، حينما اجتاح فيها نفوذ السلطات الدينيـة حرية التفكير ، وشلّ حركة العقل وأوقف نشاطه ، وهمّ العقل المستقل بأن يستيقظ فى أواخر تلك العصور — حين طال سباته ، وكان هذا فى وقت ظهرت فيه محاولات التحرر من رق السلطات الدينية ! وكلما تخلص من سيطرة هذه السلطات ، واتسعت آفاق حريته العقلية ، كان تفكيره أتم وأكمل وأكثر نضجاً ! ومعنى هذا أن السلطات الدينية حين تهيمن على عقول المفكرين ، وتفرض رقابتها الجائرة على تفكيرهم ، تشل حركة العقل ، أو تضعف من قدرته على الإنتاج على أقل تقدير ! واستقراء تاريخ العلم والدين يقول : إن رجال اللاهوت المتعسف عند المسيحيين ، وغلاة المتعصبين من المسلمين ، أولئك الذين أبوا إلا أن يحجروا على تفكير الناس ، ويقيموا أنفسهم أوصياء على عقولهم ، قد أساءوا إلى الدين وتعاليمه السمحاء ، بمقدار ما أساءوا إلى الفلسفة والعلم معاً !

هذا كلام مجمل لا يحسن الإسهاب الآن فى تفصيله ، فالكتاب كله قد وضع

لشرحه وتفسيره ، فى ضوء المعروف من تاريخ الفلسفة — منذ أقدم عصورها إلى يومنا الراهن !

العداء مع اللاهوت وليس مع الدين :

وبذكر الظاهرتين اللتين أسلفنا ذكرهما ، نقول إن « جون وليام دراپر » J. W. Draper قد أخطأ حين وضع كتابه عن « تاريخ النزاع بين الدين والعلم » وتحدث فيه عن اللاهوت وكأنه الدين المسيحى المنزل ! وردّ ذلك النزاع إلى الخلاف بين طبيعة الدين وطبيعة العلم ، من حيث إن الدين بطبيعته يمتاز بالثبات والاستقرار ، والعلم بطبيعته يمتاز بالتجدد المستمر والتغير المتصل ، أخطأ « دراپر » ومن جرى مجراه لأن الخلاف الذى يذكره من حيث ثبات الدين وتجدد العلم ، لا يفضى إلى النزاع الدامى ولا يستتبع الاضطهاد الآثم ولا يستلزم التنكيل الجائر ، إلا متى امتلأ قلب المؤمن الديان تعصباً وجموداً ، وتهيأت له سلطة دنيوية تمكنه من اجتياح خصومه والتنكيل بهم فى غير رفق ولا هوادة .

ومن هنا كان « بيورى » J. B. Bury على حق ، حين ردّ فى كتابه عن « تاريخ حرية الفكر » أكبر نصيب فى تبعة هذا الاضطهاد الآثم إلى « السلطة الزمنية » التى تهيأت لرجال الأكليروس ، ومكنتهم من اجتياح خصومهم ومحاولة القضاء على آرائهم . . . وصدق « أندروديكسون وايت A. D. White » حين عرض فى سفره الضخم بمجلديه عن « تاريخ النزاع بين « اللاهوت » و « العلم » إلى رد النزاع بين الإيمان والعقل إلى اللاهوت المتعسف Dogmatic Theology وليس إلى الدين السمح ، فبرئت بهذا ساحة الدين من آثام غلاة المتعصبين من رجاله .

بل من الإنصاف أن نرد فظائع المسيحية التى تضمنها هذا الكتاب إلى المتزمتين من جهال رجالها فى الغرب . أما مسيحيو الشرق — وهم الذين يقيمون بين أورشليم وما بين النهرين — فقد برئت ساحتهم من التعصب حتى

أبوا تأييد مسيحيي الغرب فى حروبهم الصليبية التى أثاروها فى وجه المسلمين ! على أن مقاومة هؤلاء المتعسفين للفكر الحر ، قد عاقت نضج العقل وكفلت ركوده أجيالا طوالا — ومن الخير أن نرجئ الآن الحديث عن علاقة الدين باضطهاد الفلسفة لأننا سنعود فى الفصل الثانى والفصل الرابع ، إلى مناقشة هذه العلاقة وبيان ما قيل بصددها تأييدا ودحضا .

متى قام النزاع بين العقل والإيمان طوال التاريخ :

والحديث عن الظاهرتين السالفتين ، يقتضى الحديث عن ظاهرة ثالثة ، هى أن استقراء تاريخ العقل مع الإيمان ، يقول إننا لا نعرف نزاعاً قام بينهما وأفضى إلى استعباد العقل وجندلة أهله ، إلا إذا اجتمع أمران يدور اجتماعهما مع النزاع وجوداً وعدماً ، أولهما أن تتهيأ لرجال الدين سلطة تمكنهم من اضطهاد العقل وإيذاء رواده ، فإن أعوزتهم السلطة قنعوا بالغيبة ، وانتقموا بالنميمة ! أو لاذوا بالعقل وجاروا خصومهم فى الاحتماء بشريعته — كما وقع فى انجلترا إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر — فلا يلبث منطقه حتى يثير الشقاق فى معسكرهم ، ويفت فى عضد دعوتهم !

وثانيهما : أن يوجد عقل يقوى على اقتحام « منطقة الحرام » وارتياد آفاقها ، والانتهاء منها إلى اكتشاف مجهول أو إنكار مألوف ، وعندئذ يصبح بفضل جرءته ويقظته ، أهلا لاضطهاد خصومه ! وبغير اجتماع هذين العاملين لا يقوم بين العقل والإيمان نزاع ، تلك سُنة جرت فى تاريخ الفكر منذ أقدم العصور :

فمنذ فجر الفلسفة فى القرن السادس قبل الميلاد ، نهض العقل اليونانى فتيا جريئا ، ولم يكن تحت وصاية دين منزل ، ولم يواجه نظاماً كهنوتياً يمكن قساوسته من قمع الفكر الحر ، فكاد عهد اليونان أن يخلو من نزاع يقع بين العقل والإيمان .

فلما نزل الوحى بدين جديد ، يوضح تعاليمه كتاب مقدس ، لم تكن السلطة

— فضلا عن اضمحلال العقل الرومانى يومذاك — قد تهيأت لرجال الدين الجديد، فلبث الجو فى صفاء ؛ ومنذ القرن الرابع بدأت هذه السلطة تتهيأ لرجال الأكليروس ، وسرعان ما أصبح فى مقدورهم أن ينالوا من خصومهم شر منال ، ولكن العقل الأوربى كان واهناً قد طمست الشيخوخة عبقريته ، وأفقدته القدرة على اقتحام المصاعب ، فاستطاب الاستعباد قروناً وأجيالا ، حتى إذا انصرم عصر الآباء ، وشطر من العصر المدرسى ، دبت إليه اليقظة وانبعثت فيه فتوة الشباب ، وهمّ بإعلان تمرده على خصومه من رجال الكهنوت ، فحاسنته السلطات الدينية عسى أن تلين قناته ، فلما جهر بالعناد ، تأهبت لنزاله وأجمعت أمرها على دحره ، اتقاءً لما تنتظره من شره . . !

ولكن الصراع لم يبد عنيفاً حامى الوطيس إلا فى عصر النهضة ، حين اكتملت أسباب اليقظة والجرأة ، إذ عكس هذا العصر آية العصر الوسيط ، احتوته الثقة بالعقل ، واستغرقه حب الاستطلاع الحر ، واشتد كلفه بالعلم وحبه للجمال وسائر لذاذات الحياة ، وقوى نزوعه إلى تبرير الشهوات ، ونبذ العقائد المتعسفة ، والخروج على التقاليد المألوفة والمبادئ المرعية ، فأطلق الشهوات من عقالها ، وتمرد على تقييد الحرية فى مجال الأخلاق والآداب ، وفى ميادين العلم والفن والفلسفة جميعاً ، وأعلى صوت العقل على صوت الوحى ، وبهذا كله اتسعت هوة الخلاف بين صوفية العصر الوسيط وإباحة عصر النهضة ، فلم يكن من الميسور للسلطات الدينية أن تصطبر على أتباع هذه الحركات ، أو أن تهضم ما انتهى إليه أهلوها من وجوه النظر ، فأشفقت على الدين أن تأتى عليه هذه النزعات الجامحة ، وعلى نفوذهما أن تعصف به حملات أتباعها ، فنزعت إلى اضطهاد العقل ومناصبة أهله العداء ، فلما عاند وكابر ، وطنت عزمها على أن تصليه نارها ، وانقضت عليه بقوات حشدتها لجندلته وافتراس أتباعه ، وكانت محاكم التفتيش — التى نشأت قبل ذلك — عنوان هذه الوحشية الآثمة ، فطاردت أحرار الفكر فى العالم الكاثوليكى طولا وعرضاً ، وأشاعت الفزع فى رءوسهم يميناً ويساراً ، وتولتهم بعذاب أهونه السجن وآخره الإعدام صنوفا وألوانا !

فلما أشرق العصر الحديث فى القرن السابع عشر ، رد التنافر الذى كان بين روح العصر الوسيط وروح النهضة إلى وحدة متسقة ، واتصلت فيه الحملات الموجهة لتقويض السلطة ، ولكن أكثر الفلاسفة — فى العالم الكاثوليكى بوجه خاص — قد جمعوا بين الإذعان للعقل والإيمان العميق بالوحى — على ما أشرنا فى مستهل هذا الفصل — وحاول الكثيرون منهم أن يترضوا رجال الدين ، ويتجنبوا إثارة الضيق فى نفوسهم — عن وفاء لهم أو اتقاء لشرهم ! ومع هذا لبث الصراع قائماً ، لأن رجال الكهنوت ما زالوا أصحاب سلطة ، فى وقت اشتد فيه بأس العقل !

كان ديكارت يجهر فى القرن السابع عشر باستبعاد كل سلطة غير سلطة العقل ، الذى يجعل الحدس المعيار الوحيد لكل حقيقة ، ولكنه مع إيمانه بالعقل قد غلب صوت الوحى على صوته ، وجعل العقيدة الدينية فوق متناوله ، لأن البحث فيها لا يكون إلا بمدد خارق من السماء ! وشاع المذهب العقلى فى فرنسا طولا وعرضاً ، فإذا أقبل القرن الثامن عشر ، استبد هذا المذهب بهوى المفكرين ، فأوغلوا فيه إيغالا انتهى بإخضاع الوحى الدينى لمنطقه ! وسرعان ما انتهى بهم هذا الغلو إلى الجهر بمعاداة الدين المنزل ، والميل إلى تقويض الوحى والسخرية من نفوذ رجال الأكليروس ! وكان فولتير وغيره من رجال دائرة المعارف ، « وهولباخ » وغيره من غلاة الماديين فى طليعة هذه الحركة ، وكان طبيعياً أن تضيق السلطات الدينية بهذا الجموح وتتصدى لمقاومته ، ولكن نفوذها كان قد تضاءل حتى عز عليها أن تنكل بهؤلاء الخصوم وتلوث تاريخها بدمائهم . . !

وقد كانت انجلترا تدين بالمذهب البروتستانتى ، وقد واصل الفلاسفة فيها حملاتهم على السلطة — مع استثناء هوبز الذى أراد أن ينقلها من رجال الدين إلى رجال السياسة — كانوا طوال القرن السابع عشر والثامن عشر ينزعون إلى التسامى بالعقل وتمجيده على حساب السلطة الدينية . ولكنهم كانوا فى حملاتهم على اللاهوت ، يتظاهرون بالاعتقاد فى صدق الأفكار التى يتحرون هدمها ،

ويزعمون أن تأملاتهم العقلية لا تسيء إلى العقيدة الدينية ، كانوا ينظمون عقود المديح للدين ، فى نفس الوقت الذى يضعون فيه آراء لا تجرى على وفاق مع تعاليمه ! وقد آمن أكثرهم بالدين الطبيعى الذى يميزه قيام إله اهتدى إليه العقل بفطرته ، من غير حاجة تدعو إلى الإيمان بالوحى المنزل والرسل والكتب المقدسة ! كانت هذه الدعوة الجارفة خليقة بأن تلقى من السلطات الدينية كل عنت ، ولكن نفوذها فى ظل البروتستانتية كان ضئيلا ، فلجأت إلى الحيلة ، واعتصمت بشريعة العقل وراحت تحارب خصومها بسلاحهم ، ولم يجرؤ رجال الدين على أن يقولوا إن العقيدة الدينية فوق متناول البحث العقلى ! فلما اشتد بهم ضغط خصومهم ، لجأوا إلى التوفيق بين وجهات النظر عند المعسكرين — وإلى مثل هذا التوفيق فى مثل هذه الظروف ، كان اتجاه رجال الدين فى كل زمان ومكان ! — وأعلنوا أن مكتشفات العقل تؤيد الدين وتوطد دعائمه ! وبدأت حركة تأويل النصوص المقدسة ، حُمِّلت فيها الألفاظ ما لا تطيق ، لتنسجم معانى النقل مع حقائق العقل الجديد ؛ ولكن العقل حين انتقل إلى معسكر خصومه — من رجال الكهنوت — قد انقلب عليهم وفت فى عضد دعوتهم ، إذ أثار الشقاق فى معسكرهم ، وشتت جموعهم وجر الكثيرين منهم إلى مهاوى الهرطقة !

* * *

بين النزاع فى انجلترا التى اعتنقت البروتستانتية ، والنزاع فى فرنسا التى دانت بالكاثوليكية ، تفاوت ملحوظ ، مرده إلى مدى السلطة التى تهيأت لكل منهما ، ومبلغ النزوع إلى الحرية عند كل فريق ، كان النزاع فى انجلترا — فى أكثر حالاته — مقارعة حجة بحجة ، وكاد الاضطهاد الذى أنزله بأحرار الفكر ذوو النفوذ منهم ، أن يقتصر على مصادرة كتاب أو الأمر بسجن مؤلف أو ناشر ، أو إلزامه بدفع غرامة ، أو إقصائه عن وظيفته . . . إلى آخر ما سنعرف بعد ، ومثل هذا الاضطهاد فى جملته كان عند المتعصبين من رجال الدين الإسلامى ، أما فى العالم الكاثوليكى حيث استحوذت الكنيسة على نفوذ

زمنى إلى جانب نفوذها الدينى ، فقد ارتفع الاضطهاد إلى مرتبة الإعدام بمختلف صنوفه ، ونهضت محاكم التفتيش بمطاردة المفكرين وإثارة الفزع فى نفوسهم أنى كانوا ، وكانت قصة هذه المآسى مروعة دامية !

وفى القرن الغابر نستطيع أن نقول على وجه الإجمال ، إن نفوذ السلطات الدينية قد تضاءل كثيراً ، وأن الفلسفة من ناحية أخرى قد لانَتْ من ناحية الدين وانصرفت عن مقاومة تعاليم الكنيسة ، فعاشا إلى يومنا الراهن فى صفاء قلما يبدو فيه غمام ، ولكن موجة من النقد العقلى التاريخى للكتاب المقدس قد بدأت تظهر ، ونضج البحث البيولوجى وتقدم البحث الجيولوجى ، فركب العلم رأسه فى ذلك القرن وأعلن تمرده على الكنيسة وتعاليمها فناصبته العداء ، وحشدت لمقاومة صلفه قواها ، ولكن تياره كان غلابا ، فأصدر البابا جريجورى السادس عشر ، منشوره الذى دعا فيه إلى مقاومة الحرية فى مجال النظر العقلى[1] . . ! وعقب البابا بيوس التاسع بمنشورة عن خطايا العصر الحديث ، فى نزوعه إلى تحكيم العقل ومنع الكنيسة من استئصال الآراء الهدامة . . . إلى آخر ما سنعرفه مفصلا فى الفصل الذى عقدناه على القرن الغابر . وأصدر مجلس الفاتيكان فى عام ١٨٧٠ قراره بأن البابا معصوم من الخطأ ! ولكن على غير جدوى ما كان من أمر هذه الجهود العابثة ، لأن القافلة أخذت تسير وقد وطنت عزمها على بلوغ غايتها ، وظلت مواكب الأحرار تمضى فى طريقها قدما يتتابع بعضها وراء بعض ، وتخلف الرجعيون وفاتهم الركب ، فعسكروا حيث كانوا ، وقد قَل عديدهم واضمحل نفوذهم وتضاءلت آمالهم ، وباتوا يسرحون الطرف فى مواكب العقل الظافر ، فيرتد بصرهم خاسئاً وهو حسير !

* * *

هادنت الفلسفة الدين فى القرن الغابر ، وانتقل ميدان النزاع إلى مجال

---

(١) لخص هذا المنشور والذى يليه « بيورى Bury » كما سنعرف فى الفصل الأخير من هذا الكتاب ، وقد قام بتلخيصه كذلك Lecky ص ٦٩ — ٧٠ من كتابه الذى سيرد ذكره كثيراً ، وقد ورد المنشور كاملا فى Lamennais, Aff aires de Rome ص ٣١٨ — ٣٥٧

العلم ، فاضطرنا هذا إلى أن نعقد حديثنا فى القرن الغابر على النزاع بين اللاهوت و « العلم » ، وفى القرن الحاضر هادن العلم الدين إجمالا ، رغم استمرار الخلاف بين منهج كل منهما ، وساد الصفاء جو العلاقات بينهما وبين الفلسفة ، فتلاشت بهذا مبررات الحديث عن نزاع فى القرن الحاضر !

اضطهاد الفلسفة فى الإسلام :

هذا ما كان من أمر العالم المسيحى ، أما عن العالم الإسلامى فقد نهض غلاة المتعصبين فيه بمعاداة العلوم الفلسفية باعتبارها خطراً ينذر بتقويض العقيدة الدينية . . ! وآذنت الفلسفة فى العالم الإسلامى بالمغيب ، بعد حملة الغزالى التى كفّر فيها المشتغلين بها ! وتوارت شمسها فى الغرب الإسلامى بعد محنة ابن رشد ؛ ومكن للقضاء عليها المتزمتون من أمثال ابن الصلاح ، وقد تراوح اضطهادها — بوجه الإجمال — فى العالم الإسلامى بين إحراق كتبها وسجن أهلها ، وإصدار المنشورات والفتاوى بتحريم الاشتغال بعلومها ، ونحو هذا مما شابه — من بعض الوجوه — اضطهاد البروتستانت للفلسفة فى العالم المسيحى — على ما سنعرف بعد — وهو اضطهاد قد برئت ساحة الدين من آثامه ، وحمل تبعته التعصب والجهل وضيق النظر عند غلاة المتعصبين .

موقف الدين من اضطهاد العقل :

حسب الدين الإسلامى براءة من تبعة الاضطهاد قوله تعالى فى سورة البقرة « لا إكراه فى الدين ، قد تبيّن الرُّشد من الغيِّ . . . » وفى سورة الكهف « وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » ! وحسب المسيحية براءة من تبعات الدم الذى خضب رجال الكنيسة تاريخها به ، قول المسيح فى خطبته على الجبل « سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن ، فحول له الآخر أيضاً ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً . . . سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا

أعدائكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات[1] . . . »

٭ ٭ ٭

هذه إشارة خاطفة مجملة للتيارات التى استغرق تفسيرها هذا الكتاب ، فمن خطر له أن يعرض لنقدها ، فليتريث وليتئد ، فقد يجد مايبررها فى مادة الفصول التالية ، وفى منهج دراستها ومنطق بحثها .

كلمة فى علاجنا لموضوع الكتاب :

وبعد ، فقد حرصنا على ألا يكون كتابنا مجرد سجل لما نزل بالفلاسفة من وجوه الاضطهاد سجناً ونفياً وتعذيباً وإعداماً ، بل توخينا أن نشرح المذاهب التى أثارت رجال الدين ، وتحرينا أن نبين عن وجوه الخلاف فى وجهات النظر عند رواد الفكر الحديث وغلاة المتعصبين من رجال الكهنوت[2] ، وبهذا احتلت أسباب النزاع العقلى المكان الأول فى دراستنا ، وغلب الاهتمامُ بها عنايتَنا بنتائج هذا النزاع ، وكثيراً ما كان هذا يضطرنا إلى الاستطراد فى شرح المذهب طويلا ، ليتضح مكان الخلاف وتتكشف مبررات الاضطهاد .

وعلى ذكر الاستطراد ، نقول إن ما تضمنه الكتاب من نزاع فى غير الميادين الفلسفية له ما يبرره ، فمن ذلك حديثنا عن محاربة اللاهوت « للعلم »

---

(١) انجيل متى — الإصحاح الخامس — وقد عالجنا بالتفصيل موقف الإسلام والمسيحية من الاضطهاد فى كتابنا « قصة الاضطهاد الدينى » وقد نشرته دار الفكر العربى .

(٢) أغنانا هذا عن تحديد معنى الدين والفلسفة ، وقد حار العلماء فى هذا التحديد على وجه ينعقد عنده الاجماع ، أنظر مناقشة دور كايم للتعاريف التى قيلت فى معنى الدين فى كتابه Les Formes Elémentaires de la Vie Religieuse ثم مناقشة « لالاند » للتعريف الذى انتهى إليه دور كايم فى معجمه الاصطلاحى النقدى للفلسفة ، ومناقشة أستاذنا الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق لتعريف لالاند فى كتابه « الدين والوحى والاسلام » والخلاف فى معنى الفلسفة أشهر من أن يذكر أنظر كتابنا « أسس الفلسفة » فحسبنا مفهوم اللفظين ، مع العناية بشرح المذاهب التى أثارت رجال الدين وأغرتهم باضطهاد الفلاسفة .

فى القرن الغابر . وقد أسلفنا الإشارة إلى أسبابه ، وحرصنا على الحديث عن العلم الطبيعى فى عصر النهضة وما بعده بقليل : يبرره تصور هذا العصر للبحث الفلسفى الحديث ومدى إدراكه لموضوعاته ، فالعلم الطبيعى لم يكن قد انفصل عن الفلسفة بعد ؛ وكانت الأبحاث الفلسفية الحديثة — من ناحية أخرى — تتجه إلى ميادين العلم الطبيعى — كما نتصوره الآن ، حتى لقد كان « جاليليو » يسمى عند مؤرخيه « شيخ الفلاسفة » ، وقد آثرت أن أنظر إلى موضوع بحثى بمنظار العصر الذى أقوم بتأريخه ، حتى يتيسر لى تصوره على أكمل وجه مستطاع .

وفى الحق إن موضوع الكتاب رحب الآفاق ، بحيث لا تفى هذه الصفحات باستيعاب الحديث عنه ، ومن الجرأة التى لا يسيغها منهج البحث العلمى أن ندعى بأننا أرخنا فى هذا الكتاب النزاع بين الدين والفلسفة فى كل زمان وفى كل مكان ! وحسبنا أن نقول إننا عرضنا فى هذه الصفحات نماذج للتعبير عن روح النزاع فى كل عصر من عصور التاريخ — منذ استقام أمر الفلسفة إلى جانب الدين[1] . وقد آثرنا — لسعة الموضوع على هذا النحو — أن نذيل كل فصل — بل كل فقرة فى أكثر الحالات ، بالمصادر التى استقينا منها مادتنا ، بل زودنا القارئ بمصادر أخرى — لم نتمكن من قراءتها ، عسى أن تسد حاجته إلى المزيد من التفصيل .

---

(١) من بواعث هذا التنويه بسعة الموضوع ، ما يلاحظه القارئ فى المصادر التى عرضت له ، فالأستاذ « هوايت » يؤرخه فى نحو تسعمائة صفحة من الحجم الكبير تحت عنوان « تاريخ النزاع بين اللاهوت والعلم فى العالم المسيحى » A Hist. of the Warfare of Science with Theology in Christendom 1930 والأستاذ روبرتسون يضع سفرا من مجلدين فى نحو ألف صفحة ويسميه « الموجز فى تاريخ الفكر الحر » J. M. Robertson, A Short Hist. of Freethought, (1915) — وإن كان موضوعه أعم — ويضع سفرين آخرين فى حجم قريب من ذلك ، عن « تاريخ الفكر الحر فى القرن التاسع عشر » ومثل هذين المؤلفين كثير ! وسنعرف هذا فى مصادر الفصول التالية .

خلاصة هذا الكتاب وعلاقته بكتابنا عن الاضطهاد :

طارد المتزمتون من رجال الدين أحرار الفلاسفة ، ونكلوا بهم فى غير رفق ولا رحمة ، واستطاع الاضطهاد الدامى أن يسكت أصواتهم أمداً من الزمان — قصر أو طال ! ولكن الأفكار التى استشهد هؤلاء الأحرار من أجلها قد بقيت حية بعد مصرعهم ، تكفل صدقها بخلودها ؛ فالفكرة الصحيحة التى يتكشف عنها النظر الفلسفى أو البحث العلمى لا تموت أبداً ، لأن صدقها لا يعرف زماناً ولا مكاناً يقف عنده ، وصدقها يضمن بقاءها بل يكفل خلودها ! وسيان بعد هذا أن ينجح أو يفشل الاضطهاد الآثم فى إسكات أصوات الداعين لها ، أو استئصال المؤمنين بها ، لأن الفكرة باقية ، والاضطهاد لا يمكن أن يعيش أبداً ، والفكرة الصحيحة إذا عدمت أنصارها فى أيامه السود وجدت هؤلاء الأنصار بعد انقضاء عهده المشئوم ، ومن هنا كان الفشل هو المصير المحتوم لكل اضطهاد يزاول فى مجال الفلسفة والعلم معاً . وللإبانة عن هذه الفكرة وضعنا هذا الكتاب .

ولكن الاضطهاد الدامى يمكن أن ينجح فى غير هذا الميدان ، إنه يحقق غايته ، متى كان يهدف إلى تغيير مجرى الإيمان الدينى مع الإبقاء على مجاله ، أى متى كان يقصد إلى إحلال دين مكان دين ، هذه فكرة لا تدخل فى نطاق كتابنا هذا ، ولكن دراستها ضرورية لاستيفاء البحث فى موضوعنا ، ولهذا وضعنا كتاباً آخر (١) للإبانة عنها والتدليل على صحتها .

كلمة أخيرة :

حسبنا هذا مقدمةً لهذا الكتاب ، وإذا كان بعض الباحثين الذين عرضوا لدراسة هذا الموضوع قد قنعوا بتأريخ هذا النزاع ، ولزموا الحياد وتحاموا تأييد فريق دون فريق ، فقد تجاوزنا نحن هذه المرحلة ، وعالجنا أبواباً لم تطرق من قبل ، وكان لنا موقف إزاء ما نعرض من وجهات النظر عند المعسكرين

(١) هو كتاب « قصة الاضطهاد الدينى » وقد قامت بطبعه ونشره دار الفكر العربى .

وهو موقف خالفنا فيه غيرنا فى أكثر من موضع ، ولم نرتفع به فى مراتب القسوة إلى مثل ما ارتفع بعض الباحثين من الأمريكيين والأوربيين ، وإذا كنا قد قسونا على غلاة المتعصبين فى المسيحية والإسلام معاً ، فقد عقبنا فى غير موضع فى هذا البحث بتأييد حق المعتدلين من رجال الدين فى مناهضة التطرف والمغالاة ، ومقاومة « إذاعة » النزعات الجامحة « ونشر » الآراء الهدامة ، والعمل على حماية الدين وتقاليده من كل أذى يتهددها ، لأنهم إن تهاونوا فى أداء هذا الواجب ، تخلوا عن القيام بوظيفتهم ، ومكنوا خصومهم من إيذاء دينهم وتقويض نفوذهم .

* * *

هذا كتابنا — فُصِّلتْ فيه آيات النزاع بين العقل والإيمان ، توكيداً لقيمة الفكر الحر ، وتبياناً لمضرة الاستبداد الجائر ، وتكريما للاستشهاد فى سبيل الحقيقة ، « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض . . . » ؟

الإسكندرية فى { صفر ١٣٦٦ هـ / يناير ١٩٤٧ م }

توفيق الطويل

الفصل الأول

حرية النظر العقلى

والقُوَى الناهضة لها

حرية النظر وآفاقها — طبيعة العقل البشرى — طبيعة المعتقد الدينى — موقف الإنجيل والسلطات الدينية من حرية النظر (رأى درابر وبيورى ووايت — مناظرة محمد عبده وفرح انطون) — جهالة السلطات الدينية — رجعية الجامعات — محاكم التفتيش — رجعية القائمين بالاصلاح الدينى — أحرار الفكر من المصلحين — كلمة أخيرة

حرية النظر وآفاقها :

يراد بحرية النظر تحرر العقل من كل سلطة تفرض عليه من خارج ، وقدرته على مسايرة منطقه إلى أقصى آماده وإذاعة آرائه — بالغاً ما بلغ وجه التباين بينها وبين أوضاع العرف وعقائد الدين ومقتضيات التقاليد — من غير أن تتصدى لمقاومتها أو التنكيل بصاحبها سلطة ما . وضعت انجلترا قوانين لمحاربة التجديف — على ما سنعرف بعد — واستندت فى وضعها إلى أن المسيحية جزء من قوانين البلاد ، وأن الاستخفاف بقدسية الدين وإنكار عقائده والتبشير بمبادىء لا تساير تعاليمه ، جرحٌ لعواطف المؤمنين ، فرأى أحرار الفكر من أمثال ج . ف . ستفن أن الحرية تقتضى — متى استقام أمر العدالة — أن يتساوى المؤمن والملحد أمام عرف البلاد وقوانينها ، وأن من الظلم البين أن يحارب التجديف والتهجم على عقائد الدين بحجة أنه جرح لعواطف المؤمنين ، لأن مسايرة هذا المنطق تفضى إلى المطالبة بوضع قوانين لمحاربة الوعظ والتبشير بالدين ، لأن فيه جرحا لعواطف الملحدين . . ! فإذا ضاق المؤمنون بهذا المطلب ، سجلوا على أنفسهم مالا يشرف دينهم ولا يبرر قوانينهم ، وهو أن رائدهم كان الاضطهاد وليست العدالة . . بل

يشهد بهذا الاضطهاد مجرد إكراه الملحدين — او محاولة إكراههم بالتضييق المستتر — على اعتناق دين لا يقرون بصحة قواعده . . !

ويرى غير العقليين[1] من المؤمنين أن عقائد الدين لا تدخل فى نطاق التجريب العلمى ولا تخضع لمنطق النظر العقلى ، ومن هنا لزم الاكتفاء بالوحى عند التسليم بصدقها ، وحسب المؤمن عجز خصومه عن إثبات بطلانها ، بل إن التدليل العقلى لا ينهض حجة على إنكارها ، ولكن أحرار الفكر لا يرضيهم هذا النزوع ، ويرون أن الدين — كغيره من الظواهر — يخضع لمنطق العقل ، وأن مهمة التدليل على صحة العقائد ملقاة على عاتق المؤمنين وحدهم — أشار رجل إلى جهنم ساخراً متهكما ، فقال محدثه وكان على إيمان بها : إنك لا تستطيع أن تقيم الدليل على بطلانها — بالغاً ما بلغ وجه التهافت فى توهم وجودها ، فقال محدثه : إذا نبئت بأن فى كوكب سيار يدور حول الشعرى اليمانية ، يقيم جنس من الحمير يتحدث اللغة الانجليزية ، وينفق وقته فى البحث فى تحسين سلالة الحمير ، فإنك لا تقوى على إثبات ما يتضمنه هذا الزعم من تهافت ، فهل يبرر هذا العجز اعتقادك فى صحته . . ؟ ومع هذا فإن العقل مهيأ للتسليم به عن طريق الإيحاء متى تكرر تكراراً كافيا ، لأن الإيحاء بتكراره القاطع المؤكد ، كبير الأثر فى إقرار الآراء الجازمة ، وإذاعة المعتقدات الدينية .

ومعنى هـذا أن حرية النظر تبيح الخروج على كل مألوف ، والتهجم على قدسية الحرمات ، وتقر المضى فى هذا السبيل إلى أقصى آماده ، أسوة بالمؤمنين الذين لا تعوقهم سلطة عن تأييد عقائدهم ، واستباحة الحرمات فى مجال الالحاد . . ! ولا يقنع بهـذا هؤلاء المتطرفون من أحرار الفكر ، بل يلقون عبء التدليل العقلى عن عواتقهم ، ويحملون المؤمنين تبعته متى كان شاقا وعراً أو متعذراً . . ! ! لأنهم هم الذين أقاموا القضية الدينية ، فعليهم وحدهم عبء التدليل على صحتها .

---

(١) من الغريب أن يقول بهـذا الرأى منشىء المذهب العقلى فى الفلسفة الأوربية الحديثة وهو « ديكارت » وأن رفض أتباعه اعتناق رأيه كما سنعرف بعد .

وقد كان طبيعياً أن ينذر مثل هذا الشطط بقيام نزاع بين أهله وحماة الدين وحراس التقاليد المرعية ، ويقول تاريخ التفكير الحر منذ أقدم العصور : إن العقل الحر متى نزع إلى الانصراف عن قديم مألوف ، وتطلع إلى اكتشاف جديد مجهول ، أثار عند المحافظين ضيقاً قد يرتفع إلى مرتبة الاضطهاد الدامى ، وتصدت لمقاومته قوى تتفاوت شدة ليناً ، منها الطبيعى الذى لاحيلة للانسان فى أمره ، والصنعى الذى استحدث مع الظروف وساير روح العصر الذى نشأ فيه ، ومرد المقاومة إلى ما حققه الباحثون بشأن طبيعة العقل البشرى ، وطبيعة المعتقد الدينى — بالإضافة إلى أن الشطط فى النزوع الحر والاستخفاف بعواطف الناس وميولهم الفطرية ، مثار للضيق والتبرم — فلنعرض فى إيجاز للحديث عن هذين العاملين :

طبيعة العقل البشرى :

إذا كان العقل بفطرته حراً ما اتسع للحرية تصوره ، ومدت فيها تجارب صاحبه ، فإنه نزاع بطبيعته إلى إذاعة ما ينتهى اليه من وجوه النظر ، فإن صد نزوعه عائق ، ضاق به ونزع إلى مقاومته : وربما استشهد صاحبه فى سبيل ذلك ، وقد عبر العالم بحيرات من دماء شهدائه ، حتى توصل آخر الأمر إلى إقرار حرية النشر بمختلف صورها ، وجعلها حقاً طبيعياً لكل فرد من أفراده .

والعقل وإن كان بحكم وظيفته الطبيعية نزاعا إلى التفكير الحر ، ميالا إلى إذاعة آرائه على الأغيار ، فهو بفطرته نزاع إلى الكسل حريص على أن يبذل من ذاته أقل جهد ممكن ، ثم هو عامر بمعتقدات تسللت اليه خفية أو جهاراً ، واستقر الكثير منها فى ذاته اللاواعية وتدعم كيانها ، وأضحت كل فكرة جديدة لا تتمشى معها ، إعلاناً بالحاجة إلى إعادة النظر فى هذه المعتقدات ، وهذا إيذان بأن العقل مطالب ببذل جهد ونشاط لا يساير طبيعته فى الحرص على الاستمتاع بأكبر حظ من الراحة ، وقد حمله هذا النزوع الطبيعى إلى الظن بأن سعادة الأمة مرهونة بمدى استقرارها والمحافظة على تقاليدها

ونظمها — وإن احتواها الفساد ومست الحاجة إلى تعديلها .. ! وقد عاش هذا الوهم فى عقول الناس طويلا ، حتى اكتشف وجه الخطأ فيه حديثاً .

وهذه النزعة فى طبيعة الإنسان : يقويها جهله ويخفف وطأتها أو يلاشى آثارها اتساع عقله واستنارة ذهنه ، وإذا نزلت الجهالة بالعقل وحالت دون قيامه بوظيفته الطبيعية فى التفكير والتأمل النظرى ، انطلق الإنسان يعمل بوحى من مكنونات ذاته اللاواعية ، وعندئذ يزداد ميله إلى الاستكانة للمعارف فيختصم مع كل خارج على العرف الذى ألف ، وينساق فى مقاومته وقد وضع بينه وبين منطق العقل حجاباً ، لأن العقل معطل بجهالته عن أداء وظيفته فى التفكير ، فإذا دخل فى اعتقاده أن الظواهر الطبيعية مرجعها إلى الله أو إلى القوى الخفية عنه ، هاله أن يرى غيره حريصا على مناقشة أسبابها بالعقل ، وأفزعه أن ينتهى من بحثها مستندا إلى منطقه أو معتمدا على تجاربه إلى غير ما عرف الناس ، وإذا كان كسوف الشمس أو خسوف القمر فى عرف قوم شاهداً من الشواهد التى تستخدمها الآلهة للاتصال بهم ، وإلقاء نوع من المعرفة اليهم ، فإن التبشير بعلة هذه الظاهرة الطبيعية معناه اتهامهم بالجهل وقصور النظر ، وهو اتهام لا يرضاه لنفسه إنسان ، فضلا عن أنه قلب لنظام يميز المجتمع الذى يعيش فى ظله هؤلاء الناس ، وهذا فوق أنه إهانة موجهة إلى آلهتهم .... وهذا كله كفيل بأن يكون مثار ضيقهم ومبعث النزوع إلى تنكيلهم بهؤلاء الخصوم . ثم كيف يرضى رجال الدين — الذين يتولون بحكم وظائفهم تأويل هذه الشواهد الإلهية — بمثل هذا التفسير الجديد الذى يستند إلى منهج التجربة أو يقوم على شريعة العقل ، ولا يعبأ بحرمة الحياة الدينية وقدسية رجالها ، فيتهجم على أسرارها ويهتك سترها على هذا النحو المعيب غير المألوف ؟ ويهدد رجال الدين — فوق هذا كله — بتقويض سلطانهم والحد من نفوذهم .. ؟ !

طبيعة المعتقد الديني :

هذه هى طبيعة العقل البشرى من حيث الضن بنشاطه والحرص على راحته ، ويُقوى الجهل من هذه النزعة الفطرية ، ويزيدها سوءاً طبيعة المعتقد الدينى ، وقد حقق الباحثون الذين عرضوا للنظر فى طبيعة المعتقدات وخواصها أن لها ناموسين : أولهما فيما يقول « لوبون » فى « الآراء والمعتقدات » أنها بحكم الضرورة عديمة التسامح ، بل لقد ذهب بعضهم إلى أن عدم التسامح يتمشى طردياً مع قوة المعتقد عكسياً مع ضعفه ، وأن الإيمان متى احتل قلوب الناس قل اصطبارهم على من ليسوا على دينهم بله الخارجين على تعاليمهم ، وهذه سنة عرفت منذ أقدم العصور . وقد صور هذا الناموس القديس « توما الأكوينى » حين قال : إن الإلحاد إثم يستحق صاحبه الإعدام . . ! وثانى الناموسين يقول — فيما يروى « لوبون » فى « روح الثورات » : متى عظمت شوكة طبقة فى الشعب نزعت إلى استعباد سائر الطبقات . وبتطبيق هذين الناموسين على تاريخ النزاع الذى وقفنا عليه هذا الكتاب ، نرى أن اضطهاد رجال الكهنوت لرواد العلم والفلسفة الجديدة كان قضاء لا مفر منه ولا مناص من شره ، وذلك لأن البرهان العقلى يقوم على استنباط نتائج من مقدمات تلزم عنها هذه النتائج ، وهو يخالف طبيعة البرهان الدينى الذى يلزم فيه الإيجاز مع مراعاة حالة السامع وظروفه وغير هذا مما لا تقتضيه طبيعة الدليل العقلى .

ومن هذا نرى أن النظر العقلى الحر تتضافر على اضطهاده — بالإضافة إلى ما يترتب على شطحات الحرية الفكرية — طبيعة العقل البشرى من ناحية ، وطبيعة المعتقد الدينى من ناحية أخرى ، ولكن حديثنا عن العامل الأخير يعوزه التفصيل الذى يتكشف عن إقرار الكتب المقدسة فى وضعها الصحيح ، ومعرفة مدى التبعة التى تحملها فى النزاع بين العقل والإيمان .

موقف الإنجيل والسلطات الدينية من حرية النظر :

ذهب بعض الباحثين فى هذا الموضوع إلى أن الكتاب المقدس مسئول عن محاربة دعاته للعقل الحر فى أوربا ، ونفى عنه غيرهم هذا الاتهام ، ونزهوا تعاليمه عن عرقلة نشاط العقل ، وعزوا هذا للأغبياء والحمقى من رجاله ، وأصحاب السلطة منهم بوجه خاص ، فأما خصوم الكتاب المقدس فيمثلهم جون وليام درابر G. W. Draper الأستاذ بجامعة نيويورك وصاحب كتاب Tre History of the conflict between Religion & Science الذى صدر عام ١٨٧٣ وأعيد طبعه عشرات المرات ، وقد صور هذا النزاع قائماً بين طبيعة الدين وطبيعة العقل البشرى ، وقد ترجم كتابه إلى الفرنسية تحت عنوان Les confliits de la Science et de la Religion وأثار الكتاب ثائرة المؤمنين فى كل مكان . ومن دعاة هذا الرأى الأستاذ بيورى J. B. Bury أستاذ التاريخ الحديث بجامعة كامبردج وصاحب كتاب The History of the Freedom of Thought على ما أشرنا فى مقدمة الكتاب .

ورغم ما عهد فى أساتذة الجامعات — ولا سيما المؤرخين منهم — من اتزان ورعاية للتقاليد والتزام الاعتدال وتحاشى إثارة الرأى العام ، فإن هذا الكتيب كان عند صدوره مثار الضيق فى المعسكرات الدينية والدوائر المحافظة فى انجلترا ، وحسبنا أن نعرف من آراء هذا المؤرخ فى الكتاب أنه يرى فى فصل عقده على العقل الأوربى الأسير فى العصر الوسيط أن طبيعة الكتاب المقدس — فضلا عن منطق تعاليمه — تحمل نصيباً فى تبعة مبادئ التعصب التى اعتنقتها الكنيسة الكاثوليكية ، ويصرح بأن المسيحيين الأول قد ضمنوا — لسوء الحظ — كتابهم المقدس تلك المقطوعات اليهودية التى تصور أفكار مرحلة منحطة من المدنية حافلة بالبربرية ؛ وليس من الهين — فيما يقول — أن نعرف إلى أى حد أضرت بأخلاق الناس تلك المبادئ ومُثل القسوة والعنف والتعصب الدينى ونحوه مما كان يدين به قارئ العهد القديم ، فإن هذا قد أمدهم بزاد خصب لتأييد نظرية الاضطهاد ، « والواقع أن

الكتب المقدسة عقبة تعوق التقدم العقلي والأخلاقى ، لأنها تحوط بالقداسة أفكار عصر معين وعاداته على اعتبار أنها من وضع الآلهة ، والمسيحية بإذعانها لكتب عصر عريق فى القدم ، قد وضعت فى طريق التقدم الإنسانى عقبة كأداء لها خطورتها ، وإن الإنسان ليعجب كيف كان ينتظر أن يتغير مجرى التاريخ — ومن المحقق أن التغير كان واقعاً لامحالة — لو أن المسيحيين قد استبعدوا أسفار موسى الخمسة من كتابهم وقنعوا بالعهد الجديد وحده ، ورفضوا وصايا العهد القديم » .

مناظرة بين الإمام وفرح أنطون :

حسبنا هذا إشارة إلى بيورى ودراپر فسيرد تفصيل آرائهما فى الفصول التالية متناثراً ، ولكن الحديث عن اتجاههما يذكرنا بمناظرة شائقة جرت بين الأستاذ محمد عبده والأستاذ فرح أنطون ، إذ يروى الأخير فى الجزء الثامن من السنة الثالثة من الجامعة فى عرض حديثه عن ابن رشد ، أن الإسلام قد جمع بين السلطتين : الزمنية والروحية ، بحكم الشرع الذى جمع الملك والخلافة فى يد الحاكم ، بعكس المسيحية التى فصلت بينهما فصلا تاماً فى قولها : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » فمهد هذا الفصل لانتشار العلم والفلسفة . فتصدى الإمام « محمد عبده » للرد عليه[1] ، وفصل فى بيان ما رآه أركاناً للدين المسيحى وأصولا له مستقاة من الأناجيل المعروفة فى أيدى المسيحيين وكلام أئمتهم الأولين ، وما ترتب على هذه الأصول من نتائج تتصل بالعلم والفلسفة ، فقال إن الأصل الأول للنصرانية : خوارق العادات . وهذا يضاد القول « بأن للكون شرائع ثابتة وأن للعلل والشرائط أو الأسباب أو الدوافع أحكاماً فى معلولاتها أو ما شرطت فيه أو ما تسبب عنها أو ما استحال وجوده

---

(١) نشر الرد فى سلسلة مقالات فى مجلة المنار ، ورد المرحوم أنطون فرح على الرد فى « الجامعة » ثم نشر رد الامام فى كتاب « الاسلام والنصرانية » ونشر فرح أنطون رده فى كتاب « ابن رشد وفلسفته » ١٩٠٣ .

لوجودها ، وصاحب الاعتقاد فى الخوارق فى غنى عن العلم الذى يبحث فى الأسباب والمسببات .

وثانى أصولها : سلطة الرؤساء على المرءوسين فى عقائدهم وما تكنه ضمائرهم ، وهذا الأصل موضع نزاع بين المسيحيين اليوم ، ولكنه الدين الذى جروا عليه خمسة عشر قرنا ، وبذلك يصبح عقل المرءوس وتفكيره مرهونا برأى رئيسه الدينى .

وثالث أصولها : التجرد من الدنيا والانقطاع للأخرى ، والدنيا محرمة عليه بحكم هذا التشريع .

ورابع أصولها : أن الإيمان منحة لا دخل للعقل فيها ، وأن من الدين ما هو فوق العقل ، أى مناقض لأحكامه(١) ، والسنة التى وضعها القديس أنسلم : الاعتقاد أولا ثم فهم هذا الاعتقاد بعد ذلك(٢) .

وخامس أصولها : أن الكتب المقدسة تتضمن كل ما يحتاج إليه البشر فى المعاش والمعاد معا ، وبهذا يصبح العلم متضمنا فى تعاليمها ولا شىء سوى ذلك .

وسادس أصولها : المحافظة على هذه الأركان على اعتبار أن الإخلال بمحبة المسيح والانقياد إلى وصاياه موجب للهلاك .

وقد أدت هذه الأصول فيما يقول الأستاذ الإمام — إلى انزواء العلم فى الأديرة وتحريم نشره بين العامة ، إلا ما كان داعياً للصلاح والتقوى ، وقد مهد هذا كله للرقابة على المطبوعات وقيام محاكم التفتيش ومطاردة رواد الفكر الحديث .

وقد عرض الأستاذ بعد هذا للفصل بين السلطتين فى المسيحية ، فقال إن الآية : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، أصلها أن بعض المرائين سألوا المسيح — تجسسا — عن الجزية التى يطلبها قيصر ، فطلب المسيح دينارا

---

(١) الواقع أن ما فوق العقل لا يلزم عنه أن يكون مناقضا لمنطق العقل ، بل قد يتمشى فى النهاية مع مقتضيات العقل وإن كان لا يقوم على ما يستلزمه منطقه .

(٢) من الانصاف أن نقول ان هذا هو موقف علماء الكلام فى الإسلام كذلك وليس فى المسيحية وحدها .

وقال : لمن هذه الصورة والكتابة .. ؟ قالوا لقيصر ، فقال : أعطوا ما لقيصر ... أى ادفعوا لصاحب السكة ما يطلبه ، أما عقولكم وقلوبكم وكل ما اتسم بطابع الله فلا تقطعوا لقيصر منه شيئاً ، وبديهى أن العلم ليس عليه طابع قيصر ... ويقول مع هذا : إن افتراض الفصل بين السلطتين لا يحل المشكل ، لأن دين الملك يقضى بمعاداة العقل ، وسيضطره إلى جعل مصالح مملكته قربانا لسلطان عقيدته ، بل إن الفصل بين الحاكم الدنيوى والرئيس الدينى كفيل بإيجاد النزاع بينهما حتى يتغلب أحدهما على الآخر ... الخ .

* * *

هذه نماذج من حملات الذين حملوا الكتاب المقدس تبعة الاضطهاد الدامى للعقل ورواده ، وقد تصدى لدحضها وبيان وجه الضعف فى حججها الكثيرون من الباحثين ورجال الدين على السواء ، وفى طليعة هؤلاء : الأستاذ أندروديكسون وايت A. D. White الذى وضع سفرا ضخما فى مجلدين يستغرقان نحو ألف صفحة Hist. of the Warfare of Science wiht Theology in Christendom أى « تاريخ النزاع بين العلم واللاهوت فى العالم المسيحى » ، يصور فيه النزاع قائما بين رجال اللاهوت ورواد الفكر الجديد ، ويصرح فى مقدمة كتابه الضخم بأن « درابر » قد أخطأ عند جعل النزاع قائما بين طبيعة الدين وطبيعة العقل ، وأكد القول بأن تعصب رجال الدين وتزمتهم هو الذى أفضى إلى مآسى الاضطهاد الذى عرفته أوربا ، ونستطيع أن نقول إن « بيورى » — وإن لم يُعفِ النصوص المقدسة من تبعة هذا الاضطهاد الآثم — يلح فى توكيد القول بأن رجال الكهنوت إن تهيأت لهم سلطة ما ، بسطوا نفوذهم خارج نطاقهم ، ونزعوا إلى إيذاء خصومهم والتنكيل بكل من لا يذعن لرأيهم وينقاد لتفكيرهم .

فأما عن حديث الأستاذ الإمام فقد تولى تفنيد أدلته فرح أنطون ، وبمقدار ما كان الأول قويا حاذقا فى هجومه ، بقدر ما كان الثانى موفقا فى دفاعه منطقيا فى مناقشاته ؛ وحسبنا من رده المتزن عُتْبه على الأستاذ فى تحامله

على طبيعة الديانة المسيحية بما ليس فيها تأييداً لحجته ، وقطعه بأن طبائع الأديان كلها منزهة عن الشر داعية إلى الخير ، ومرجع الشر فيها إلى من أساء فهمها من أهلها ، ثم إلحاحه الشديد فى توكيد المبدأ الذى قرر من قبل أنه سر الرقى فى أوربا وإليه مرد النظر العقلى الحر ، وهو الفصل بين السلطتين الزمنية والروحية ، وقد أسهب فى بيان هذا قائلا إن الدين مجرد علاقة بين المخلوق وخالقه ، فليس يعنى الإنسان دين غيره أياً كان هذا الدين ، وعلى أساس الإخاء الذى بشرت به الأديان يحق للإنسان من حيث هو إنسان أن يتولى حتى رياسة أمته بصرف النظر عن عقيدته ، وأن يعتقد ما شاء من الآراء والمذاهب ، ولكن السلطات الدينية لا تحتمل هذا التسامح ، لأن الحقائق لا تكون حقائق إلا لأنها صدرت عن هذه السلطات أو اعتمدت منها ، وكل ما خالف هذا فهو كفر ، إن أذعن صاحبه لها بالترغيب أو الإكراه كان بها ، وإلا أولته احتقارها وخصته باضطهادها ، ثم إن إعطاء الإنسان الحق فى اعتناق الدين الذى يشاء والرأى الذى يريد ، ينشأ عنه الحق فى عدم الاعتقاد بشىء ما ، ويترتب على هذا حقه فى جحد الأديان وإنكار حقائقها ، وأعدل عقاب ينزله رجال الدين بمثل هذا الكافر قتله ، وليس يمنعهم من ارتكاب هذه الجريمة إلا حاجتهم إلى السلطة ، ومن هنا وجب الفصل التام بين السلطتين : المدنية والدينية . لأن الحكومة غرضها حفظ الحريات فى حدود الدستور ، أما السلطات الدينية فوظيفتها حفظ تعاليم الدين ونشرها بين الناس ، وبين الغرضين هوة سحيقة القرار ، فاذا انتهى النظر العقلى أو الاختبار التجريبى إلى إقرار رأى لا يتمشى مع عقائد الدين وتعاليمه ، كان على الحكومة ألا تنهض لمقاومته إلا إذا تضمن العدوان على الحريات ، وذلك لأن الحقيقة المطلقة لم تكتب بعد فى قاموس الحكومة ، وأما السلطات الدينية فمن واجبها النهوض لمقاومته والاستبسال فى الجهاد فى سبيل الله ، فإن تولت زمام الحكم ، جنحت إلى مقاومة الفكر الجديد لا محالة ، وميزت على دعاته معتنق دينها ، ومن هنا كان إطلاق العقل البشرى من كل قيد خدمة لمستقبل الإنسانية ، يستلزم الفصل بين السلطتين وتجريد حبر الأحبار من كل سلطة زمنية ، وكف

يده عن التدخل فى الشئون الدنيوية ، لأن الأديان شرعت لتدبير الأخرى لا لتدبير الدنيا . فاذا لم يقع هذا الفصل نزع رجال الكهنوت إلى اضطهاد الذكاء النزاع للاستقلال بنفسه وخنق التنوع فى التفكير ، وصب العقول البشرية فى قوالب واحدة ، ومجاراة الدوام والأميين باضطهاد المتفوقين عليهم فى مجال النظر العقلى ، ومعنى هذا كله قتل الحياة العقلية لا محالة .

وهذا بالاضافة إلى تعرض الدين لأوحال السياسة ومفاسدها ، أما عن الآية « أعطوا ما لقيصر ... » فليس يعنينا تفسيرها لمعرفة أصلها ، بقدر ما يعنينا إقرار حقيقة واقعة ، هى أن الملوك فى أوربا قد استندوا إليها وإلى آية أخرى هى « مملكتى ليست من هذ العالم » فى الفصل بين السلطتين ، وإن كان رؤساء الدين المسيحى إلى مطلع القرن العشرين ، يرون هذا الفصل بدعة إلى حد أن البابا يقرر فى منشورات رسمية أن حرمانه من السلطة المدنية ، يحط من كرامة الدين . . ! ولكن الفصل قد تم على كره من هؤلاء ومن تفسيرهم للآية السالفة ، فاذا تم الفصل حسب التأويل السابق ، وجب — تلافيا لعجز الملك عن تجرده من دينه — أن يقيد الملك بالدستور الذى يكفل الحريات ، وعندئذ تمحى أهمية عقيدته الدينية .

وإذا تم الفصل سادت السلطة الزمنية ، وخسرت به السلطة الدينية نفوذها وسلطانها وغلبت على أمرها ، وتمكن العقل من أن يرقى حرا بعيدا عن كل قيد ما دامت مذاهبه لا تؤدى إلى الحجر على حرية أحد من الناس ، حتى لا تتدخل الحكومة لقمعه ، وبغير سيادة السلطة الزمنية لا يكون ثمة فصل بين السلطتين ، ولا خوف من استبداد الحاكم السياسى لأنه مقيد بالدستور ، بل إن العلم قد سلب رجال الدين نفوس الخاصة من الناس ، وسلبتهم أو ستسلبهم الاشتراكية نفوس العامة ، وبهذا يصبح الناس فى غنى عن السلطة الدينية . . ! وبهذا ينطلق العقل حراً من كل قيد ، ويمتنع التنازع بين أهله ورجال الدين وما أصدق فكتور هوجو حين قال : نحن مع الدين على رجاله . . . !

ويعرض صاحب الجامعة بعد هذا الذى فصله فى نيف وعشرين صفحة

من القطع الكبير إلى مناقشة ما اعتبره الأستاذ الإمام أصولا للديانة المسيحية وأركانا ، فيفنده فى نيف وعشرين صفحة أخرى ، قائلا ما خلاصته :

إنه يسلم بالقول بخوارق العادات والإيمان بغير المعقول (وهما الأصلان الأول والرابع فى حديث الإمام) ، ويصرح بأن الدين إذا كان عقليا تحول إلى علم ، لأن الإيمان بالخالق والآخرة والوحى والبعث والحشر وخلود النفس ونحوه أمور غير محسوسة ولا معقولة ، ولا دليل عليها إلا ما جاء فى الكتب المقدسة ، ومن هنا اتفق الغزالى فى تهافته (ص ٤٤ — ٦٥ و ٦٤) مع خصمه ابن رشد فى تهافت التهافت (ص ١٢٥ — ٦ و ١٢٩) على أن الإسلام — ككل دين فى العالم — فوق العقل ، ومرد المعجزات إلى الخروج على المبدأ العلمى فى تلازم الأسباب والمسببات ضرورة أو عدم تلازمها ضرورة ، والمعجزات مبادىء تثبيت الشرائع — كما قال ابن رشد نفسه — والمنطق والعقل يؤديان إلى الهاوية كما قال رينان ، فأساس الأديان كلها اعتبار الفاعل فى المواد خارجا عنها — أى فى الغائب لا فى الشاهد — ومن هنا نرى أن الأديان كلها قائمة على الغيب ، ولولا الخوارق لانهدم الدين.

وأما عن أصل النصرانية الثانى وهو سلطة الرؤساء ، فإنه يعترف بإفراط الكنيسة فى استعمال هذه السلطة ، وإن رآها ضرورية لمنع الفوضى ، ولكن قول الإمام إن عقل المرءوس مرهون برأى رئيسه ، يثير ابتسام المسيحيين ولا سيما بعد أن أصبح المرءوس رئيساً . . !

أما عن أصلها الثالث ، وهو ترك الدنيا ، فإن خطبة المسيح على الجبل (الإصحاح الخامس والسادس والسابع من إنجيل متى) قد قررت الفصل بين الدين والدنيا بما لا يدع مجالا لشك ، وحضت المؤمنين على ترك الدنيا والتسامح مع مخالطيهم « إن كل من يغضب على أحد يكون مستوجب الحكم ، فكن مراضياً لخصمك دائماً . . . سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وادعوا إلى الله أن يغفر للذين يسيئون إليكم » وإن لم يقصد الشارع إلى هذا

بل أدت إليه طبيعة الزمان الذى عاش فيه ، إذ استحال إدراك السعادة عن طريق الطلب ، فنزلت المسيحية تحض على التماسها عن طريق الترك .

وأما عن الأصل الخامس وهو احتواء الكتب المقدسة لكل علم ، فقد اعتبره فرح أنطون مزاحا ومداعبة من الإمام ، وأغفل الرد عليه . ثم التمس العذر — بعد هذا كله — لرجال الكهنوت الذين أسرفوا فى قسوتهم مع رواد الفكر الحديث فى أوربا ، لأن هؤلاء كانوا بحق ألد أعداء للأديان ، ومن أجل هذا استباح الأكليروس المسيحى كل سلاح لمحاربة هؤلاء الملحدين، والمسيحية مع هذا بريئة من جرائم رجالها ، ولو ظلت السلطة المدنية مقرونة بالسلطة الدينية فى أوربا لتوقف تقدم العقل الأوربى لا محالة .

* * *

حسبنا هذا من رد صاحب الجامعة ، وهو على ما أعجبنا من اتزانه وسعة علمه وتسلسل منطقه ينطوى على فجوات ملحوظة ، لأن رده على خوارق العادات والإيمان بغير المعقول يُسوّى بين المسيحية وغيرها من الأديان ، ولكنه لا ينفى الاتهام الموجه إلى المسيحية بعرقلتها النظر العقلى الحر ، ورده على سلطة الرؤساء لا ينفى القول بأنها عاقت النظر العقلى فى أوربا قرونا طوالا ، قبل أن يتحول الحال ويصبح المرءوس رئيسا ، ورده على ترك الدنيا ضعيف ، لأن الذى يركز كل جهوده لآخرته ، خليق بأن يبغض من يخالفه فى سلوكه ، فإن تهيأت له السلطة أذله ، وربما قتله . . ! وقوله إن رجال الدين كانوا يقاومون العلم الطبيعى المعادى للدين وتعاليمه ، تعميم حيث ينبغى التخصيص ، إذ أن الكثيرين ممن نالهم أذى الأكليروس ، لم يكونوا أعداء ألداء لعقائد الدين المسيحى ، على ما سنعرف فى الفصول التالية . . . ومثل هذا فى رده كثير .

ومع هذه الملاحظات على رده على الإمام ، نقول إن قيمة النصوص المقدسة ليست فى ذاتها بمقدار ما هى فى طريقة تأويلها ، وأصحاب التأويل هم المسئولون عن فهم الدين المسيحى وما ينشأ عن هذا الفهم من تصرفات ، وقد فسر الإمام — ورؤساء الدين المسيحى قبله وبعده — الآية « أعطوا

ما لقيصر . . . . ، بما يفيد الجمع بين السلطتين ، وأولها صاحب الجامعة — وغيره من مفكرى المسيحية — بما يفيد الفصل بينهما ، ولكل من الفريقين وجهة نظر ، ومثل هذا الخلاف البين يمكن قيامه فى أكثر الآيات ، ومن هنا كانت تبعة السلوك المسيحى إزاء النظر العقلى الحر ، مردها إلى مؤولى النصوص المقدسة لا إلى هذه النصوص نفسها ، ولما كان التأويل حتى مطلع العصر الحديث فى يد رجال الكهنوت ، لا ينازعهم فيه منازع ، كانوا هم المسئولين عن جرائم النزاع بين الدين والفكر الحديث ، ولا سيما وأن الكتب المقدسة قد خلت من كل إشارة تعرقل طلاقة الفكر .

على أن من الإنصاف مع هذا كله أن نقول إن فظائع المسيحيين التى تضمنها هذا الكتاب لا يحمل تبعتها إلا رجالها — أو بعض رجالها فى الغرب — دون مسيحيي الشرق على ما أشرنا من قبل .

ومع هذا كان من الممكن ألا يقع هذا النزاع الآثم الدامى ، لو جُرد رجال الدين من سلطتهم ، هذه حقيقة سجلها تاريخ الأديان فى شتى البقاع ومختلف العصور ، على نحو ما عرفنا فى فاتحة هذا الكتاب مجملا ، وما سنعرفه فى فصوله مفصلا .

جهل السلطات الدينية :

ولو كان جميع رجال الكنيسة مستنيرين أو كانت تعاليمهم مسايرة للتفكير الناضج ، لهان خطب تعصبهم الذميم بعض الهون ، ولكنهم كانوا يمثلون دوراً من أدوار البربرية القديمة المظلمة قد تخلف مع الزمن ووجد فيهم خير حماة ، وبذلك أوقفوا تقدم المعرفة وأوصدوا أبواب العلم ، وحاولوا الحيلولة دون تقدمه حتى النصف الأخير من القرن الغابر ، وقد هيمنت الكنيسة على كل ميادين البحث العلمى ، وفرضت عليها ما تراه حقاً ، مستندة فى ذلك إلى سلطة الكتاب المقدس المعصوم من كل خطأ ، وسرعان ما اتصل الدين بالظواهر الطبيعية ونحوها مما يدخل فى نطاق العلم والفلسفة ، فاتصل وصف

التوراة لخلق الكون ووقوع الإنسان فى الخطيئة بفكرة الفداء فى المسيحية ، وأفضى هذا إلى استبعاد علم طبقات الأرض وعلم الحيوان وعلم الأنثروبولوجى من ميادين البحث الحر . وأصبحت الحقيقة هى التى تقوم فى ظاهر نصوص الإنجيل ، وتأويلها الحرفى كفيل بهداية الناس إلى وجه الحق فيما يبحثون ، وقد أدى هذا إلى القول بدوران الشمس حول الأرض ورفض الاعتقاد بأن الجانب المواجه لموطننا من الأرض معمور بالخلائق ، وإذا كانت العصور القديمة لم تخلُ من أمثال أبقراط الذى أقام دراسة الطب على التجربة والمنهج العلمى ، فإن العصر الوسيط قد ارتد إلى الأفكار البدائية فى العصور البربرية ، إذ كانت الأمراض الجسمانية تعزى إلى عوامل خفية ، أظهرها حقد الشيطان أو غضب الله . وقد أكد هذا أكبر آباء الكنيسة « أوغسطين » إذ قال إن أمراض المسيحيين مردها إلى الشياطين ، وسار فى هذا الاتجاه نفسه المنشقون عن الكنيسة ، فقال لوثر إن الأمراض مرجعها إلى إبليس ، وما دامت أسباب الأمراض فوق طبيعته ، فعلاجها من جنسها أى فوق الطبيعى ! وبينما كانت الكنيسة تربح من الأحجبة والتعاويذ كان الأطباء معرضين فى أكثر الأحوال للاتهام بالسحر والكفر معاً ، إذ كان تشريح الأجسام محرما ، ولعل مرد هذا إلى الاعتقاد فى بعث الأجساد يوم الحساب ، وقد كان اعتراض الدوائر الاكليركية على التطعيم منذ القرن الثامن عشر بعثاً لرأى العصر المظلم فى المرض ، وكانت الكيميا تعتبر فناً شيطانياً خبيثاً وقد أدان البابا المشتغلين بها عام ١٣١٧ م . وقد سجن روجر بيكون ١٢٩٢ مدة طويلة رغم حماسته للدين لمجرد نزوعه الطبيعى للبحث العلمى ، وهذا شاهد عدل على كراهية العصر الوسيط للعلم ؛ وحقيقة أن العلم اليونانى قد وقف تقدمه قبل أن تقوى المسيحية بخمسة قرون من الزمان ، ولم تظهر إلى الوجود مكتشفات علمية هامة بعد القرن الثانى ، ولكن تفسير هذا الاضمحلال يلتمس فى الأحوال الاجتماعية للعالم اليونانى والرومانى ، أما فى العصر الوسيط فإن الظروف الاجتماعية ربما كانت أكثر ملاءمة للروح العلمى والاهتمام ببحث الحقائق لذاتها ، وربما كان من الممكن أن يولد العلم من جديد مع هذه

الظروف الاجتماعية ، ولكن موقف الكنيسة من العلم وسلطانها فى تحديد الحقائق قد عاق تقدم الروح العلمى ، أو لعل الأصح أن نقول إن الضرر الذى أحدثته نظريات الكنيسة لا يعزى إلى ظلام العصر الوسيط بقدر ما يعزى إلى العقبات التى أقامتها الكنيسة فى وجه العلم .

وقد ورثت العصور الوسطى عن القديمة الاعتقاد فى السحر والجن وقوت من أمره ؛ واعتقد الناس أن الشياطين تحوطهم وتترقب كل فرصة للإضرار بهم ، وأن الأوبئة والزوابع والقحط وكسوف الشمس وخسوف القمر ونحوها من ظواهر طبيعية أو نكبات اجتماعية مردها إلى الجن ! وليس يقوى على إيقاف هذه الظواهر إلا الطقوس الإكليركية ، وقد عنى بأمر السحر بعض الأباطرة المسيحيين الأول فسنوا الشرائع لمقاومته ، وإن كنا لا نجد أثراً لمحاولة جدية ترمى إلى استئصال السحر قبل القرن الرابع عشر ، وقد وقع فى هذا القرن وباء مخيف دمر أوربا وسمى بالموت الأسود ، وقوت هذه الظاهرة من فزع الناس من عالم الشياطين الخفى . وقد لبثت أوربا منشغلة بمقاومة السحر والتنكيل بأهله ثلاثة قرون من الزمان ، وأيد الكتاب المقدس اضطهاد السحر إذ ورد فى إحدى وصاياه « لا ينبغى أن تترك ساحرة على قيد الحياة » وقد أصدر البابا أنوسنت الثامن أمراً بابوياً عام ١٤٨٤ أكد فيه أن الطاعون والزوابع من عمل الساحرات ، وآمن بهذا حتى المستنيرون من الناس ، حتى اجتثت النزعة العقلية الحديثة جذور هذه العقيدة ووضعت حداً لفظائعها .

ومن هنا نلاحظ أن الفترة التى بسطت فيها الكنيسة سلطانها على التفكير ، كان العقل مقيداً أسيراً فى سجن شادته الكنيسة للعقل البشرى ، وأن الكنيسة قد استغلت سلطانها على قلوب الناس وعقولهم ، واحتكرت حرية التفكير والنظر العقلى ، وفرضت على العقول رقابتها الصارمة ، ولو كانت الكنيسة مستنيرة مع هذا الاحتكار لهان خطب خطرها على العلم ، وإن كان الاحتكار فى كل الحالات يتنافى مع تقدم العلم ، لأنه يعرقل حرية النظر ، ويوصد أبواب الإبداع فى التفكير ، وبغير هذا لا يستقيم تجدد العلم وتقدم المعرفة .

رجعية الجامعات :

كان الأكليروس على جهالة ، ولكنه بسط نفوذه على الجامعات وحولها إلى معاقل للاستبداد وأوكار للرجعية ، على أن مرد نشأتها إلى أبيلارد الذى طالب باعتبار العقل محكا للحقيقة ، وأقر الأسئلة طريقة لاكتشافها ، دون اكتراث بما اعتمدته الكنيسة أو بشر به أرسطو من قبل ، وقد درس فى باريس وتولى التدريس بها فتهافت عليه الآلاف من الطلاب المعجبين بمنهجه ، فلما مات أبيلارد عام ١١٤٢ أنشأ طلاب العلم فى أواخر القرن الثانى عشر نقابة فى باريس تحرس مصالحهم ، وسموها Universitas فنشأت بذلك جامعة باريس التى ضمت ثلاثمائة وألف طالب فى ختام ذلك القرن ، وقامت بعدها الجامعات الأوربية القديمة ، فنشأت بولونيا وسالرنو واكسفورد وكامبردج إبان القرن الثانى عشر . وكان المنتظر وقد مهد لنشأتها رب الدعوة إلى تحرير العقل من قيود العقيدة الدينية والعلمية معاً أن تنتصر لحرية التفكير ، وتقى دعاتها عدوان خصومها ، ولكن الكنيسة كانت إذ ذاك تحتكر العلم وتهيمن على شئونه فسارت الجامعات فى ركابها ، وأخذت تتلقى الأوامر والتعليمات من رجالها ، وتلقى طلابها ما يبيحه هؤلاء وتحبس عنهم ما يحرمونه ، ومن هنا نشأت سياسة « التعليم السلمى » الذى جرت عليه الجامعات ، وأصبح أساتذة هذه الجامعات لا يعنون بالحقيقة من حيث هى وليدة نظر عقلى سليم أو اختبار تجريبى مؤكد ، بقدر ما يعنون بالاستجابة لطاعة الكنيسة واعتناق ما تقره من آراء ، فإذا تجلى لأستاذ الجامعة بطلان رأى شائع معتمد وأضحى على يقين من ذلك ، كان عليه أن يجارى العرف الذى يقضى بالتزام التعليم السلمى فى الجامعات ، وأن يحبس الرأى فى حنايا نفسه ، ولا يبشر به أحداً من تلامذته أو سواهم ، كما فعل الكثيرون من أمثال رينولد Reinhold فى منتصف القرن السادس عشر ، أوكان على هذا الأستاذ الذى يكشف خطأ رأى مألوف أن يغادر منصبه فى الجامعة ليتمكن من التبشير به خارجها ، كما فعل أمثال ريتكوس Rheticus ، وإلا أكره على ترك منصبه راغما ، كما حدث لجاليليو Galileo

فى القرن التالى ، وقد كان هؤلاء الثلاثة على يقين من صحة الرأى الذى بشر به كوبرنيكوس Copernicus بصدد دوران الأرض وعدم اعتبارها مركزاً للكون ، وكان الأولان فى ويتنبرج — وهى مركز الدعاية البروتستانتية — والثالث فى جامعة بيزا بإيطاليا ، وكانت خاضعة لنفوذ الكنيسة الكاثوليكية . ! وليس أدل على الروح السائد إذ ذاك من أن تفاخر الجامعة بأنها التزمت التعليم السلمى الذى لا يحيد عن حقائق الكتب المقدسة ، ولم تأذن بإدخال الفكر الجديد فى برامجها — كما فعل رئيس جامعة Douay فى حديثه عن موقف جامعته من مذهب جاليليو فى دوران الأرض ، بل إن مؤرخى الفكر يقولون مع « ولف » إن نفوذ التعاليم الكلاسيكية على الجامعات قد صرفها عن دراسة العلم ، وأن تعصب المصلحين من أعداء الكنيسة قد خنق التفكير الحر ، وكان لابد للروح العلمى الجديد من أن يلتمس طريقه خارج الجامعات وبعيداً عن المجددين من دعاة الإصلاح الدينى ، وقد نهضت بهذا العبء الجمعية الملكية ونحوها من هيئات علمية .

على أن عصر النهضة حين أقبل ، نشأت معاهد تولت التبشير بالعلم وتحررت من نفوذ رجال الدين ، فنشأت أكاديميتا فلورنسا والبندقية فى القرن الخامس عشر ، وقامت فى باريس كلية فرنسا (كوليج دى فرانس) على يد فرانسوا الأول للتبشير بالعلوم الإنسانية ، وظهرت بوادر منهج البحث العلمى خلال هذه الحقبة من الزمن ، ونشأت جمعيات علمية تلتزم هذا الأسلوب من البحث وسنعرض لها فى الفصل الذى سنتناول فيه عصر النهضة .

محاكم التفتيش :

كانت محاكم التفتيش أخطر سلاح تقلدته السلطات الكنسية لمحاربة العقل الحر وجندلة أهله ، ولهذا آثرنا أن نقف عندها قليلا :

انتشرت الزندقة فى جنوبى فرنسا الغربى — فى لنغويدوك — واستقام

أمرها على يد الألبيين من رعايا أميرتولوز ، فطلب إليه البابا أنسنت أن يستأصل الهرطقة من إمارته ، ولكنه أبى الإذعان لمطلبه ، وعندئذ نهضت الكنيسة لإبادة الحركة ، فأعلنت غفران كل ذنب ارتكبه من يجاهد لاستئصالها واضطلعت بعبء حروب دامية ، وصبت عذابها على أعدائها — ولو كانوا أطفالا أو نساء — وتعقبتهم شنقاً وحرقاً وإعداماً ، حتى تلاشت مقاومتهم وإن بقيت آثار الهرطقة فى نفوسهم . وانتهى الصراع فى مستهل القرن الثالث عشر (١٢٢٩م) بإخضاع أميرتولوز إخضاعاً تاماً ، وكان أخطر ما أفضت إليه هذه الحركة أن الكنيسة أدخلت فى قانون أوربا العام هذا المبدأ : أن الحاكم يحتفظ بعرشه متى قام بواجبه فى استئصال الهرطقة ، فإن تردد فى الاستجابة لأمر البابا باضطهاد الزنادقة أكره على الطاعة وصودرت أملاكه وبيعت لأعوان الكنيسة وعرض نفسه للاعتقال ، وبهذا أقر البابوات نظاماً تيوقراطياً تخضع فيه كل مصلحة لواجب العمل على صيانة الدين من كل أذى يصيبه .

ولم تكتف الكنيسة بذلك ، وإنما أخذت تتعقب الهرطقة فى مظانها السرية إذ ليس يكفى القضاء عليها بالعنف حين يستفحل أمرها ، ولا النص على ضرورة اشتراك السلطة التنفيذية فى إبادتها متى ظهرت واستشرى داؤها ، وإذن فلتأخذ الكنيسة حذرها ، فترصد عيونها يفتشون عن خصومها ، وتقيم المحاكم لترويع الملاحدة بأحكامها الصارمة . . . ولهذا أنشأ البابا جريجورى التاسع محكمة التفتيش أو ديوان التحقيق Inquisition عام ١٢٢٣ م ، ومكن لهذا النظام أمر بابوى أصدره أنوسنت الرابع عام ١٢٥٢ م وضبط به نظام الاضطهاد كجزء رئيسى من الكيان الاجتماعى فى كل مدينة أو دولة ، وكانت هذه أداة لكبح التفكير الحر لم يعرف التاريخ لها نظيراً .

وقد اختير الرهبان وفوضت إليهم سلطة البابا فى البحث عن الملحدين ، وكانت سلطتهم طلقة غير محدودة ، لأنهم أعضاء فى ديوان التحقيق ، وكانوا لا يخضعون لرقابة ولا يسألون عما يفعلون . وتعاونت السلطة التنفيذية على

إقرار هذا النظام ، فسنت القوانين الصارمة للتنكيل بالملحدين ، وتساوى فى هذا أهل الغفلة مع أحرار الفكر من الحكام ، وحسبنا فى هذا الموقف الصارم الذى وقفه فى القرن الثالث عشر فردريك الثانى فى هذا الصدد ، فقد شرع القوانين التى تقضى بإهدار دم الملحدين وإحراق غير المرتدين إلى الدين ، وسجن من تاب وعاد إلى اعتناق دينه ، وإعدام من عاد فارتد ملحداً ، ومصادرة أملاك الملحدين ونسف بيوتهم . . . إلى آخر ما لا يتفق مع شهرته فى مجال الحرية الفكرية .

وقد توطد هذا النظام وشاعت المحاكم حتى غطت العالم المسيحى الغربى كله بشبكة لاسبيل إلى اتقائها ، واتصل أعضاؤها فى شتى الممالك وتعاونوا على الاضطلاع بهذه المهمة ، وإذا كانت انجلترا قد أفلتت من هذا النظام فان حكومتها فى عهد هنرى الرابع والخامس قد قمعت الهرطقة باستعمال « الخازوق » تحت تمثال معين (عام ١٤٠٠ م — وإذا كان هذا النظام قد تقرر إلغاؤه عام ١٥٣٣ فإنه أعيد فى عهد مارى ثم أبطل أخيراً عام ١٦٧٦) .

وقد أصابت محكمة التفتيش فى أسبانيا أعظم نصيب من التوفيق فى توطيد الدين المسيحى ، إذ نشأ بها النظام فى نهاية القرن الخامس عشر ولبث قائماً بها حتى القرن الغابر ، وتميز من غيره بميزات خاصة لا مجال الآن لتفصيل الحديث عنها .

وكان من بين الوسائل الفعالة فى مطاردة المارقين « فرمان الإيمان » الذى جند الناس فى خدمة ديوان التحقيق ، وحتم على كل امرىء أن ينهى إلى مركز هذا الديوان كل ما يبلغه من شأن الملحدين من غير تردد أو تباطؤ ، وللمقصرين عقابهم الدنيوى والروحى معاً ، ومن أجل هذا لم ينج أحد من اشتباه جيرانه وإساءة الظن به حتى فى نطاق أسرته ، ولم يكن ثمة أبرع من هذه الحيلة الماكرة فى قهر السكان جميعا وشل تفكيرهم وردهم إلى الطاعة العمياء ، فانها رفعت التجسس إلى مرتبة الواجب الدينى الخليق بالإكبار .

أما الطريقة التى اتبعت فى محاكمة المتهمين بالزندقة فى أسبانيا فكانت تنكر

كل طريقة معقولة لتوكيد الحقيقة ، فلم يكن المتهم بريئا حتى يثبت إجرامه ، بل اعتبر كل سجين مذنبا .. ! ومن ثم وكلوا إليه عبء التدليل على براءته .. ! وكان قاضيه هو المدعى عليه ، وكل من تقدم للشهادة ضده قبلت شهادته ولو كان من أرباب السوابق ، وكانت قواعد ادعاء الشهود عليه مرنة طلقة ، وعلى عكسها كانت القواعد التى وضعت لرفض شهود الدفاع ، فمن حق اليهود والمغاربة والخدم والأقارب حتى الدرجة الرابعة أن يقدموا ضد المتهم أدلة تثبت إدانته ولكنهم ممنوعون من الشهادة فى صالحه .. ! والمبدأ الذى اعتنقته محكمة التفتيش كان يقول : لأن يدان مائة برىء زوراً وبهتاناً ويعانون العذاب ألواناً ، خير من أن يهرب من العقاب مذنب واحد .. ! ومن ساهم فى تقديم الوقود الذى يحرق به الملحد فقد استحق المغفرة .. ! على أن المحكمة مع هذا كانت فيما يظهر تشفق على نفسها من أن تتهم يوماً بالقسوة الصارمة ، إذ كانت تتقى الحكم باهراق الدم ، فلا تحمل تبعة الإعدام على « الخازوق » ، فكان القاضى الأكليركى يعلن أن السجين ملحد لا أمل فى توبته ، ثم يسلمه إلى السلطة الزمنية ويلتمس عندها التزام الرحمة والرفق فى معاقبته .. ! وكان المفهوم أن السلطة الدنيوية لا تستجيب لهذا المطلب ، بل لا تملك إلا إعدام المتهم بالهرطقة ، وإلا اتهمت بالعمل على ترويج الإلحاد .. ! وقد كان القانون يلزم جميع الأمراء والموظفين بالإسراع فى تنفيذ العقاب فيمن أسلمهم إليهم ديوان التحقيق محرومين من الكنيسة .

أشاعت هذه المحاكم روح الصرامة والقسوة فى الناس ، وكان لطريقتها فى الاضطهاد تأثير بالغ السوء فى فقه القانون الجنائى فى أوروبا كلها ، ويرى الأستاذ لى Lea مؤرخ ديوان التحقيق أن أعظم الأخطار التى نجمت عن محكمة التفتيش ربما بدت فى تقليد أكبر شطر فى أوروبا لطريقتها حتى أواخر القرن الثامن عشر فى معاملة من كان موضع اتهام . ويرى « جبون » أن كراهية الإلحاد كانت نوعاً من الجراثيم المعدية ، وأنها نشأت عن نظرية الخلاص على ما أسلفنا ، بل إنها أضرت بقيمة الحقيقة فى ذاتها ، إذ جعلت قدر الإنسان فى خطر ، فأصبح من المشروع بل من الضرورى اتخاذ كل وسيلة تؤدى إلى

تقوية المعتقد الديني ، بالغا ما بلغ زيفها وخداعها ، أما تقدير الحقيقة لذاتها فانه لم يأخذ مكانه واضحا فى عقول الناس إلا فى مطلع العصر الحديث — منذ القرن السابع عشر . .

وقد ساعدت هذه المحاكم على إفساد الأخلاق ، إذ طالما أدى حسد العلماء بعضهم لبعض إلى اتهامات لا يبررها سند من الحق ، وقد راح ضحية هذا الحسد Pietro of Albano فى مستهل القرن الرابع عشر (١٣٠٢م) متهما من أحد حساده من علماء الطبيعة بالهرطقة والسحر ، وكان قد ترجم (١٢٩٢-٩٣م) كتب ابراهام بن عذرا فى علم النجوم — وقد نشرت عام ١٥٠٦ م — ووقع ما يشبه هذا لمعاصره البادوى Jiovanning Sanguinnacci الذى اشتهر بأنه مجدد مهنة الطب ، ومع هذا فقد ولى الأدبار ولم يكن هذا ببدع على محكمة كان قضاتها من الدومنيكيين فى ايطاليا يدركون خطأ الاتهام وتداعيه ، ثم لا يمنعهم هذا من إدانة المتهم . . !!

وكان من أهم أعمال محاكم التفتيش وضع فهرست الكتب المحرمة على المؤمنين — وسنعود للحديث عنه فى الفصل الذى سنعقده على عصر النهضة[١] روعت محاكم التفتيش العالم الأوربى الذى خضع لنفوذها ، وساعدت الكنيسة على التحكم فى رقاب الناس وإثارة الفزع فى نفوسهم ، ولكنها مع هذا كله لم تستطع أن تقضى على نهوض العقل أو تعوق تقدمه ، بل ظهرت فى عباب هذا الحول والطول تباشير الانهيار ، لأن تاريخ الاضطهاد يقول إن استخدام القوة ومطاردة الناس لإقناعهم قهراً لا يجدى فتيلا ، بل إن الاضطهاد فى تاريخه الطويل قد شجع الناس على اعتناق المذهب الجديد الذى يستشهد فى سبيله أصحابه ، وهكذا أحاطت الكنيسة نفسها بقدسية يحرسها الحديد والنار ، وعلى هذا كله كانت على الدوام فى فزع وروع ، لأن خصومها من أحرار الفكر كانوا يقتحمون حصونها ونيرانها فى جرأة وجلد يثير كل دهشة ، بل أخذ يتهجم على قدسية سلطانها طائفة من المصلحين الذين ضاقوا بسوءاتها ،

(١) سنعرف فى الفصل المشار إليه أن تاريخ الفهرست الصحيح إنما يبدأ بعد اختراع المطبعة .

فانهالوا على رجالها نقداً وعلى نفوذهم هدماً ، ولكنهم للأسف الشديد شاركوها خصومتها للعقل الحر ، وكان تاريخهم فى النزاع معه يكاد لا يقل سواداً عن تاريخها ، فلتقف وقفة قصيرة لبيان هذا الهذر :

رجعية القائمين بالإصلاح الدينى :

إذا كانت الكاثوليكية قد ناصبت أحرار الفكر العداء ، وأصلتهم نارها فى غير رفق ولا هوادة ، فإن البروتستانتية كادت تشبها قسوة ومرارة ، وقد يبدو هذا مثاراً للدهشة ، لأن البروتستانت هم المنشقون على الكنيسة (الرومانية الكاثوليكية) الذين تمردوا على سلطانها وأنزلوا بها شر الحملات ، فألحوا فى إرجاع الدين إلى الكتب المقدسة ورفضوا التسليم باحتكار الكنيسة لتفسير نصوصها ، وأباحوا للعامة الاطلاع عليها ومحاولة تفهمها ، وسلبوا الكنيسة حقها فيما زعمت فى غفران الذنوب والاتجار بصكوك الغفران وثواب الآخرة وسعادتها . . . إلى آخر ما هو معروف عن حركة الإصلاح الدينى . وقد خدعت هذه الظواهر بعض الكتاب ممن ألموا بالتيارات التاريخية إلماما سطحيا ، فصوروا الإصلاح الدينى فى صورة حركة عقلية تولاها مفكرون سبقوا زمانهم بما امتازوا به من سداد التفكير ونفاذ النظر ، ولو صحت هذه النظرية لوجب أن يعتبروا من رواد الفكر الحديث الذى نعنى فى كتابنا هذا ببيان الاضطهاد الذى عانوه على يد الكنيسة ورجالها ، ولكننا نظمناهم مع رجال الكنيسة على ما بين الفريقين من خصومة ، وأهملنا ما لاقوه من اضطهاد الأخيرين ، وعنينا باشتراكهم مع الكنيسة فى اضطهاد رواد الفكر الجديد ، ولهذا الموقف ما يبرره ، وأول هذه المبررات أن حركتهم كانت دينية وليست عقلية ، وأنهم كانوا رجال دين عبروا عن روح عصرهم وروح العصر السابق لهم ، ولم يكونوا رجال فكر سبقوا زمانهم ، ومن أجل هذا لازمتهم سوءات الحركات الدينية العنيفة من تعصب ذميم لكل ما يألفون ، وضيق صدر بكل جديد .

كان دعاة الإصلاح الدينى يلوذون بالعقل ويعتصمون بشريعته فى مهاجمة رجال الأكليروس والكشف عن فضائحهم وسوءات تصرفاتهم ، فخدعت هذه الظاهرة بعض الكتاب ، وأعمتهم عن كنه القوى الخفية التى تسيرهم ، وظنوا وهما أن العقل رائدهم وأنه الهادى إلى حركتهم . وسار فى ركبهم بعض من عرض للبحث فى دعوتهم ، وتخلف هذا الظن ولبث عند بعض المتأخرين من الكتاب ، فمن ذلك أن لافيس ورامبو فى كتابهما « التاريخ العام » يفسران الإصلاح الدينى بأنه نشأ من قراءة الإنجيل ، وقد أدت إليه « تأملات فردية أورثها قلوب البسطاء عقل جرىء » ولعل الأصح أن نقول مع «لوبون» وبيورى ومن إليهما : إن حركة الإصلاح نشأت عن بواعث عقلية ، ولكن الاستدلال المنطقى ليس هو الذى أدى إلى نضجها ؛ وإنما قامت على عواطف وتدينات ، وجرت على منطق دينى مشبع بالمشاعر والعواطف ، ولا تربطه بمنطق العقل صلات ، بل إن عناصر التأمل والتفكير فيه ضئيلة ، ولم يكن هذا الإصلاح فى بدايته دعوة إلى حرية التفكير ، بل كان مجرد انتقاد ينصب على تصرفات الأكليروس البغيض ، والتبشير بالتزام العمل بما تقضى به نصوص الإنجيل وربط العقل بقيودها ، والملحوظ أن البلاد التى سادها الاصلاح الدينى ، أخذ فيها الملوك مكان البابوات حقوقا وسلطانا ، وأكرهوا رعاياهم على أن يكونوا على دينهم ، وكان أصدق مثل لهذا الحكومة التى أنشأها كلفن فى جنيف وجمع فيها بين السلطتين الروحية والزمنية ، وسلط قواه على الشعب حتى يدين بما يدين به المصلح . . ! إن فهم هذه الحركة فى ضوء المنطق الدينى يتكفل بتفسير الغامض من ظواهرها ، والكشف عن سر الاضطهادات التى أنزلها زعماؤها برواد الفكر الحديث من رجال العلم والفلسفة ، إذ ليس بغريب على من قاده خلق التدين والحماسة الشديدة وكان شأن العقل فى تصرفاته ضئيلا ، أن يكون على خلق كلفن الذى كان لايتردد قط فى إعدام من خالفه فى مذهبه : ولايستحى أن يقول إن الله يريد أن يقصى الإنسان الرحمة الإنسانية بعيدا عنه عندما يعتنق الجهاد فى سبيله . . .

كانت حركة الإصلاح صدى لروح العصر ولم يكن لأهلها سبق عقلى

على أهل زمانهم ، والذى ساعد عليها هو انحدار قوة البابا فى أوروبا وسقوط الدولة الرومانية المقدسة ونمو الممالك القوية التى حددت فيها المصالح الدنيوية السياسية الا كليركية والتى ترقت فيها الدولة الحديثة ؛ وانتصر الإصلاح الدينى فى ألمانيا الشمالية لأن الأمراء انتصروا له ليفيدوا من مصادرة أملاك الكنيسة ونحوها . وهذا بالإضافة إلى أن سببه الرئيسى يرجع إلى فساد الكنيسة منذ زمان ، واهتمام البابوات بمصلحتهم الدنيوية ، وقد كان كل فرد فى أوروبا يشعر منذ القرن الرابع عشر بهذا النقص ويعرف وجه الحاجة إلى إصلاح الكنيسة فيما يقول بيورى — فظهور لوثر وأمثاله كان تعبيراً عن روح عصرهم وما سبقه ، ولم تكن ثورة لوثر ثورة عقل متمرد على عقيدة ، بل كانت ثورة شعور واسع النطاق يناصب الا كليروس العداء ، ومن أجل هذا كان من الخطأ أن يقال إنه مكن لحق الفرد فى إصدار الأحكام المستقلة وأقر الحرية الدينية ، « فليس من شيء كان أبعد عن عقول قادة الإصلاح الدينى من التسامح مع النظريات المخالفة لآرائهم ، وإذا كانوا قد قوضوا سلطة البابا فقد أحلوا مكانها سلطه الإنجيل ، ولكنه كان الإنجيل كما فهمه لوثر أو كما عرفه كلفن ، ولم تكن الحروب الدينية التى ثارت ، ترمى إلى إقرار الحرية ، بل كانت نزاعا بين معتقدات دينية . فيما يقول مؤرخو هذه الحركة .

ولعل من الإنصاف أن نقول إن السلطات الكاثوليكية لم تناقض نفسها بهذا الاضطهاد ، لأن من حقها حماية الدين والذود من تعاليمه ضد كل عدوان — وإن أخطأت سبيل هذا الدفاع — أما السلطات البروتستانتية فإن اضطهادها للعلم يتنافى صراحة مع المبادئ التى وضعها أهلوها أساسا لحركتهم فى الانشقاق عن الكنيسة الكاثوليكية ، كإقرار المبدأ القائل بحق الحكم الفردى لكل إنسان ، ويضاف إلى هذا أمران ينبغى ألا نهملهما عند تقدير التبعة التى يحملها كل من الطائفتين : أولهما أن البرتستانتيين لم يؤتوا من السلطان ما كان للكاثوليك ، وعندما تهيأت لهم هذه السلطة — على يد كلفن فى جنيف

مثلا — لم يكونوا أقل وحشية من الكاثوليك ، وثانى الأمرين إن الكاثوليك إذا كانوا قد حرموا الحقائق التى اهتدى إليها علم الفلك الحديث فى أوربا الكاثوليكية إبان القرن السابع عشر والثامن عشر ، فإن السلطات البروتستانتية قد أنكرت الحقائق التى كشفها علم طبقات الأرض وعلم الحياة والانترولوجيا ، وحظرت الجامعات الأمريكية تدريسها إبان القرن الغابر . . ! فيما يقول وايت — ولم يكن البروتستانت أقل تشبثاً بالمعنى الحرفى للنصوص المقدسة من الكاثوليك ، وقد بلغ أمر هذا التعصب بكبيرهم لوثر أن اعتبر هـــذه النصوص فى معناها الحرفى الظاهر المصدر الوحيد للعلوم الطبيعية كلها . . ! مع أن العلم الطبيعى كان شعار الفلسفة والتعليم الحديث عامة فى عصر لوثر ، ومع هذا رفض التأويلات المجازية والصوفية وقرر أن العلوم الطبيعية أداة لخدمة التقوى والصلاح . . ! وإلى مثل هذا الاتجاه ذهب كلفن . . . !

وإذا كان لوثر قد احتج على كبح الآراء وإحراق الملحدين فقد كان هذا يوم كان يخشى أن يكون مع جماعته ضحية هذا الاضطهاد الكنسى الدامى ، فلما أمن شر خصومه وقوى مركزه وتوطد نفوذه أعلن رأيه الصحيح ، فأوجب على الدولة أن تفرض ما يبدو لها رأيا سليما ، وأن تستأصل الهرطقة لأنها رجس من عمل الشيطان ، وأوجب على الناس أن يطيعوا أميرهم فى أمور دينهم ودنياهم على السواء ، وصرح بأن غاية الدولة حماية الدين من المارقين ، وجاهر بإعدام طائفة الأنابابتست بالسيف بعد انسلاخها عنه ، وبهذا أدت عقيدة الخلاص عند الكاثوليك والبروتستانت معاً إلى نتيجة واحدة . . . !

أما كلفن فقد كان أشد تعصباً لآرائه وضيقاً بمخالفيه ، وقد اتفق مع لوثر على إقرار السلطة المطلقة للحاكم ، وانتصر لسيادة الدولة عن طريق الكنيسة ، فأيد بذلك حكومة التيوقراسى التى يتولاها رجال الدين الذين يعملون بما يوحى إليهم ، بل أنشأ حكومة من هذا النوع فى جنيف ، فجمع بذلك بين السلطتين الروحية والزمنية ، وتمكن بهذا من أن يسحق حرية النظر العقلى وينكل بخصومه سجنا ونفيا وحرقا وإعداما ، وموقفه من مصرع « سرفيتوس » أعدل شاهد على ما نقول ، فقد كتب سرفيتوس الأسبانى يهاجم عقيدة التثليث (الآب والابن

وروح القدس) ، وسجن فى ليون (لأسباب كان منها دسائس كلفن) ولكنه فر من سجنه ولاذ مسرعا بجنيف حيث يقيم كلفن حكومته ، ولما حوكم بها أدين وصدر قرار بإعدامه عام ١٥٥٣ م ، وقد أثنى « ملانكتون » — الذى صاغ مبادىء الاضطهاد — على هذا العمل كمثل طيب للأجيال التالية . . ولكن هذه الأجيال قد أحست بالمهانة لارتكاب هذا الجرم ، حتى شعر أتباع كلفن فى صيف عام ١٩٠٣ أنهم مضطرون لإقامة ضريح تذكارى للتكفير عن خطأ كان خطيئة العصر كله — فيما يقول بيورى .

وفى الحق أن عقائد البروتستانت لا تمثل حركة التنوير Enlightnment ، بل إن الإصلاح الدينى قد عادى الثقافة كما تصدى لمقاومة حرية النظر ، وكان العلم متى حاد عن ظاهر الإنجيل تصدى لمقاومته لوثر (البروتستانتى) والبابا (الكاثوليكى) على السواء ، وقد أخفق تطور العلم إخفاقا معيبا فى ألمانيا التى انتصر فيها ركب البروتستانتية . . !

بل لقد عاق الإصلاح الدينى حرية النظر العقلى من طريق أخرى غير مباشرة ، ذلك أن الكنيسة التى كان يهاجمها المصلحون كان عليها أن تناضل من أجل وجودها ، وتكافح لتثبيت سلطانها ، وليس إنشاء محكمة التفتيش فى روما والرقابة على المطبوعات وإعداد ثبت للكتب المحرمة على المؤمنين ، إلا حركة أريد بها مقاومة الإصلاح الدينى ، ورجع أدت إليه حملات خصومها ، وهذا كله بالإضافة إلى ما يقوله تاريخ التفكير الحر من أن البروتستانتية بمختلف شعبها — من لوثرية وكلفنية وإنجيلية — قد أقرت عقوبة الإعدام قانوناً يخضع له كل من خالف عقيدتها ، وقد قاوم زعيمها الأول — لوثر — المذهب الأرسطاطاليسى وسمى صاحبه بالخنزير الدنس الكذاب ، وقال عن كوبرنيكوس وهو أول رائد عرفه تاريخ علم الفلك الحديث ، إنه منجم مأفون مصاب بمس ، ولم يكن الزعيم الثانى — كلفن — بأرحب صدراً من صاحبه ، وإن كان أقصر باعا فى مجال السباب ، فقد قاوم حرية التفكير ونكل بمن وقع فى يده من أهلها شر تنكيل : ومن ذلك أنه أعلن تكفير كل من أنكر القول بأن الأرض مركز الكون .

على أن من الإنصاف أن نقول إن الإصلاح الدينى قد أيد قضية الحرية عن غير قصد منه ، إذ كان هذا التأييد على كره منه ومن زعمائه ، وكانت نتيجته فى هذا الصدد بطيئة وغير مباشرة ، ولم يكن فى الإمكان أن تنتصر قضية الحرية على السلطة الدينية ، ولكن هذه قد ضعفت بتعدد الآلهة وكثرة السلطات اللاهوتية وزعزعة التقاليد الدينية بحركة النقد التى أثارها الإصلاح الدينى ، وهذا بالإضافة إلى أن السلطة الاكليركية العليا كانت فى الدولة البروتستانتية فى يد الحاكم ولهذا الحاكم مصالحه الدنيوية وظروفه السياسية التى تضطره إلى العدول عن تعصبه الدينى .

على أن الثورة البروتستانتية فى وجه الكنيسة كانت تستند إلى إقرار حق الحكم الفردى ، وهو مبدأ الحرية الدينية ، ولكن المصلحين قد أكدوا هذا الحق لأنفسهم وحرموه على غيرهم بمجرد أن صاغوا دينهم ووطدوا مركزهم ، وكان فى هذا التناقض الصريح فى موقفهم ما يوهن نفوذهم ويضعف سلطانهم ، إذ لماذا يخلع الناس نير السلطة الكنسية فى روما ليخضعوا لسلطة لوثر على حداثته . . ! إن التمرد على روما ينبغى أن يقوم على العقل وحده ، وما دام العقل أساس التمرد فلن تقف الثورة عند لوثر أو كلفن أو غيرهما من الثائرين ، إلا إذا افترض الناس أن أحدهم يصدر عن إلهام ! وإذا رفض الناس الخرافات كما رفضها هؤلاء المصلحون ، فلا شىء قط — مع استثناء سلطتهم — يمنع من رفض الخرافات الأخرى التى تمسك بها دعاة الاصلاح ، على أن دعوتهم فى رفع احتكار الكنيسة لتفسير الكتاب المقدس ، وإباحة حق تفهمه للناس جميعاً ، لفتت أنظار الناس إليه . وإذا كانت دراسة الإنجيل لم تصادف قبولا فى الجامعات الألمانية حتى القرن السابع عشر ، بل لم يجد الإنجيل بين الجمهور قراء كثيرين قبل القرن الغابر ، فإن اتجاه الناس إلى دراسته وإن جاء متأخرا قد أفضى إلى حركة من النقد كان لها أثرها فى إقرار الحرية الدينية ، ومن ثم فى توكيد النظر العقلى ، وقد عاش النقد الإنجيلى فى جو بروتستانتى ، ومن هذه الناحية كان المذهب البروتستانتى أداة لاقرار كفاية العقل للتفكير وتوكيد النزعة العقلية ، وهذا هو الذى خدم قضية الحرية

على غير قصد من دعاة الإصلاح الديني — فيما يقول الأستاذ بيوري — وقد مكّن لهذه القضية وخدمها عن طريق مباشر طائفة من المصلحين اتهمها البروتستانت — والكاثوليك — بالإلحاد ، وأغفل الناس أمرها حتى أصبح الذهن لا يلتفت إليها إذا ذكر الإصلاح الديني ، وهذه الطائفة هي « الصوصنية » ، فلنقف عندها قليلا :

أحرار الفكر من المصلحين :

الصوصنية طائفة من المصلحين الطليان الذين انشقوا على الكنيسة فى روما إبان القرن السادس عشر ، وأنكروا عقيدة التثليث ، وأقاموا مبدأ التوحيد فى المسيحية ورفضوا ألوهية المسيح ، ونسبوا الربوبية إلى الآب (وهو الأقنوم الأول فى الثالوث الأقدس) فقاومت الكنيسة حركتهم وأفلحت فى قمعها ، وفر الكثيرون منهم متهمين بالهرطقة إلى سويسرا ، ولكن المصلح المنشق على الكنيسة « كالفن » قد طاردهم بتعصبه الذميم فلاذوا بترنسلفانيا وبولندة فراراً ، وهناك نشروا عقيدتهم التى أقاموها على مبدأ التوحيد ، وقد صاغ هذا المبدأ Fausto Suzziono الذى أطلق اسم Socinus علماً عليه . وقد كانت أصول الإيمان عند طائفته (١٥٧٤) تقضى بانكار الاضطهاد ورفض القوة أداة لخدمة الدين وتوكيد عقائده ، وكانت هذه نتيجة طبيعية أدت إليها النظريات الصوصنية إذ كان أتباعها — على عكس لوثر وكلفن — يبشرون بحرية التفكير الصحيحة ، ويلحون فى منح كل إنسان حق الحكم الفردى فى تأويل الكتاب المقدس ، فكانوا بهذا للنزعة العقلية التى كانت تعوز عقائد التثليث وساهموا بهذا فى الدعوة لحرية النظر العقلى وتوفير أسباب الطمأنينة لرواد الفكر الحديث .

وتحت تأثير الروح الصوصنى ، أعلن Castellion of Savoy مبدأ التسامح فى رسالة شهر فيها بتعصب كلفن وحقده ، وندد بموقفه من إحراق سرفيتوس وسخر من ذلك الاهتمام الذى توليه الكنائس للمسائل الغامضة ، كعقيدة

التثليث والقضاء والقدر Predestination وأعلن أن الدين إذا صاحبه الاضطهاد كان لعنة ومجلبة للمحن .

وقد طارد الصوصنية خصومهم فى بولنده فانطلقوا إلى ألمانيا وهولندة وكانوا وحدهم الممثلين لمبدأ التسامح ، فاعتنقه منهم فى ألمانيا الأنابابتست ، وهم طائفة ثورية دينية تابعت لوثر فى أول أمرها ثم لم يرقها منه اعتداله ولينه فانسلخت عنه ، وقاتلتهم الكنيسة الكاثوليكية قتالا دامياً انتهى بسحقهم ، كما سلم بهذا المبدأ فى هولندة طائفة أرمينية فى كنيستها التى أوى إليها الإصلاح .

على أن مذهب الصوصنية وإن كان قد ساهم فى تحرير النظر العقلى ، إلا أنه شجع على قيام الاتحاد الوثيق بين الدولة والكنيسة ، بيد أن الاتجاه الذى يمكن لحرية التفكير ويرفع كل عرقلة فى طريق أهلها ، هو الفصل بين السلطتين : الزمنية والدينية ، وهذا هو الرأى الذى ذهب إليه جماعة الأنابابتست ، وربما عدنا إلى بيان أثره فى مناسبات أخرى .

كلمة أخيرة :

والملحوظ فى نزاع العقل والإيمان أن قوات السلطة أكبر من قوى العقل عدة وعددا ، وأن القائلين بكماية العقل كانوا قلة طوال هذا النزاع ، ولم يكن للعقل من سلاح يحميه من هجمات خصومه إلا منطقه ، أما السلطة فقد تعددت القوى المقاتلة من أجلها ، وسخرت إلى جانبها أسباب الاضطهاد والإذلال بمختلف صوره ، ولكن سلاح العقل مع هذا كان أمضى وأصلب قناة ، حتى لقد كانت السلطة كثيراً ما تلجأ إلى استعارته لمحاربة خصومها ، وكانت هذه هى نقطة الضعف فى كفاحها ، ومنها تداعى بنيانها الشامخ ، لأن أنصارها حين لجأوا إلى العقل واستمدوا منه العون فى محاجة خصومهم ، انتهى بهم منطق العقل إلى آفاق أدت إلى إثارة الشقاق بين هؤلاء الأنصار أنفسهم ، فكأن سلاح أعدائهم حين انتقل إلى معسكرهم ، قد انقض على قواهم وأدار الدائرة عليهم — على نحو ما سنعرف عند الكلام على العصر الحديث .

* * *

حسبنا هذا من مظاهر السلطة التي تهيأت لرجال الكنيسة ، وقد لاحظنا أن مردها إلى طبيعة العقل البشرى وخصائص المعتقد الدينى وتسلط الجهل على رءوس الناس ، وامتداد نفوذ الأكليروس إلى الشئون الدنيوية ، والهيمنة على السلطات التنفيذية ، وتضافر خصومها من المصلحين معها على مقاومة النظر العقلى الحر ، وقد مكنها هذا السلطان الواسع النطاق من فرض محاكم التفتيش للتحكم فى رقاب الناس واستعباد الجامعات والتحكم فى شئون العلم الدينى والدنيوى معاً ، وقد نشرت هذه السلطات لخصومها صحيفة اتهام بالكفر تسجل فيها أسماءهم وعناوين كتبهم حتى لا يمسها المؤمنون . . ! والعالم الأوربى يمضى فى هذا التيار الجارف وقد أغمض عينيه وأسلس قياده ، حتى أذن فيه مؤذن العقل فى فجر العصر الحديث فاستجاب له ! . .

مصادر الفصل (عدا ما ذكر منها فى صلب الكلام)

1. J. W. Draper, History of the Conflict between Religion & Science (١٩١٠ الطبعة الخامسة والعشرون . وقد ترجم إلى الفرنسية بعنوان : Les Confllts de la Science et de la Relgion الطبعه التاسعة عام ١٨٩٣ وهى لا تحمل اسم المترجم

2. Prof J. B. Bury, A History of Freedom of Thought.

3. A. Dickson White, A History of the Warfare of Science with Theology in Christendom, 2 vols.

وهو كتاب قيم تجاوزت صفحاته الثمانمائة ، وقد ترجم الأستاذ اسماعيل مظهر الأبواب الثلاثة الأولى من الجزء الأول من هذا الكتاب (وهى ١٧٠ صفحة) ونشرها تحت عنوان : « بين الدين والعلم ، تاريخ الصراع بينهما فى القرون الوسطى (كذا !!) إزاء علوم الفلك والجغرافيا والنشوء » وخدم المترجم الفاضل ترجمته الطيبة بشروحه ورجوعه إلى أصل النصوص المقدسة .

4. Ch. Singer Religion & Science (Considered in their historical relations (928).

(٥) فرح أنطون : ابن رشد وفلسفته . (٦) محمد عبده : الاسلام والنصرانية .

(٧) توفيق الطويل : قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام .

ثم مصادر عامة لمن شاء التوسع فى فصول الكتاب كلها :

Ch. Watts. Freethought, Its Rise, Progress and Triumph.

S. Maréchal, Dictionnaire des Athées 1800.

J. M. Wheeler, Biographical Dictionary of Freethinkers.

W. E. H. Lecky, Hist. of the Rise, Influence of the Spirit of Rationalism in Europe, 2 vols.

Vam Mildert, Historical view of the Rise and Progress of Infidelity 2 vols.

Science & Religion.

ويضم اثنتى عشرة كلمة ألقيت فى محطة لندن للاذاعة اللاسلكية من سبتمبر إلى ديسمبر ١٩٣٠ فسر فيها العلاقة بين الدين والعلم علماء وفلاسفة ورجال دين .

Mr. Riddle, Natural Hist. of Infidelity and Superstition in contrast with Christian Faith.

Bonner, Penalties upon Opinion.

الفصل السادس

العقل والإيمان

فى فلسفة اليونان والرومان

تمهيد — رأى سانت هيلير فى أسباب الأصالة فى تراثهم — رأى لفنجستون فى أسباب حرية الفكر عندهم — دين اليونان وعلاقته بالنظر العقلى — رواد الفكر الجديد فى اليونان — مصرع سقراط وأسبابه — موقف الأبيقورية والرواقية — موقف الرومان من حرية النظر العقلى — كلمة أخيرة .

تمهيد :

رزح العقل البشرى فى حضارة الشرق القديم تحت ضغط العقائد الدينية ، واستعباد الأغراض العملية ، ثم تحرر من جميع هذه القيود على يد اليونان وعاش فى ظلهم طلقا فتيا ، يجهد لخدمة « الحقيقة » منساقا ببواعث اللذة العقلية وحدها ، فكان اليونان بهذا أول من « أبدع » حرية التفكير والبحث فى تاريخ الإنسانية كلها ، وقد تكفل هذا وحده — بصرف النظر عن عبقرية التراث العقلى الذى خلفوه — بأن يضعهم فى طليعة الشعوب التى يدين لها التقدم الإنسانى بأوفر نصيب .

رأى سانت هيلير فى أصالة تراثهم :

ولعل مرد الأصالة فى تراثهم إلى تحرر العقل من ضغط العقيدة الدينية ونفوذ رجالها ، فإن فلسفتهم « بتمامها كانت موضوعة فى وضع استثنائى أفادها جداً ، وهو أنها لم يكن أمامها أبدا ديانة مبنية على كتب مقدسة ، وقد كان الأمر على ضد ذلك فى مصر ويهوده وفارس والهند حيث لم تكن الحال مقصورة على أن الدين قد سبق الفلسفة فى تلك البلاد كما هو الحال عادة فى كل زمان ، بل إنها اعتمدت فوق ذلك على أسس معتبرة أنها إلهية .....

أما فى بلاد الإغريق فلم يكن ما يشبه ذلك ، لأن الاغريق لم يكن لهم كتب إلهية ولا موحى بها . . . . وقد كان أرفى ولينوس وسائر المرتلين الأقدمين الذين كانوا ينشدون آيات الأسرار الأولى ،كلهم ما كان يتكلم إلا باسمه هو ، دون أن يسند مايقوله إلى الإله ، ولما كان الإشراك بالله متغير الصور ، منشورا فى البلاد لا ينتظمها على حال واحد ، لم يستطع الوصول إلى تأليف جسم من المذاهب قد يصير ديانة ذات قوام خاص ، فلم يكن للكهنة نقابة قوية ذات سلطان ، وكان الناس يحترمونهم ولكن لا يطيعونهم ، ولم تكن الروابط بين الهيئتين إلا مفككة القوى ، لأنها إنما تبحث عن معتقدات عامة ، يغير من عرفها فى كل جهة أساطير محلية لا نهاية لها ، وعن بعض احتفالات عامة لم تكن إلزامية ، وهواتف يستشيرها الناس وقتما يريدون ، وألعاب عمومية ، والكتاب الوحيد الذى أخذ بمجامع قلوب الإغريق إنما هو قصيدة حماسية ، إن قصيدة حماسية من شعر الحماسة تسحر العقول ولكنها لاتهديها ، تأخذ بالقلوب ولكنها لاتوجب الإيمان ، إنها تنمى الإحساسات الشريفة بما تقدم من التذكارات الوطنية ولكنها لا تسوى سبل السلوك ، فما هى قصيدة حماسية بالتوراة ، ولا هى بالزاندافستا ، ولا بمنتراس البراهمة ، ولا بالقربان المثلث عند البوذيين ، فالواقع أن الفلسفة كانت هى وحدها دين الهلين » .

« وما تنسب عظمة الفلسفة الإغريقية التى لا تزال تدهشنا ، ونتعلم منها بعد خمسة وعشرين قرنا ، إلا إلى استقلالها المطلق ، ولو أنها كانت تحت وصاية ديانة حسنة النظام ، أفكانت تظهر قواعدها بهذه السهولة التى ظهرت بها ؟ أوكانت تحيا تلك الحياة الطيبة القوية ! أوكانت تلد للعالم تلك الملح من التآليف ، وتؤتى ذلك الثمر اللذيذ . . . ؟ . . . أما كانت تذبل هذه الخواص العجيبة لو أن العصارة التى تغذيها جرت فى قنوات أخرى من قبل ، وخصوصا فى قنوات الديانة ! ولم يكن تاريخهم الخرافى إلا لعبا تلعب بها الملكات ، فكانت الخواص العليا للنفس ، فى سعة من أن تتخذ لها نحواً جدياً آخر ، وتبحث عن غذاء لها أغزر مادة وأدخل فى باب الحق . بعيد

عليّ أن أنكر نعم الديانات على الناس ، وأرى أن من الخير أن تكون قد سبقت الفلسفة دائما وعند جميع الشعوب ، ولكنى لا أستطيع أن أحجم عن القول بأنه إذا كانت ديانة الهلين أكثر جدية مما كانت عليه ، لأوشكت فلسفتهم وعلومهم أن تكون أقل فى الجد مما كانت عليه بكثير ، وتلك خسارة لا تعوض على الإغريق ، وعلينا أيضا لأننا نحن أبناؤهم ومظهر استمرار حياتهم [١] » .

رأى لفنجستون فى أسباب حرية الفكر عندهم :

هذه هى نظرة سانت هيلير إلى أسباب العبقرية اليونانية ، ونرجىء مناقشتنا لها إلى حديثنا عن موقف الإيمان من العقل فى القرن السابع عشر ، حين نبين عن « إمكان » الجمع بين النظر العقلى والإيمان الدينى من غير تعارض كما أشرنا فى مقدمة الكتاب وحسبنا الآن أن نقول إن هذا الرأى الذى ذهب إليه هذا المفكر قد أيده غيره من المفكرين ، بل توسعوا فيه كثيراً ، فمن ذلك ما تراه عند « لفنجستون » فى حديثه عن الحرية فى الفصل الثانى من كتابه[٢] ، إذ يرد عبقرية الإغريق إلى الحرية الدينية والحرية السياسية معا ، ويسوق المثال بأفلاطون الذى يناقش فى جمهوريته أعمق المشاكل السياسية فى حرية وحذق وعمق لم يبزه فيها عصر تلاه ، ومثل هذا يقال فى غيره من المفكرين ، ومرد هذه الظاهرة عند اليونان إلى ما يسميه جوته Goethe بصدق النظرة التى ترجع إلى التحرر المطلق من القيود اللاهوتية والأخلاقية والسياسية ، وهو تحرر ان بدا طبيعيا فى عصرنا الراهن ، فإن قيامه عند شعب عريق فى القدم يعتبر مثارا لكل دهشة .

ويمضى لفنجستون فى شرح رأيه فيقول إن من الشعوب من تستعبده

---

(١) Barthélémy Saint. Hilaire برتلمى سانت هيلير فى مقدمته لترجمة كتاب الكون والفساد لأرسطو ، والنص من ترجمة أحمد لطفى السيد ص ٨٨ — ٩٠ .

(٢) Greek Genious, its meaning to us.

الاعتبارات اللاهوتية والأوضاع الدينية ، إن وجود أفرادها مرهون بخدمة الله ، وكل عمل لا يبدو على اتساق مع هذه الغاية يستبعد من مجال حياتهم ، فالمسلم ممنوع من مزاولة النحت والرسم (!!) لأن جسم الإنسان من صنع الله وحده ، ومن شان الرسم والنحت أن يؤديا إلى الوثنية ، واليهودى مطالب بتعطيل أعماله يوم السبت من كل أسبوع لأنه يوم مقدس ، والمسيحى فى العصور الوسطى ممنوع من الاعتقاد فى صحة « الأنتيبود » وهو الاعتقاد بأن جانب الأرض السفلى معمور بالسكان ، ومن هنا جاء إذعانه للتسليم بالكرة الأرضية كما وردت فى الكتاب المقدس .

ومن الشعوب من تستعبده الاعتبارات السياسية ، فالآداب والفنون مثار الظنون لأنها تضر بصالح الدولة ، والملذات البريئة محرمة على أفراد هذه الشعوب ، وحياة الأسر قد تصطبغ بألوان سياسية ، فللرجل السيطرة وللمرأة إنجاب الأولاد ، وكلاهما أداة لخدمة الدولة ، إنها عبودية الفرد لصالح المجموع وقد بدت حتى فى جمهورية أفلاطون ، وتاريخ اسبرطة وروما وغيرهما من الدول حافل بمثل هذه الشواهد ، من واجب الفرد فى هذه الشعوب أن يقف حياته لخدمة وطنه ، أو لارضاء ربه ، ومن هنا كان التضييق على حريته ، والحد من نشاطه وحركته ، بقيود صيغت أوامر ونواهى تملى عليه ليذعن لطاعتها راضيا أو كارها .

هذه عبودية لا يكاد يخلو من الإذعان لها شعب من الشعوب ، مع استثناء الإغريق ..! فنى بلاد اليونان وحدها احتفظ الفرد بشخصيته واستقل بفرديته ولم يتقدم قربانا لخدمة الله أو لمصلحة الوطن ، ومن هنا كانت عبقريته فى صدق نظراته ودقة تأملاته . وأما فى غير اليونان فقد عاش الفرد عبداً للاعتبارات الدينية ، وأسيراً للأوضاع السياسية ، ومن هنا كان الحد من حرية النظر العقلى عنده ؛ فالبحث محرم فى موضوعات محددة ، وفى غيرها قد يكون الناس على اعتناق آراء بعينها فإن تجاوزوها ضلوا سبيلا وساؤا مصيرا ، أما عند اليونان فليس ثمة موضوع يستبعد من مجال البحث ، ولا يكره الناس على أن

يدينوا برأى تمليه سلطة ، وسيان بعد هذا أن يصيب فى تفكيره أو يخطىء ، وأن يأتى عملا صالحا أو يرتكب ذنباً آثماً ، ومن هنا جاءت نظرته إلى الأشياء كما هى فى حقيقتها ، لا كما تصورها له سلطة دينية أو سياسية .

على أن هذه الحرية المطلقة لم تمنع من اضطهاد سقراط وأنكساجوراس ودياجوراس وغيرهم ، ولكن مرد هذا الاضطهاد إلى أسباب شخصية أو سياسية ، ثم إن مقارنة هــذه الاضطهادات الفردية القليلة بقصة الاضطهادات الدينية فى عصر النهضة فى إيطاليا ، تملأ الإنسان إعجاباً بهؤلاء اليونان ، ففى نحو خمسين عاماً (بين سنتى ١٥٦٦ و ١٦١٩) أحرقوا فى روما Carneseccho و Paleao وبرونو J. Bruno أحياء . . ! وأحرق Vanini فى طولوز ، وأعدم الكلفنيون جنتايل Valentino Gentile فى بيرن ، وعذب كامبانيلا فى قسوة بالغة ، وزج إلى السجن سبعة وعشرين عاماً فى نابلى ، وأكره جاليليو على أن يذل نفسه أمام رهبان جمعوا بين الجهل والغرور ، وشعر سارپى Sarpi بخنجر المغتال . . . وغير هؤلاء كثيرون ، بل أدانت محكمة التفتيش فى أسبانيا وحدها ٢٣٤,٥٢٦ نسمة ، واتهمتهم بالهرطقة وهى أفظع جرم كان يدان به إنسان ، فأين هذا مما سجله تاريخ الفكر الحر عند اليونان . . ؟ إن المفكر اليونانى لم يكن أسوأ حالا من هوبز فى القرن السابع عشر ، أو من فلاسفة الألمان الذين استبعدوا من مناصبهم منذ أكثر من قرن لاتهامهم بالكفر . . !

وينتهى لفنجستون بعد هذا العرض إلى التصريح بأن حرية الفكر عند اليونان — وقد جاءت قبل أوانها — مردها إلى أسباب أكبرها خطراً :

(١) أن ديانة الإغريق تذعن لنقد النقاد ، ويشهد بهذا موقف هؤلاء من الآلهة ، وقد روى اكسانوفان عن هوميروس وهزيود أنهما كانا يعزوان رذائل الإنسان وسوءاته إلى الآلهة ، وقد صورا هؤلاء فى صورة الإنسان وأضافا إليهم نقصه ، بل ألهوا كل ما يثير الروع من ضروب الأهواء والدوافع والفضائل والمطالب والأوهام . . . أله اليونانى كل مجالات نشاطه التى تكشفت

عن إعجاز ، فالموقد الذى أدفأه وأنضج طعامه ، والشارع الذى أقيم فيه بيته ، والحصان الذى سخره لخدمته ، والزوجة التى بنى بها ، والطفل الذى أنجبه ، والطاعون الذى اغتاله أو برىء من شره . . . كل هذا قد أوحى إليه بإله . . !! ومثل هذا يقال فى القوى المجردة من خوف وثورة وسكر ورياضة وديمقراطية وحسد وجنون واضطهاد ونوم وجوع ونحوه . تجسدت هذه القوى وكانت فى بعض الحالات موضع عبادة ، فلم يكن عند اليونان إله واحد يتحكم فى الناس ويستبد بهم ، بل كان آلهتهم من صنع أيديهم ، من وحى خيالهم . . ومن الطبيعى أن يكون الناس أحرارا مع مخلوقاتهم . . ! إنهم هم الذين خلقوا الآلهة ، وليست الآلهة هى التى خلقتهم ، ومن هنا جاء استخفاف المفكرين بهذه الآلهة . . لقد كان الإله يشبه الحاكم الدستورى الذى يؤكد رعاياه على الدوام أنهم هم الذين رفعوه إلى عرشه . . ! إن ملكهم مقيد بالعمل على تحقيق رغباتهم ، ومن بين هذه الرغبات رغبتهم فى أن يكونوا أحراراً . . !

(٢) وهذا بالإضافة إلى أن اليونان لم يكن لهم كتاب مقدس أوحت به سلطة إلهية ، إن الإنجيل جم الفوائد لمن يحسن استخدامه ، ولكن نصوصه البسيطة سرعان ما انتهت بالتأويل المتزمت عند الجهال إلى إعاقة الذهن عن إدراك الحقيقة ، فمن آيات المزامير بصدد الشمس وجريانها ، نبت اضطهاد جاليليو الذى جهر بدوران الأرض حول الشمس . . . ومثل هذا يقال فى غيره من شواهد ، أما اليونان فقد كانوا بمنجاة من مثل هذه الأخطار والمزالق ، وإذا كان هوميروس قد اعتبر إنجيل اليونان ، فإن هذا التعبير مجازى مضلل .

لقد كان لبنى إسرائيل وصايا يتقيدون بها ويلزمون باتباعها ، أما اليونانى فلم يعهد هذه الوصايا المقدسة التى يوحى بها إله . فكان عليه أن يلجأ إلى منطق عقله ودقة حسه فى التمييز بين الصواب والخطأ والخير والشر والحق والباطل والجمال والقبح والكمال والنقص ، وكان عقله المصنع الذى صيغت فيه عقائده ، فكان ينكر من تقاليده الدينية كل ما لا يتمشى مع منطق عقله ،

على عكس ما كان بنو إسرائيل ، لقد كان اليونانى متدينا بالمعنى الذى ينسحب على رواد الكنيسة فى أيامنا الحاضرة ، فلم يكن يفهم التدين على نفس النحو الذى بدا عند القديس أوغسطين أو بسكال أو نيومان أو تولستوى ومن إليهم ، فلم يكن الله عنده المعبود الذى يتجه إليه كل عمل يقوم به أحد من البشر ، ولم يكن فى نظره العلة البعيدة لكل شىء فى الوجود ، ومن هنا قيل إن مرد الفكر الحر فى أثينا إلى عدم وجود إنجيل أوحى به الله الذى لامعبود سواه ، وإلى الاعتماد على العقل والاعتقاد بكفايته .

ويمضى لفنجستون فيقول إن اليونان إذا كانوا قد تحرروا من ضغط الدين وقيود تقاليده ، فقد كان هذا شأنهم فى أمور السياسة كذلك ، ومع أن الحكومة قد أثقلت عاتق مواطنيها بالواجبات ، فإن الفرد لم تتلاش شخصيته أبدا ، بل احتفظ بفرديته وصانها من التضحية لصالح المجموع . . . وقد بلغ من أمر هذه الحرية السياسية أن كان المواطن الطريد كثيرا ما ينضم إلى أعداء وطنه مختارا . . ! بل لا يكون اليونانى مقاتلا ممتازا حين يكون فى حكم طاغية مستبد ، لأنه يقاتل فى مثل هذه الحال من أجل سيد يستبد به ، فإن تحرر من طغيانه ، بدت شجاعته واكتسح أعداءه فيما يروى عنه هيرودوتس .

والملحوظ أن حرية الكلام تحتل المكان الأول عند إيروبيدس ، فمن أخطأته نعمتها كان عبداً رقيقاً ، وقلما كانت الدولة تتدخل فى حرية الناس فى الكلام والنشر ، وليس أدل على هذا من روايات أرستوفان التى كانت تمثل على المسرح وتزاول النقد فى طلاقة ، وقد كابد نقده المر الأثينيون وساستهم فى الحرب البلبونيزية ، وإذا استثنيت أفلاطون جاز القول بأن جميع المفكرين السياسيين فى اليونان قد حرصوا على احترام شخصية الفرد ، واعتبروا الدولة مسخرة لخدمته . وتبدو الحرية الكاملة عند الوثنى فى خلو أحاديثه من محاولة الالتجاء إلى ضغط القانون لجعل الفرد صالحاً خيراً ، وإقامة الاحتياطات التى تضمن تمسكه بوطنه ، إن الجو السياسى الذى عاش فيه كان شديد الاختلاف عن الجو الذى نعيش فيه نحن الآن ، إنه خلو من الحديث

عن النزاع بين الطبقات وصيانة مصالحها ، والخدمة العسكرية الإجبارية ، وتحريم السكر والتعليم الديني ونحوه — وإن كان من الحق أن نعترف بأن الاسبرطيين قد أعوزتهم هـذه الحرية ، إذ كانت تربية الصغار وإعداد الكبار يتجه إلى التهيؤ للقتال ؛ ومن هنا كانت تضحية الفرد في سبيل الدولة ، وهذا ما جاهر به بيركليس واحتقره حين كره المنع والتحريم ، ونزع إلى ترك الفرد لنفسه حتى يكون موضع ثقة تجعله كفؤا لأداء واجبه — كان المثل الأعلى عند اليوناني : حرية مطلقة غير مقيدة ، فهل من الغريب بعد هذا أن يكون العقل اليوناني على هذه المبادئ حراً طلقاً . . ؟

إلى هذا ينتهي لفنجستون من بيان البواعث التي أدت إلى حرية النظر العقلي عند اليونان ، فالتحرر من ضغط الدين والسياسة ضروري لتحقيق أسمى تقدم يطمح إليه العقل البشري ، وقيام الفلسفة والعلم مستحيل بغير هذه الحرية التي تمكن العقل من المضي في تفكيره حتى يسير نحو الأشياء ويكشف عن حقيقة جوهرها ، وقد تكتسب الآداب بمثل هذه الطريقة ، ولكن نجاحها قد يتحقق حيث يضمحل العلم والفلسفة ، وتاريخها أعدل شاهد على ما نقول .

فلنعد إلى بيان العلاقة بين الدين والفلسفة عند اليونان :

دين اليونان وعلاقته بالنظر العقلي :

قيل إن أشعار هوميروس — الالياذة والأوديسيا — كانت إنجيل الاغريق ، وهذا التعبير مجازي لأنهم لم يعتبروها قط من وحي الله ، وكانوا يعتبرونها دنيوية لا دينية ، ورغم ما تهيأ لها من سلطان واسع النطاق على نفوس الإغريق ، لم تقو على تقييد العقل والحد من طلاقته — كما هو الحال مع الكتب المقدسة — ومن أجل هذا لا يصادف نقدها ما صادف نقد الأناجيل من سورات الغضب ونزعات الانتقام ، وساعد على نقدها ما تضمنته من ألوان الاستهتار والحط من المبادئ الخلقية .

ومع هذا فقد كان الدين الشعبي موضع احترام وتقدير ، وكان الشعب

هو الذى يتولى اتهام المارقين ورفع أمرهم إلى القضاء ، ولكن العصر قد خلا من سياسة منظمة ترمى إلى قمع الفكر الحر والتنكيل بأهله ، ومن أجل هذا استهدفت المعتقدات الدينية للنقد وتعرضت للسخرية ، على يد مفكرين كانوا بمأمن من اضطهاد الشعب وضغط حكامه ؛ وأغلب الحالات التى حوكم فيها أحرار الفكر من فلاسفة اليونان ، مردها إلى أسباب سياسية وبواعث شخصية .

وقد مكن لهذه الحرية الفكرية خلو البلاد من نظام كهنوتى ، يصبح معه قساوسة البلاد ذوى حول وطول ، ويمكنهم من الطغيان على مصالح الناس ، وإسكات أحرار الفكر منهم وقمع كل نزعة ترمى إلى هدم المعتقدات وزعزعة التقاليد . وقد هيمنت السلطات المدنية على العبادات ، ورغم ما تهيأ لبعض الأسر الدينية من سلطان ، كانت كلمة الكهان لا تسمع إلا فيما يتصل بالطقوس الفنية .

وقد تفاوت نقد الدين الشعبى قوة وضعفاً ، فعرض بعض الفلاسفة إلى تقويض معتقداته فى غير رفق ولا رحمة — كما سنعرف بعد قليل ، وحاول البعض الآخر أن يتحلل من تعاليمه ، فاعتبر الفيثاغورية آلهة الدين هى المعانى التى تحملها ، فمنيرفا هى الحكمة — لا إلهة الحكمة — وهكذا الحال فى سائر الآلهة ومضى الرواقية فى هذا الاتجاه فاعتبروا الآلهة قوى كونية .

وعندما غزا الرومان بلاد اليونان — ٤٦ ق . م — ألبسوا التراث اليونانى ثوبا لاتينيا ، وإذا كانت نزعتهم الواقعية لم تهضم ما تضمنه هذا التراث من وجوه النظر التجريدى المحض ؛ فحملتهم على تسخير العقل لخدمة الحياة العملية — والخلقية منها بوجه خاص — فإنهم — فيما يقول بيورى — قد واصلوا سياسة أسلافهم من اليونان فى احترام النظر العقلى الحر ، وعدم إخضاعه لاستعباد الأغراض الدينية .

هذا هو موقف اليونان من حرية التفكير إجمالا ، وإنا لنلحظ روحهم حياً يسعى فيما خلفوه لنا من آثار ، وهو الذى أضاء العالم الأوربى يوم انطلق إلى تراثهم يرتاد مجاهله وينقب عن آثاره ، ويلتمس عنده العون على اكتساح

الجهالة التى خلفها ظلام العصر الوسيط ، ولهذا قيل إن المدنية الأوربية الحديثة تدين لمبدأ الحرية الفكرية أكثر مما تدين لتراث أهله فى شتى ميادين المعرفة البشرية ، لأنه كان مصدر الإبداع فى النظر الفلسفى والتفكير العلمى والنظام السياسى ، بل كان سر الأصالة فى ميادين الآداب والفنون ، فما كان ينتظر أن تبلغ ما بلغته من وجوه الطرافة والإبداع لو عاق أهلها عن نقد الحياة عائق ، فلنعرض للإبانة عن هذه النظرة المجملة بشىء من التفصيل :

رواد الفكر الجديد فى اليونان :

يتألف الأغريق من شعوب منفصلة بعضها عن بعض ، تختلف مزاجا وعادات وتقاليد ، وإن جمعت بينها وحدة فى المظهر شاركت فيها جميعا ، وليس يعنينا الآن اختلافها فى الميول الرجعية أو النزعات التجديدية ، وتفاوتها فى عمق النظر وسمو الإدراك ، وحسبنا أن نخص بالحديث منها ما يتداعى ذكره مع تاريخ الحضارات ولا سيما الأيونيين والأثينيين .

كانت أيونيا مهد النظر العقلى الحر ، وعلى يد مفكريها بدأ تاريخ العلم والفلسفة ، يوم استخدموا الحد والبرهان فى معرفة العلل والماهيات ، وحاولوا منذ القرن السادس قبل الميلاد أن يفسروا الكون وما يعتريه من تغيرات ، وأن يعرفوا المبدأ الذى صدر عنه ، والمصير الذى ينتهى إليه . وإذا كان العقل اليونانى لم يتمكن من التحرر الكامل من ضغط الأفكار الدينية الشائعة فى عصره ، فقد تيسر له — مع هذا — أن يعمل على تقويض الآراء والمعتقدات الدينية وهو فى مأمن من ضغط الدين وطغيان رجاله .

وفى طليعة رواد الفكر يقف اكسنوفان + ٤٨٠ ق . م ، وإن لم يكن أطولهم باعاً أو أكبرهم خطراً . لأن موقفه من لاهوت عصره ، يصور لنا حرية الجو الذى عاش فيه هؤلاء الفلاسفة ، فقد كان يطوف بالبلاد معلنا باسم الأخلاق ، ما ساوره من شك فى المعتقدات الشعبية فى الآلهة — ذكوراً وإناثاً ساخراً من ميل الإغريق إلى تشبيه آلهتهم بالإنسان ، وإضافة صفاته إليها ، فالآلهة عنده من خلق الناس المعرضين للفناء ، يرسمونها على صورتهم ،

ويضيفون إليها ما لهم من عواطف وأصوات وأشكال، ومن هنا بدت الآلهة فى نظر الأحباش سود اللون فطس الأنوف، وتمثلت عند أهل تراقيا زرقاء العيون حمر الشعر، ولو كان للثيران أو الخيل تدبير الإنسان ومقدرته على التصور لتمثلت الآلهة على مثالها..! والله واحد يسمو على الموجودات جميعا، يخالف البشر فى صورته وتفكيره...

وهذه الحملة التى وجهها للاهوت الشائع فى عصره، اتهام لثقة الناس فى الشعراء ولا سيما هوميروس، أعظم مرجع للأساطير عند اليونان، وقد تناوله أكسنوفان بالنقد اللاذع فى غير رفق ولا رحمة، وأنكر عليه أن يعزو إلى الآلهة أعمالا تعد معرة لمن يقدم عليها من البشر... ومع هذا لم يحاول أحد أن يخفف من حدة هذا النقد الساخر، أو يتعرض لصاحبه بوجه من وجوه الأذى مع أنه وصف هوميروس بأنه شاعر فاجر.!

وقد ساهم الماديون من الفلاسفة القدامى فى زعزعة الأفكار القائمة على الحس المشترك، وتوجيه العقل فى نظرته إلى الكون فى اتجاهات جديدة، وحسبنا من هؤلاء هيرقليطس وديموقريطس، وكلاهما كان يضيق بالتصورات الشعبية للدين فيهاجمه من أجل ذلك، ويفكر حراً طلقاً، ولا يجد من القصص الخيالية ما يشبه القصص التى فرضتها الكتب المقدسة على الناس، وعاقت بها طلاقة تفكيرهم.

فأما الثانى فقد فسر الوجود تفسيراً آلياً ميكانيكياً، فاعتبر كل موجود لا يعدو أن يكون امتداداً وحركة، يتألف من جواهر فردة Atoms هى وحدات متناهية فى الدقة غير متناهية فى العدد، قديمة دائمة تتحرك بذاتها، تقبل التجزئة، بتلاقيها يحدث الكون، وبافتراقها يقع الفساد، تتشابه فى طبيعتها، ولكنها تختلف شكلا ومقداراً، وليس فى الوجود موجود لا يخضع لهذا التفسير الآلى، حتى النفوس البشرية والآلهة جميعا، ومن ثم اعتراها الفساد بعد الكون.

ولم يتعرض لدعاة هذه النظرية بسوء أحد من أتباع اللاهوت فى عصرهم،

وحسناً ما كان ، فقد وجدت النظرية من يعمل على إحيائها فى مطلع العصر الحديث ، وسرعان ما اتصلت بأحدث نظريات المادة فى الطبيعة والكيمياء .

فأما هرقليطس فقد حقر من شأن المعتقدات الشعبية والتقاليد والعبادات الشائعة ، وقرر — ردا على الإيليين — أن الأشياء فى تغير متصل ومن ثم يكون الموجود الجزئى ملتقى الأضداد، وبهذا يمتنع كل علم ، فمهد بهذا لحركة الشك السوفسطائى الذى شغل أتباعه النصف الثانى من القرن الخامس قبل ميلاد المسيح ، وهم طائفة من المعلمين انصرفوا عن التفكير فى الكون الطبيعى إلى مشاكل الحياة الإنسانية — ولا سيما ما اتصل منها بالأخلاق والسياسة — وأخذوا يتنقلون فى البلاد طولا وعرضاً مبشرين بدعوة العقل ، وتحكيمه فى كل ما يصادفه الإنسان من مشاكل ، مهتمين بالبحث فى طبيعة المعرفة وأدوات التفكير ، فاعتنقوا مذهب هيرقليطس فى التغير المتصل ومضوا به حتى انتهوا إلى اعتبار الفرد مقياس الأشياء جميعاً ، فتأيدت النزعة الفردية بانتصارهم لاستقلال الفرد واحترام شخصيته ، وحمايته من تدخل الحكومة والجماعة معاً ، وأصبح الفرد بهذا معيار الصواب والخطأ فى مجال العلم ، ومقياس الخير والشر فى ميدان الأخلاق ، ولا عبرة برأى العرف ووحى التقاليد ، وانتفى الخطأ وامتنع قيام الحقيقة لذاتها ، وتضاءل شأن العلم وافتقد قيمته الذاتية واختفت النزعة الموضوعية فى النظر العقلى ، ومهد هذا لاستخفافهم بالعقائد السائدة والتصورات الشعبية استخفافا أدى إلى نقدها فى غير رفق ولا هوادة ، وأشاعوا التشكك فى الدين وجهروا بالسخرية من شعائره وآلهته ، وكان رائدهم فى كل هذا التمشى مع منطق العقل الفردى ، والاعتصام بحرية البحث والنظر فى التقاليد والمعتقدات وتغليب النزعة الفردية على النزعة الموضوعية ، ومن أجل هذا قيل إن النزعة الإنسانية قد بدأت على يدهم وأن عصرهم كان أشبه مايكون بعصر التنوير — فيما يرى بعض المحدثين من أمثال تيودور جومبرز .

وفى الحق لقد أثرت الثقافة الدخيلة عليهم تأثيراً واسع المدى ، فى إخضاع السلطة للشك الهدام ، وعملت رحلاتهم على تنمية روح الشك إزاء النقل

والرواية ، لأن من اقتصرت معرفته على تقاليد وطنه استجاب لوحيها ، ومال إلى رفعها فوق الشك والجدل ، فاذا شد رحاله إلى أمم جديدة ، وأدرك وجه الخلاف الملحوظ بين عرفها وعرف بلاده واطلع على مالا عهد له به من مقاييس السلوك ومعايير الفهم والتصور ، أيقن أن الأخلاق والأديان تختلف باختلاف المكان ، ومتى انتهى إلى هذا الرأى تضاءلت السلطة أمام نظره ، وهان التهجم على قداستها .

وما من شك فى أن هذه الحركات العقلية الهدامة كانت عند الإغريق — كما هى فى كل زمان ومكان — وقفا على الأقلية المستنيرة : أما سواد الجمهور فقد كان نزّاعا لاحترام التفكير القائم على الأساطير ، ميالا للاعتقاد بأن أمان مدينته مرهون بإرادة الآلهة ، ومن ساوره الشك فى صدق هذه الخرافات الشائعة مكن خصومه من اضطهاده ، وهذا ما وقع فى أثينا ، فقد أضحت فى منتصف القرن الخامس أعظم دولايات الاغريق وأرفعها شأناً فى مجال الآداب والفنون وكانت قد استوفت حظها من النظام الديمقراطى ، فتحرر الجدل السياسى فيها من كل قيد ، وكان يتولى أمرها حاكم حر التفكير هو بيركليس ، إذ كان على اتصال بالنظر العقلى الحر فى عصره ، اتصلت أسباب الصداقة بينه وبين الفيلسوف السوفسطائى أنكساجوراس الذى كان لا يؤمن بآلهة الأثينين أدنى إيمان ؛ ولما دحرت أثينا غارة الفرس على بلاد اليونان غادر الفيلسوف أيونيا وخف إليها ليعلم فيها ، فدخلت الفلسفة أثينا لأول مرة ، ووقف الفيلسوف من الآلهة موقف كفر صريح ، وجارى الطبيعيين فى تفسير الكون تفسيرا آليا ، وكان خصوم بيركليس السياسيين يكيدون له ، فسنوا قانونا لمحاربة التجديف ، ليستهدف للعقاب من ألحد أو علم نظريات تتصل بالعالم السماوى ، وقد كان هذا العالم فى اعتقاد الأثينيين إلهيا ، وتيسر لهم بعد هذا القانون أن يدللوا على أن « أنكساجوراس » ملحد مجدف ، يقرر أن الآلهة مفارقة للمادة والقمر أرض تحوى جبالا ووديانا ، والشمس التى يقيم لها الأثينى الصلاة كل صباح ومساء ، — هى وسائر الكواكب ، كغيرها من

الأجسام الأرضية ، ليست إلا أجراما ملتهبة ، فصدر قرار بإعدامه جزاء وفاقاً على تجديفه ، ولكن بيركليس قد تمكن من إنقاذ صديقه من براثن الموت ، وإن اضطر هذا إلى دفع غرامة فادحة .

واضطر بعدها إلى مغادرة أثينا ، والالتجاء إلى لمباقوس (Lampsacus) بأسيا الصغرى — وفيها عاش مكرما حتى وافته منيته .

وإذا كانت الخصومة السياسية قد استغلت الدين فى مثل هذا الاضطهاد ، فاننا لا نعدم فى هذه الفترة وجود حالات تشهد بأن مهاجمة العقائد الدينية قد تستفز الجمهور وتثير حفيظته وتدفعه للانتقام ، فقد نشر « بروتاجوراس » أحد كبار السوفسطائية — كتابا عن الآلهة ، قال فيه : أما بصدد الآلهة ، فإنى لست على يقين من وجودها أو عدمه ، وثمة أسباب كثيرة تفسر عجزنا عن معرفة ذلك ، منها غموض الموضوع ، وقصر حياة الإنسان . . ! فاتهم بالتجديف ، وصدر حكم بإعدامه ، وأحرق كتابه على ملأ من الناس ، ففر إلى أثينا ، ولكنه مات غريقا .

على أن تاريخ النزاع بين الإيمان والعقل فى هذه الفترة لا يسجل وجود سياسة مقررة لقمع الفكر الحر واضطهاد أهله ، فإن كتاب « بروتاجواس » السالف الذكر ، قد جمعت نسخه وأشعلت فيها النار جهارا ، ولكن كتاب « انكساجوراس » الذى فصل الآراء التى أدين من أجلها زميله ، كان يباع للناس على قارعات الطرق ، فى مكاتب متنقلة فى أثينا بأسعار مخفضة . . . ! وهذا بالإضافة إلى أن الأفكار التى تساير منطق العقل ، ولا تتمشى مع وحى العرف ، كانت تمثل على المسارح ، وإن كان التمثيل الدراماتيكى فى أعياد الإله ديونيسوس Dionysus ، كان يتسم بالوقار الدينى . على أن الجوح كان يثير الناس أحيانا ، فإن الشاعر « إروبيدس » كان مشبعاً بروح النظر العقلى الحديث ، وكان كثيراً ما يجرى على ألسنة الأبطال فى رواياته ، آراء تنبو عن العرف المألوف ، وتزج صاحبها فى زمرة الملحدين ، فاتهمه بالتجديف أحد الساسة الشعبيين .

ويلوح لنا أن الإلحاد قد استشرى داؤه بين الطبقات المثقفة ، خلال الثلث الأخير من القرن الخامس قبل ميلاد المسيح ، فقد شغلت هذه الفترة طائفة كبيرة من أصحاب النفوذ من العقليين ، كانوا ضماناً لحرية التفكير ووقاء من شر كل حركة منظمة ترمى إلى قمع الرأى الحر ، ولكن وجه الخطر فى قانون التجديف ، أن استغلاله لخدمة الأغراض الحزبية والمآرب الشخصية كان ميسوراً ، وما من شك فى أن بعض الدعاوى التى تناهت إلينا تعزى إلى مثل هذه البواعث ، وإن كان بعضها الآخر قد دفع إليه التعصب المحض ، أو أدى إليه الخوف من انتشار التفكير الشكى واستفحال أمره ، وتجاوزه الطبقات المثقفة إلى غيرها ، إذ كان المبدأ المقرر الذى اتفق عنـــده الإغريق — والرومان بعد — أن الديانة ضرورة لازمة للكافة ، وليس من صالح الوطن ، ولا من خير أفراده ، أن ينصرف النـاس عن اعتناقها واتباع تعاليمها ، فالذين لم يؤمنوا بصدقها ، ولم يعترفوا بوجه الحق فى عقائدها ، آمنوا بنفعها كنظام سياسى ، ولم يكن من المألوف المساغ فى رأى العرف أن يتحرى الفلاسفة نشر الحقائق المثيرة للجماهير ، المشوشة لآرائهم ، بل كان المألوف الذى جرت به العادة أن يبدو الذين لا يؤمنون بالمعتقدات الثابتة ، وكأنهم يعيشون بوحيها ، ويجرون على نظامها — كما هو حالهم فى عصرنا الحاضر . . !

مصرع سقراط وأسبابه :

وإذا كنا فى معرض الحديث عن حرية النظر العقلى عند اليونان ، فلا مفر من الحديث عن مصرع سقراط ، التزم منهجه فى التهكم والتوليد ، فكان يصطنع الجهل ويستفسر من محدثه بأسئلة تثير الشك وتفضى إلى الكشف عن وجوه التناقض فيما يقول محدثه ، ولا يزال فى حديثه حتى يستخرج الحقيقة مستعيناً بالعقل الذى يتخطى عوارض الأشياء إلى ماهياتها ، وبهذا يكون العلم الصحيح ، وقد أثار خصومة الكثيرين من كبار البارزين من مواطنيه بمثل هذا الامتحان الذى أجراه معهم وكشف به عن جهلهم .

وقد أغرى تلامذته باختبار المعتقدات الشعبية بمنطق العقل الدقيق النزاع للجدل ، وحضهم على عدم الاستجابة إلى رأى الكثرة وإملاء السلطة عند إصدار الأحكام وتقويم الأمور ، فالرأى العام لا يصلح أن يكون محكا للحقيقة ، والعرف الشائع لا ينبغى أن يتخذ دليلا على صحة رأى أو بطلان فكرة ، وقد كان من بين تلامذته كبار فلاسفة الجيل التالى ، الذين تجاوز اسمهم حدود أثينا ، وملأ تاريخ العقل البشرى بوجه عام . وقد كان منهجه فى الجدل يسيء خصومه ويجرح عزتهم ، فضاقوا به وبرموا بآرائه ، وكان من مظاهر استيائهم أن وضع أرستوفان عام ٣٧٦ روايته « السحب » وصور فيها سقراط معلقا فى الفضاء يرصد السماء ، وعزا إليه إنكار الآلهة ، واتهمه بتعليم تلامذته إيثار الباطل على الحق ، وطالب بإعدامه مع تلامذته وإحراق مدرسته ! ولكن مطلبه لم يتجاوز صفحات كتابه .

وإذا استثنينا مثل هذه المظاهر من استياء خصومه ، لاحظنا أنه واصل التبشير برسالته فى تعليم مواطنيه حتى أدركته الشيخوخة ، دون أن يصيبه أذى من جراء تعاليمه ، فلما بلغ السبعين من عمره عام ٣٩٩ ق . م رفع أمره إلى القضاء ثلاثة من خصومه بحجة أنه ينكر آلهة المدينة ، ويوجه الأذهان إلى آلهة أخرى ، ويفسد عقول الشباب ، وطالبوا بإعدامه اتقاء لشره ، ولم يكن من الهين على يونانى أن ينكر الآلهة ، وهى من التقاليد التى تحاط بالاحترام ولا يجوز التعرض لها بسوء ، ولكن سقراط كان فى الواقع مؤمنا بالآلهة وعنايتهم بالبشر ، حريصا على المشاركة فى الشعائر الدينية ، والمظنون أن اتهامه بالقول بآلهة أخرى مرده إلى ما كان يزعمه من أنه يسمع فى بعض الأحيان صوتا إلهيا ينهاه عن ارتكاب بعض الأعمال ، وأما اتهامه بإفساد الشباب فمرجعه فيما يرى خصومه إلى أنه كان ينفر تلامذته من الديانة الشعبية ، ويغريهم بالتفكير المستقل القائم على شريعة العقل . فتألفت محكمة من اثنين وخمسمائة نوتى وتاجر ، لم يألفوا البحث الفلسفى والجدل العقلى ، وأنكر الفيلسوف ما عزاه إليه خصومه وقرر أنه يبشر بالصلاح والهدى مساقا بإرادة إلهية ،

غير طامع فى منفعة ذاتية ، وأعلن إصراره على تحقيق رسالته ، ولو قضت المحكمة ببراءته ، لأنه يؤثر الواجب على الحياة ، ولا يخاف غائلة الموت ، ثم صرح فى ختام دفاعه بأنه يأبى أن يسترحم قضاته ويطلب إليهم الغفران ، كما جرت بهذا عادة الأغيار من المتهمين ، فأدانته الأغلبية (٢٨١ ضد ٢٢١ صوتا) وكان القانون يخوله اختيار نوع العقوبة التى يرتضيها ، فأبى هذا لأن الاختيار اعتراف بذنب لا يقر به ، وأعلن أنه خليق بأن يثاب على رسالته التى قضى حياته فى التبشير بها لصالح أمته ، فليكن جزاؤه أن يعيش ما بقى من حياته على نفقة الدولة . . ! ثم عاد فاستجاب أخيراً لإلحاح تلامذته فى إنقاذ حياته بدفع غرامة ، ولكن قضاته كانوا قد سبقوا إلى الحنق عليه ، فأصدرت أغلبية كبيرة منهم حكمها بإعدامه ، واستقبل الفيلسوف هذا الحكم راضيا مطمئنا ، وأعلن أن الموت خير لا ينبغى أن نخافه أو نضيق به ، فدبر له تلامذته سبيل الهرب ، ولكنه أبى أن يذعن لرأيهم ، ويعصى بهذا قوانين بلاده ، واعتصم بالصبر ، وأنحى باللائمة على كل من جزع من تلامذته وصحبه وعشيرته ، قالت له زوجته وهو فى سجنه : أيقتلونك ظلما وعدوانا . . ؟ فأجابها رابط الجأش : أو يرضيك أن يكونوا على حق فى إعدامى . . ؟ ولما دنت ساعته ، تناول كأس السم فى ثبات ، وتجرعه فى اطمئنان حتى الثمالة ، وراح على يد الديمقراطية شهيدا . . . !

هذا اضطهاد آثم ، ولو كان مردّه إلى الدين ، لأجهز على حياة الفيلسوف قبل أن تدركه الشيخوخة . ولكن مرجعه إلى أسباب شخصية ، وبواعث سياسية ، مرد الأولى إلى الخصومة التى أثارها بأحاديثه على ما عرفنا ، ومرجع الثانية إلى كثرة هجومه على الديمقراطية .

والاتهامات التى وجهتها أثينا إلى سقراط ، يمكن توجيهها كلهـا إلى زينو مؤسس الرواقية ، ومع هذا فالمعروف أن زينو حين مات فى الثامنة والتسعين من عمره ، نهضت أثينا لتكريمه ، فقامت برثائه رثاء رسميا ، وأصدر أولو الشأن قراراً يعلنون فيه أن زينو قد استحق تقدير الوطن جزاء ما قدم

من خدمات وأسلف من جهود فى نشر الفضيلة والحكمة ، واعترافا بقدرته على التزام المبادىء التى بشر بها واعتنقها طوال حياته ، وخلعت عليه أثينا تاجاً من الذهب ، وقررت إعداد قبر له فى مدفن العظماء . وقد كان سقراط خليقاً بأن ينال من أثينا كل هذا التقدير ، لولا الظروف السياسية والأحقاد الشخصية .

وقد صور مأساة سقراط تلميذه أفلاطون ، فى « دفاع سقراط » وعرض فيها لبيان الاتهام ، وتفنيد مزاعمه ، بدفاع حى رائع عن حرية البحث والجدل ثم صور فى « أقريطون » موقف سقراط من فكرة الهرب التى عرضها عليه هذا التلميذ ، ويعنينا من دفاعه الآن مبدءان قررهما أثناء محاكمته وهما :

(١) أن من واجب الفرد أن يرفض — بالغا ما بلغت خطورة رفضه — كل سلطة تنزع إلى كبح آرائه ، وتضطره إلى اعتناق فكرة باطلة فى عرف منطقه ، فأكبر بهذا من سمو الضمير الإنسانى ، واستعلائه على كل قانون وضعى ، وقد كان يشعر عن إيمان بانه يستجيب لوحى مرشد فوق الطبيعة البشرية ، حين يتصدى لهداية البشر ، ويقف على البحث الفلسفى حياته ، حتى لقد كان يعلن أنه يؤثر الموت ، على أن يتهاون فى أداء هذا الواجب ، وهو يقول لقضاته أثناء محاكمته :

لو أنكم اقترحتم إخلاء سبيلى بشرط أن أتخلى عن بحث الحقيقة ، لقلت لكم : إنى أشكركم أيها الأثينيون ، ولكنى أوثر أن أستجيب لطاعة الله الذى أعتقد أنه هيأنى لأداء هذه الرسالة على أن أنصاع لرأيكم ، وما دام بين جنبى نفس يتردد ، وقوة أشعر بدبيبها فى كيانى ، فلن أتوقف عن مزاولة التفلسف ومواصلة التحدث إلى من ألقى من الناس ، وتكرار القول له : ألا تشعر بالضعة والخجل حين تكلف بالثروة وتتعلق بها ، ولا تحرص على الحكمة ولا تعبأ بالحق ولا تعمل على ترقية نفسك . . ؟ إنى لا أعرف ماذا يكون الموت ، وربما كان أمرا طيبا ، فأنا لا أخافه ولا أخشاه ، ولكنى واثق من

أن توقف المرء عن أداء وظيفته شر لا محالة ، فأما أوثر ما يحتمل أن يكون طيبا على ما أعرف يقينا أنه شر .

(٢) ويلح سقراط فى القول بأن حرية البحث مفيدة للناس ، فيقول لهم : إنكم تجدون فى ناقدا ينبهكم إلى أخطائكم ويثابر على إقناعكم وتأنيبكم ، ويداوم على امتحان آرائكم ، ويحاول أن يدلل لكم على أنكم تجهلون ماتتوهمون أنكم تعلمونه ، والخير الأسمى إنما يقوم فى بحث هذه الموضوعات التى أناقشها كل يوم ، والحياة التى لا تخضع لامتحان هذه المناقشة لا تستحق أن يحياها إنسان ، فكان هذا أول تبرير عقلى لحرية الفكر .

وبعد نحو سبعين عاما من مصرع سقراط ، مات الإسكندر تلميذ أرسطو (عام ٣٢٣ ق . م) ، فجد ديموستين وحزبه فى مطاردة الأجانب ، واتهموا أرسطو بالالحاد ، فعهد بمدرسته إلى ثاوفراسط ، وولى الإدبار وهو يقول : لا داعى لأن أمكن الأثينيين من ارتكاب جريمة أخرى فى حق الفلسفة . . !

وضع أفلاطون فى أواخر حياته «جمهورية» مثالية ، اقترح فى نظامها دينا يختلف مع الدين المعتمد الشائع اختلافا بينا ، وفرض على أهلها الاعتقاد فى الآلهة الجدد وإلا استهدفوا لعقوبة الموت فى السجن ، واستبعد كل حرية فى البحث فى هذا النظام الصارم الذى وضعه للطبقات ، ووجه الطرافة فى موقفه أنه كان لا يكترث بصدق الدين ولا يعبأ ببطلان الخرافات ، وحسبه من الدين منفعته فى ميادين الأخلاق ، أما الخرافات فقد حرص على تهذيبها لتساهم فى ترقية الأخلاق ، ولم يكن بطلان الأساطير الشعبية سر ضيقه بها ، بل كان مرجع احتقاره لها ، أنها لاتهيء لحياة البر والصلاح .

وفى البيئة السقراطية نشأ أنصاف السقراطيين ، وأفلاطون ، وعن هذا الجد العقلى صدر أرسطو والأبيقورية والرواقية والشكاك ، ممن هيمنوا على الحياة العقلية حتى مطلع العصر الحديث ، بل مازالت نظراتهم تحتل مكانها فى تفكيرنا الراهن .

موقف الابيقورية والرواقية :

ومنذ القرن الثالث قبل الميلاد اتجه التفكير — على يد الأبيقورية والرواقية ومن إليهم — إلى إحياء النزعة الفردية ، والنظر إلى الفرد مستقلا على الجماعة ، والعمل على توفير راحته واطمئنانه ، وشاعت هذه النظرة فى العالم الإغريقى كله ، وكان سواد المثقفين فى هذه الفترة من العقليين ، فمكن هذا لنزعات التمرد على الدين المعتمد ، وشجع على المروق والإلحاد ، وانحل الإيمان بالآلهة القديمة ، وأصبح الله أداة لتحقيق الخلاص الذى كان ينشده الجميع .

وجاهدت الأبيقورية بنزعتها المادية وإلحادها الصريح بمعاداة الدين ، وتهجمت على قدسيته ، لأنها أعتبرت التماس الأمان مثلها الأعلى ، فأداها هذا النظر إلى أن التوقف عن الاعتقاد فى الدين أدعى للايمان من الايمان به ، ومن ثم يصبح الايمان بالدين خطيئة ، بل أضحى عند بعضهم مبعث كل شر ، على أن أبيقور كان يعتقد مع هذا بوجود الآلهة ، ولكنها بدت عنده فى صورة إنسانية محضة ، وإن كان قد كفل لها الخلود ؛ فهى تعيش فى عزلة عن الناس منعمة هانئة بالاطمئنان ، مجردة عن العواطف حتى لا تشغل نفسها بشئون الكون ومن فيه ، فانتفت العناية الإلهية ، وجاز ما نلحظه فى الكون من تفوق نصيب الشر على نصيب الخير . ولكن ما أصل هذا الشر ؟ إما أن نقول إن الله يريد إبطال الشر ولا يقوى على ذلك ، أو يستطيع إبطاله ولكنه لا يريد إلغاءه ، أو يعجزه إبطاله وتعوزه إرادة ذلك ، أو تتوافر له القدرة على إبطاله وإرادة هذا معاً ، والفروض الثلاثة الأولى لا تليق بمقام الألوهية ، ومن ثم لا تصلح أن تكون موضوعا لتفكير ، وبهذا يصدق الفرض الرابع ، وصدقه يستتبع الاستفسار عن السبب فى قيام الشر ، وقيامه شاهد على ضرورة الانتهاء إلى إنكار الله بمعنى الحاكم المدبر للكون المعنى بشئوننا ، ولم يكفه إنكار الألوهة — بالمعنى السالف — ورفض القول بالعناية الإلهية ، بل حاول أن يجتث الدين من أساسه ، فاعتبر الخوف الباعث الرئيسى على

الإيمان به ، وتحرى أن يحرر العقل البشرى من هذا الخوف لينحل ماترتب عليه من آثار ! ومضى فى نزعاته المادية ففسر الكون فى ضوء نظرية ديمقريطس فى الجواهر الفردة ، وأكد خلوه من كل حكم إلهى .

على أن شيوع الإلحاد واستفحال أمره ، لا ينفى ضيق العامة بمثل هذه الآراء المتطرفة ، ولعل هذا يفسر مشاركة أبيقور فى الشعائر الدينية وتردده على المعابد كما يفعل غيره من عامة الناس . . . ! ، على أنه عاش آمناً لا يزعجه اضطهاد حتى وافته منيته .

وانتصر الرواقية لقضية الحرية ، وأكدوا حقوق الفرد ضد السلطة العامة ، وتمسكوا فى هداية المجتمع « بقانون الطبيعة » واعتبروه أسبق وأسمى من العرف والعادات والقوانين الوضعية جميعاً .

موقف الرومان من حرية النظر العقلى :

على هذا النحو كانت حرية النظر العقلى قائمة عند الرومان ، كما كانت فى ظل اليونان — فيما يقول الأستاذ بيورى — فلم يكن للعقل قيود تعرقل طلاقته طوال الجمهورية والامبراطورية الرومانية الأولى ، وفشت المذاهب الفلسفية التى جعلت الفرد جماع الاهتمام ، وكان أكثر قادة الفكر كفرة بالدين الرسمى للدولة ، ولكنهم نفروا من هدمه ، وحرصوا على صيانته للافادة منه فى حكم الجماهير ، وتوفير الأمن وإقرار النظام ، بل لقد نزع بعض المفكرين — من أمثال شيشرون — إلى غرس الخرافات فى النفوس لصالح الجمهور ...! وقد شاع بين الملحدين من القدماء القول بأن الدين الزائف لا غنى عنه لمصلحة الحياة الاجتماعية بين الناس[1] ، ولهذا الرأى أنصار فى عصرنا الحاضر ، لا يعنيهم التفكير فى صدق الدين وبطلانه بقدر ما يعنيهم نفعه فى حياة

(١) يذكرنا هذا بمذهب أتباع الفلسفة العملية (البرجماتزم Pragmatism) فى أمريكا ، انظر الفصل الرابع من كتابنا « مذهب المنفعة العامة » والفصل الأول من الباب الأول ص ٤٨ وما بعدها والفصل الثانى من الباب الرابع وكتابنا « أسس الفلسفة » — طبعة ثالثة .

الجماعات ، والانتصار لهذا الرأى يتصل بسياسة مكيافيلي الذى صرح بأن الدين ضرورى لقيام الحكومة ، وربما كان من واجب الحاكم أن ينتصر للدين الذى يؤمن ببطلانه . . ! وفى هذا الاتجاه سار أصحاب الفلسفة العملية (البرجماتية) Pragmatism فى أمريكا .

كانت القاعدة التى قامت عليها السياسة الرومانية : التسامح مع كافة الآراء — وجميع الديانات — فى أرجاء الإمبراطورية كلها وليس أدل على صدق هذا من أن يكون التجديف بمنجاة من العقاب ، وقد أوضح هذا المبدأ الإمبراطور تباريوس (الذى ولد عام ٤٢ ق . م) إذ قال : إذا أحس الآلهة بأنهم قد أهينوا ، فعليهم أن يقتصوا لأنفسهم ..! وكان وجه الشذوذ فى قاعدة التسامح ، أتباع الدين المسيحى الجديد ، وربما كانت معاملة هذا الدين الشرقى بدء الاضطهاد فى أوربا ، على أن النزاع بين الطوائف الدينية لا يعنينا فى هذا البحث ، وإن كان اضطهاد الفكر نوعا من الاضطهاد فى أوسع معانيه .

هذا هو رأى بيورى فى موقف الرومان من حرية الفكر ، ولعلنا لاحظنا أنه قصر حديثه على الجمهورية الرومانية القديمة والامبراطورية الرومانية الأولى ، وإذا نحن تجاوزنا هاتين المرحلتين ، لاحظنا أن السياسة الرومانية قد انعكست فيها الآية . فامحت سياسة التسامح ، وأخذت مكانها سياسة الكبح والقهر المعيب ، ولعل لفنجستون قد قصد هذا حين عرض لموقف الرومان فى هذا الصدد ، وروى عن بلوتارك أن عقلية الرومان كانت بحيث لا تسمح بأن يتزوجوا أو ينجبوا أولادا أو يعيشوا من أجل أنفسهم ، أو يقيموا الأعياد والحفلات لإشباع لذتهم الخاصة ، ولم يكن من المألوف أن يأذنوا لكل فرد بأن يعمل ما يشاء منساقا مع أهوائه وشهواته . إن بين الرومان والإغريق هوة سحيقة القرار فى عبادتهم لله . والرومان لا يشجعون التجديد فى التفكير أو الدين ، ولا يمتدحون التسامح ، ولا ترضيهم حرية البحث ، وقد فرض الحكام الذين يَلُون القناصل Praetors فى روما عام ١٦١ ق . م طرد فلاسفة اليونان ورجال البيان من هذا البلد ، وتقرر نفى كثيرين من

معلمى الأبيقورية — وربما كان هذا عام ١٨٤ ق . م — وفى عام ٩٢ ق . م أصدر الرقباء هذا المرسوم : ترامت إلينا الأنباء بأن هناك أفراداً يبشرون بنوع جديد من العلم ، وأن الشبان يقبلون على مدارسهم ، وأن هؤلاء الأفراد يزعمون لأنفسهم وللناس بأنهم معلمو بيان من اللاتين ، وأن الشبان ينفقون الأيام الكاملة فى صحبتهم ، لقد قرر آباؤنا نوع العلم الذى ينبغى أن يتعلمه أبناؤهم ، ونوع المدارس التي يجب أن يلتحقوا بها ، أما هذه المدارس التى نشأت على نقيض ما جرى به العرف والتقاليد عند آبائنا ، فانها فى نظرنا باطلة وليس من المرغوب فيه تشجيعها أو الإقبال عليها .

ويمضى لفنجستون بعد هذا فيقرر أن هذا التباين بين الرومان والإغريق مرده إلى الاختلاف فى تاريخ الشعبين : فالرومان عاشوا فى كفاح طويل مُمِض مع أعدائهم ، وانتهى هذا الكفاح بانتصارهم ، فانتفى التسامح من حياتهم . وقد كانوا يمتازون بالثبات والنشاط والعزم والصلابة ، ومن أجل هذا مست حاجتهم إلى العمل والكفاح لرد الأعداء ، لا إلى البحث والنقاش .

وقد عرض الدكتور طه حسين لبيان هذا الموقف فقال[1] «وأما الرومان فكرهوا (فى أول الأمر) فلسفة اليونان أشد الكره ، لقوها بالازدراء ثم قاوموها مقاومة سياسية ، فحظروا درسها ، وبلغ بهم ذلك أن زعيما من زعمائهم هو « كاتو الكبير » توسل إلى مجلس الشيوخ فى أن يتعجل فى قضاء حاجة لبعض السفراء اليونانيين ليترك هؤلاء السفراء المدينة ، ويستريح منهم سواد الشعب ، وكان بين هؤلاء السفراء فلاسفة انتهزوا سفارتهم فرصة لإلقاء محاضرات فلسفية فى روما ، ولكن الرومان لم يكرهوا الفلسفة اليونانية وحدها بل كرهوا كل جديد أيضاً . . كانوا أشد الشعوب القديمة فى الغرب محافظة وحرصا على القديم ، ومع أن دينهم لم يكن أشد من الدين اليونانى تعقيدا ، ومع أنه لم يكن كالديانات السماوية يعتمد على كلام أو لاهوت ، فقد كان يمتاز من الدين اليونانى امتيازا قويا من وجهين : الأول أنه كان أشد من

---

(١) من بعيد (فصل بين الدين والعلم) .

الدين اليونانى تسلطا على حياة الفرد والجماعة ، فقد كان الفرد الرومانى أشد الناس طيرة وإشفاقا ، يخاف من كل شىء ويرى تأثير الآلهة فى كل شىء ، ويحرص على أن يتملقهم ويترضاهم .. ونحن لا نعرف عن اليونانى زجرا ولا عياقة ولا قيافة ولكنا نرى هذا كله عند الرومان ، ونراه مؤثرا أشد التأثير فى الحياة الخاصة والعامة جميعا . الثانى أن هذا الفرق بين الفرد اليونانى والرومانى من حيث التأثر بالدين ، قد استتبع نتيجته الطبيعة ، وهى أن تكون عناية السياسة بالدين ملائمة لشدة ما لهذا الدين من التأثير فى نفوس الأفراد والجماعات ، فنظمت حماية السياسة بالدين فى روما تنظيما قويا ، وقام فى روما شىء يشبه « الأكليروس » له سلطته الدينية وله امتيازاته أيضا ، وإذ كان رئيس الدولة سواء أكان ملكا أم قنصلا ، إنما يستمد سلطته من الشعب بعد استشارة الآلهة ، أو قل من الآلهة بعد استشارة الشعب ، فقد كان الواجب الأول على الملك أو القنصلية حماية الدين ، وكذلك قامت بحماية الدين فى روما جماعة الأكليروس وهيئة الحكومة ومجلس الشيوخ الذى كان ، واجبه الأول حماية ما ترك الآباء . فلا تعجب إذا رأيت الرومان يقاومون الجديد مهما يكن ويشتدون فى مقاومته إذا مس الدين ، ولا تعجب إذا رأيت الرومان فى عصورهم الأولى يبغضون أشد البغض ويناهضون أشد المناهضة هذه الديانات ... الخ » .

كلمة أخيرة :

وإذن فقد كانت حرية النظر العقلى عند اليونان — بوجه عام — حقا طبيعيا لكل إنسان ، فهو أشبه ما يكون بالهواء الذى يتنفسه ، وقد اتفقت كلمة الجميع عند هذا الحق ، وإذا كانت أثينا قد عرفت سبعة أو ثمانية مفكرين قد عوقبوا من أجل الاتهام بالهرطقة ، فقد كان الاتهام فى بعض هذه الحالات ، أو فى أكثرها — مجرد تعلل وادعاء ، يستتر وراءه أحقادا مردها إلى الأسباب السياسية أو البواعث الشخصية ، فإن المستنيرين من هؤلاء القدامى كانوا من أشياع العقل والانتصار لشريعته ، ينفرون من كل سلطة

تنزع إلى الهيمنة عليه ، ويرون أن الحجة وحدها هى الطريق إلى سيادة الآراء ، ولكن هذه الحرية لم تكن نتيجة لسياسة تحروا وضعها عن وعى ، وتوخوا توكيدها عن اقتناع أكدته البراهين عن قصد . ولم تكن مشكلة حرية التفكير والتسامح ونحوه مفروضة على المجتمع ، ولا موضع بحث جدى بتاتا ، فلما واجهت المسيحية الحكومة الرومانية ، كان لابد من تجربة النظرية ، وممارسة الاضطهاد زمنا طويلا ، لكى تستقيم حرية التفكير وتتوطد فى أمان ، وكانت سياسة الكبح التى أقرتها الكنيسة المسيحية وما أدت من نتائج ، هى التى دفعت العقل لمواجهة هذه المشكلة والتصدى لها ، وسرعان ما اهتدى العقل إلى اكتشاف تبرير لحرية الفكر .

حسبنا هذا عن حرية النظر العقلى عند القدامى من أهل أوربا ، ولنتتبع موقف المسيحية من العقل منذ نهض رجالها لمقاومة شريعته :

أهم مصادر الفصل

1. Prof. J. B. Bury, A History of Freedom of Thought (920)
له ترجمة عربية تحت عنوان « حرية الفكر » .

2. Livingstone, Greek. Genious, its meaning to us.
3. F. M. Conford, From Religion to Philosophy.
4. A. Taylor, Socrates.
5.Encyclopedia Br. art. Socrates by Jackson
6. Platon, Apologie de Socrates.
7. Roberston, A Short Hist. of Free Thought, (Ancient & Modern 2 vols).

ثم من كتب تاريخ الفلسفة :

Th. Gomrerz, Les Panseurs de la Grèce (2 vols).

مترجم عن الألمانية وله نسخة انجليزية بعنوان Greek Thinkers (ويمكن الرجوع إلى كتب تاريخ الفلسفة التى وضعها Zeller و Erdmann و Burnet و Brehier وغيرهم) ويوسف كرم فى تاريخ الفلسفة اليونانية ومقدمة سانتهلير لكتاب الكون والفساد لأرسطو وتوفيق الطويل فى كتاب « أسس الفلسفة » طبعة ثالثة .

الفصل الثالث

موقف الأكليروس من شريعة العقل

فى العصور الوسطى

تمهيد — التقاليد الممهدة لاضطهاد العقل — مسالمة العقل للكنيسة فى العصور المظلمة — بدء النزاع بين العقل والسلطة — أوربا بين الطابع الأفلاطونى والأرسطاطاليسى — موقف الأكليروس اليهودى من أرسطو — موقف الأكليروس المسيحى من أرسطو وشراحه من المسلمين — كلمة أخيرة

تمهيد :

حلق النظر العقلى فى جو الحرية الرحب أيام اليونان على ما عرفنا فى الفصل السالف — ولكن الشيخوخة قد أدركته فى أواخر عصرهم ، فخضع لسلطان دين فتى جديد نزل بأرضه ، واستبد بقلوب أهله . وآثر العقل الواهن حياة الأمن والهدوء ، واستطاب السلامة واتقى أسباب النزاع قرونا طوالا ، فلما دبت إليه اليقظة وعاوده النشاط ، تأهب — فى العصر المدرسى — لإعلان تمرده والجهر باستعداده للنزال ، فكان هذا بدء عهد جديد ، شهد صراعا دامياً آثما ، استشهد فيه الكثيرون من رواد الفكر الحديث ، على يد أصحاب السلطة من رجال الكهنوت .

وإذا كان النزاع الذى يعنينا فى هذا البحث ، لم يقع إلا بعد انقضاء نيف وعشرة قرون على قيام الدين إلى جانب العقل ، فمرد هذا إلى أن النزاع يتطلب اجتماع أمرين لا يكفى أحدهما لقيامة : سلطة فى يد رجال الكنيسة يمتنع بدونها كل اضطهاد ، يصاحبها عقل يتمرد على مألوف أحاطه بالقداسة أتباع السلطة . والقدرة على هذا التمرد والمروق هى الشاهد على يقظة العقل وجرأته معاً ، ومن أجل هذا عاشت المسيحية فى أوروبا فترة من الزمن ،

لاتملك الاضطهاد، لأن السلطة تعوز رجالها — فوق تغيب العقل الجرىء الناضج — ثم تهيأت السلطة لرجالها بعد قرونها الأولى، ولكنها لبثت زمانا طويلا لا تمارس اضطهاداً، ولا تطارد من أحرار الفكر أحداً، لأن العقل اليقظ الناضج الممتاز بجرأته، لم يكن قد وجد بعد. فلما بدت بشائر هذه اليقظة العقلية، وتجلت فى القرن الثانى عشر، مع قيام السلطة الأكليركية بدت فى الأفق بوادر هذا النزاع.

ولا يعنينا فى هذا البحث، أن نعرض لحياة العقل المطمئن المسالم، ولهذا كان المنتظر أن نتخطى العصر الذى هادن فيه العقل الدين — عصر الآباء وشطراً من العصر المدرسى — ولكنا مضطرون إلى الوقوف عنده قليلا، لنرى الجو الذى تنفسه أهله، ونقف على التقاليد التى توطدت فى ظله، والشرائع التى سنت على يد رجاله، وكانت أساس الصراع العنيف الذى أعقب هذا الوئام:

التقاليد الممهدة لاضطهاد العقل:

فرق لفنجستون بين التفكير الهيلينى والتفكير المسيحى من ناحية الوضع الدينى، فقرر أن الأول يستغنى عن حاجته إلى إله، وإن تطلع إلى الحياة المقبلة والعالم الروحى المحض، فان استبعدنا من التفكير اليونانى هذه الفكرة، لاحظنا أن اليونانى لايزال يعيش نفس الحياة التى كان يعيشها، فليست الدنيا كلها تأوها ونصبا وأنينا، إنه لم يكن فى انتظار مجد يتكشف له بعد هذه الحياة ويعوضه عن شرها خيراً، كان المجد الذى يطمع فيه حاضراً بالفعل أمامه، ففى استطاعته أن يعيش راضيا بحاضره، أما فى العالم المسيحى فقد كان على عكس هذا تماما، إنك إن استبعدت منه العالم المجهول غير المرئى، غيرت كل ما للحياة من معنى وقيمة .. اعلت صيحة العقل عند اليونان، ثم خبت وأخذ مكانها نداء الوحى فى العصور الوسطى، وفى ضوء هذه التفرقة تلتمس أسباب النزاع بين رجال الكهنوت ودعاة العقل.

قد أشرنا فيما أسلفنا إلى أن الاضطهاد الديني في أوربا ، قد بدأ يوم خرجت السياسة الرومانية على شريعتها في إطلاق الحرية الدينية لرعاياها ، وضنت بالتسامح على الدين المسيحي الجديد منذ ظهوره ، فكتب المشتغلون بالفلسفة من آباء الكنيسة في القرن الثاني دفاعات ذادوا بها عن دينهم ، وردوا فيها على حملات الوثنيين من خصومهم ، واستغلوا فيها أساليب الجدل الفلسفي الذي أخذوه عن اليونان ، وكانوا ينطوون على كراهية عميقة للمدنية الرومانية التي كانوا يعيشون في ظلها ، كما يشهد بهذا معاصرهم Tatian [1] . وكان المسيحيون في إبان القرنين الأولين طائفة منبوذة أعوزتها فيهما السلطة وأحاطها مقت المجتمع ، فأعلنوا مبدأ التسامح ، وصرحوا بأن المعتقد الديني أمر اختياري لاسبيل إلى إكراه الناس عليه ، فلما تمكن دينهم واستبد بقلوب الناس ، وأيدته الدولة بقوتها ، تنكروا لمبدأ التسامح ، وفرضوا رقابتهم على آراء الناس في الكون وظواهره وأسراره ، ثم شرعوا في وضع سياسة محددة لقهر الفكر وكبح العقل ، وسلم الأباطرة والحكومات بهذه النزعة ، لأسباب بعضها سياسية ، وأخذ المسيحيون يبشرون بنظرية مؤداها أن « الخلاص » لاسبيل إليه إلا عن طريق الكنيسة الكاثوليكية وحدها ، وروجوا للإيمان بأن الذين لا يستسلمون للكنيسة ، ويعتقدون بصحة نظرياتها تحيق بهم اللعنة الأبدية لا محالة ، فأفضى هذا الاعتقاد بطبيعة الحال إلى الاضطهاد والتنكيل بكل من جنح عما اعتمدته الكنيسة من آراء ، واعتبرت الهرطقة (الإلحاد) أعظم خطيئة ، لا يقاس مايبتلي به أصحابها في الدنيا من صنوف الآلام بما ينتظرهم من عذاب الجحيم ، وأضحى إنقاذ الدنيا من أعداء الله واجبا مقدسا ، والاتصاف بالفضيلة لاينهض عذرا للمروق ، فإن الطفل على براءته وخلو ساحته من كل خطيئة متى مات من غير تعميد ، قضى بقية حياته في جهنم ، فالطبيعي بعد هذا أن يستهدف المتهمون بالمروق من أهل الفكر لأشد صنوف العذاب ، فلنتتبع تطور هذه النظرة في الجو الكنسي :

---

(١) في كتابه A Discourse of the Greeks

كان اعتناق المسيحية فى القرن الثالث لا يزال محرما[١]، ولكن أهلها كانوا يعيشون فى أمن لاريب فيه، فشرعت الكنيسة تنظم نفسها فى هذا الجو الآمن دون تخف أو تستر، وتمكنت المجامع الإكليركية من تنظيم اجتماعاتها، دون أن تخشى تدخلا من السلطات[٢].

خلا تاريخ المسيحية فى قرونها الثلاثة الأولى من كل أثر لاضطهاد رسمى تنزله بخصومها، لأن السلطة تعوز رجالها، بل بشر آباؤها الأول بمبدأ التسامح، وصرح أمثال أوريجان Origen (٢٥٤ ؟) ولاكتانتيوس Lactantius[٣] (+ ٣٤٠ ؟) برفضهم لفكرة الاضطهاد.

والواقع أن الأصل فى المسيحية أنها تدعو الناس إلى أن يُحب بعضهم بعضاً، ومن هنا جاء نفور رجالها الأول من عقوبة الإعدام، وكان تحريم ترتليان Tertullian ولاكتانتيوس إقدام المسيحى على قتل رفيقه، أياكانت ظروف هذا القتل، وكانت الهيئات الدينية كلما سلمت مذنباً للسلطات المدنية، توسلت إليها ألا تلجأ إلى إعدامه، ولكن الكنيسة حين بدأت تظفر بالسلطان، قد غيرت سنن شريعتها على نحو ما سنعرف بعد قليل.

وفى مطلع القرن الرابع انتهى الاضطهاد بصدور مرسوم عام ٣١١ م يقضى بالتسامح؛ ثم أصدر قسطنطين فرمان ميلان، الذى أعلن فيه نفس المبدأ الذى يقضى بالتسامح، واعتنق المسيحية بعد عشر سنوات من صدور هذا الفرمان — عام ٣٢٣ م — فبدأت بهذا القرار الخطير، عشرة قرون شداد، استُعبد فيها العقل الأوربى، ووقف تقدم المعرفة، فسنت القوانين لمحاربة

(١) فى عهد تراجان وضع المبدأ الذى يقول: إن اعتناق المسيحية إثم عقوبته الاعدام ولكن الأباطرة قد نزعوا إلى استئصال المسيحية دون إهراق الدماء، وحالات الاعدام التى عرفت فى القرن التالى، أدى إليها بوجه عام تعصب الدهماء.

(٢) ولكن المسيحيين استندوا إلى حالات إعدام قليلة واخترعوا أسطورة صوروا فيها فظاعة الأباطرة وروعة الاستشهاد من أجل الدين، فيما يقرر الأستاذ بيورى الذى يلتمس الأعذار للأباطرة فى اضطهاد معتنقى المسيحية. !

(٣) يسمى شيشرون المسيحى.

الهرطقة والتشكيل بدعاتها ، فى عهد فالنتنيان الأول Valentinian (فى النصف الثانى من القرن الرابع) وتيودوسيوس الأول Theodosius I. (+ ٣٩٥ م) فاستهدف الملحدون للنفى وسلبوا حقهم فى الوراثة ، وتعرضت أملاكهم للمصادرة ، وأضحوا عرضة للإعدام فى بعض الحالات ، وبدأ الإعدام فى نهاية هذا القرن (عام ٣٨٥ م) عندما أدين الملحد الأسبانى « بريسيليان » Priscillian وأعدم بأمر الإمبراطور ماكسيموس Maximus ، فأثار إعدامه جدلا عنيفاً ، وغضب لهذا بعض القديسين من أمثال القديس مارتن (من أهل تور) رغم حماسته فى تحطيم تماثيل الوثنيين ، والقديس امبروز رغم نشاطه فى قمع عبادة الوثنيين واليهود ، واحتج هؤلاء على القساوسة الذين تسببوا فى إعدامه ، وطالب القديس Chrysostom بإباحة حرية الكلام ، والإذن للهراطقة بتنظيم مجالسهم ، وصرح بأن إعدام الملحد إقرار بارتكاب جريمة لا سبيل إلى غفرانها أو التكفير عنها .

وفى النصف الثانى من القرن الرابع ظهر عاملان كان لهما خطرهما فى تأييد سياسة الاضطهاد : أولهما أن الكثير من مجالس الأكليروس قد طلب إلى السلطات المدنية معاقبة الهراطقة أو نفيهم ، وكان لقراراتها أثرها الملحوظ فى مسلك الحكومة إزاءهم ؛ وثانيهما استقرار نظام الرهبنة ونموه ، وقد دعت الرهبنة إلى إنكار الذات ورفض الترف والتحرر من المطامع والأهواء واحتقار الرغبات واللذات ، والاعتصام بالتعصب الصارم والشجاعة المجيدة والميل إلى تعذيب الجسم رغبة فى التكفير عن الخطايا . . . والرهبان هم الذين حطموا تماثيل الوثنيين وأبطلوا عباداتهم فى الامبراطورية الرومانية ، وانتهى هذا بشيوع الروح الدينى وخلوا العالم المسيحى من مظاهر الاضطهاد عدة قرون .

وفى مطلع القرن التالى تمكن نظام الاضطهاد على يد القديس أوغسطين + ٤٣٠ أوسع آباء الكنيسة نفوذاً وأعلاهم صوتاً ، إذ كادت تجتمع عند شروحه للنصوص المقدسة كلمة الذين عرضوا لتفسيرها بعد ، والاستشهاد به كثيراً ما يكون فصل الخطاب ومحك الصواب ، لأن أقواله قد ارتفعت

بعده إلى مرتبة القداسة ، بهذه الصولة صاغ أوغسطين مبدأ الاضطهاد لهداية الأجيال التالية ، وأقامه على أساس من الكتاب المقدس ، فاستند إلى كلمات فاه بها يسوع المسيح فى مثل من أمثاله التى كان يسوقها لحوارييه إذ قال: « أجبروهم على اعتناق دينكم »[1] ومضت الكنيسة بعد هذا محاربة خصومها.

وتمشيا مع هذا المنطق سلم « أوغسطين » بمعاقبة الملحد بالنفى والجلد وفرض الغرامات ، ووضع للكنيسة دستورا تلتزمه إزاء كل حركة عقلية ، فصرح فى كتابه « تعليقات على سفر التكوين » بأن ليس فى الوسع التسليم برأى لا تؤيده الكتب المقدسة ، لأن سلطانها أقوى من كل سلطان أمر به العقل البشرى "Major est scripturae anctorites quam amonis humaini ingenii capucitas".

فمضت الكنيسة بعده تعمل جاهدة لقمع الهرطقة وجندلة دعاتها ، وكان لموقف هذا القديس أبلغ الآثار فى عرقلة النظر العقلى ووقف التقدم العلمى ، كما ستعرف بعد[2] ومنذ هذا الوقت أصبح الكتاب المقدس أساس العلم ومصدره .

وبعد ممات هذا القديس ببضع عشرات من السنين ، صدرت — بأمر قسيس روما — أول قائمة بالكتب التى حرمت قراءتها على المؤمنين وهى :

„Notitia Libororium apocryhorium qm non recipiuntr"

وتولى البابا Gelasius تنقيحها (عام ٤٩٤ م) فى عدة مناسبات .

---

(١) ذكرها بيورى Bury فى كتابه السالف الذكر ص ٥٥ ونصها : Compell them to enter وذكرت فى مقدمة كتاب F. Ruffini, Religious Liberty وهى باللاتينية Compelle intrare

(٢) ومن طريف المفارقات أن ينال رب الاضطهاد ثمرة غرس يده ، ويتجرع من الكأس التى أعدها لغيره ، فيظهر بعد مماته بأحد عشر قرنا لاهوتى يسوعى (Suarez) يضيق بموقف القديس أوغسطين من الخلق وعدم التزامه للمعنى الحرفى للنصوص المقدسة ، فيعلن اتهامه بالهرطقة ! . . وقد لخصنا موقفه عن « وايت » و « بيورى » وقد دلل على هذا الموقف « درابر » فعرض فى كتابه مختارات من « اعترافاته » فى دراسته لسفر التكوين ، أدت إلى جعل اللاهوت فى عداء مع العلم (انظر ص ٥٨ وما بعدها من كتابه) .

وفى إبان هذه الفترة (٤٧٦ م) قوض البرابرة الدولة الرومانية الغربية ، فزادوا الحياة العقلية اضمحلالا ، ومكنوا للجهالة وكادوا يقضون على ما كان معروفا من تراث اليونان ، وعندما أقبل القرن التالى — السادس — كانت الجامعات تشرف على الاحتضار ، وكان جستنيان يضطهد الوثنية ويطارد أتباعها ، فأصدر أمره عام ٥٢٩ م باغلاق مدارس الفلسفة جميعا ، وتوارت من الوجود جامعة أثينا ، وإن بقى تراثها فى ذمة التاريخ . وإغلاق هذه المدارس — مع اضمحلالها — دون العمل على إحيائها ، وانعاش الدراسات العلمية بها ، شاهد ينهض للتدليل على عداء الروح المسيحى للعلم والفلسفة منذ قيام الدين الجديد . فقد كان بعض القدماء من رجاله — أمثال ترتليان — لا يقنعون بالجهر بأن إيمانهم مجرد من كل صبغة فلسفية ، بل يكادون أن يفاخروا بذلك ، وعلى الرغم من استغلالهم الجدل الفلسفى فى رد حملات خصومهم ، وتشبع بعضهم — كالقديس أوغسطين — بالأفلاطونية والأفلاطونية المحدثة وغيرها مما يساير الروح الدينى ، فان موقف المسيحية إزاء العلم والفلسفة كان موقف احتقار صريح فيما يقول ولف A. Wolf

وقد تجلى هذا العداء فى الشرق كذلك — فيما يقول درابر — ففى عام ٣٩٠م حطم إحدى مكاتب الاسكندرية أحد المطارنة وهو تيوفيل Theophilus وبعد قرن كامل وقع حادث وحشى مفزع ، ذلك أن « هيباتيا » Hypatia ابنة الفلكى طيون Theon كانت من المشتغلات بتعليم الرياضة والفلسفة ، وعرض مذهب أفلاطون وأرسطو بوجه خاص . وكانت قاعة درسها تكتظ بأثرياء الاسكندرية وأكابرها ، كانوا يختلفون إلى قاعتها ليستمعوا إليها وهى تبحث فى هذه الموضوعات التى أثارت الجدل منذ زمان على غير طائل : من أنا وأين مصيرى ، وماذا فى استطاعتى أن أعرف ؟ فضاق بهذا القديس سيريل Cyril وهو ابن أخت تيوفيل الذى أسلفنا ذكره ، فأثار عليها الشعب بتعصبه ، فتربص بها بعض الدهماء من المسيحيين وانقضوا عليها وهى فى طريقها إلى قاعة درسها وجردوها من ثيابها وحملوها إلى كنيسة ثم مزقوا

جسمها إربا إربا ، وجردوا اللحم عن العظم وألقوا ما بقى منها إلى النار ! ويقول درابر Draper إن سيريل لم يسأل عما فعل ، وكانت الغاية مبررة لأبشع الوسائل .

ومضت الكنيسة فى هذا التيار ، حتى إذا انتصف القرن الحادى عشر ، طالب القديس Theodiwin of Liége باستخدام السلاح الدنيوى فى معاقبة الملحدين ، وفى القرن التالى احتج بطرس المغنى على عقوبة الاعدام ، وأبى التسليم بغير السجن على أكثر تقدير ، ثم اتفق البابا لوكيوس الثالث Locius III. وفردريك برباروسا — عام ١١٨٤ م — على مطاردة الملحدين ، ونفيهم ومصادرة أملاكهم وهدم بيوتهم وسلب حقوقهم المدنية . ثم أصدر بطرس الثانى ، عام ١١٩٧ قراراً باحراق الملحدين إذا لم يغادروا مملكته — أراجون — فى مدة محددة ، وقوى البابا انوسنت الثالث حركة الاضطهاد ، فنجح فى عام ١١٩٨ فى حشد الأمراء — الدنيويين — لمعاونة الكنيسة فى التنكيل بخصومها ، وأقر محاكم التفتيش عام ١٢٠٨ ، فنهضت بأداء مهمتها الآثمة على النحو الذى عرفناه فى الفصل الأول ، وهو مع خلفائه الذين رسموا خطة منظمة لسحق الملحدين واستبعادهم من العالم المسيحى ، وفى عام ١٢٠٩ بدأ دى مونفورت فى مذبحة الألبيين ، وفى عام ١٢١٥ طلب مجلس لاتران الرابع إلى جميع الحكام أن يقسموا غير حانثين أن يبذلوا أقصى مافى وسعهم لاستئصال الهرطقة فى أقاليمهم وإبادة أهلها فى غير رفق ولا رحمة .

حسبنا هذا إشارة مقتضبة لوجهات النظر التى أدت بعدُ إلى الحد من طلاقة العقل والتضييق على التفكير الحر ، ولنعرض لموقف العقل إبان هذه العصور .

مسالمة العقل للكنيسة فى العصور المظلمة :

منذ تهيأ للكنيسة هذا الحول والطول ، والعقل الأوربى على شفا الاحتضار ، يعوزه الإبداع وتنقصه أصالة التفكير ، فيردد بعض ما انحدر

إليه من تراث القدامى ، منساقا فى ركاب الكنيسة ، يسبح بحمدها ويكبر لسلطانها ، ويبشر بتعاليمها ، فلبث الجو بينهما على صفاء ، حتى دنت فيه اليقظة وواتاه النضج ، واستشعر الضيق لاستعباد الكنيسة له ، وتأهب للتمرد على سلطانها ، فآذن هذا التغيير باكفهرار الجو وتوتر العلاقات ، فلنفسر هذا قليلا :

كان بعض آباء الكنيسة يشتغلون بالفلسفة قبل اعتناقهم الدين الجديد ، فاتجهوا منذ العصور الأولى إلى استغلال الفلسفة لخدمة الدين وتأييد عقائده ، وإذا كان النظر العقلى عند اليونان قد تحرر من كل قيد ، لأن اللذة العقلية كانت جماع بواعثه ، واكتشاف الحقيقة كان أقصى غاياته ، وإذا كان الرومان قد احتضنوا هذا النظر لخدمة الأغراض العملية ، فأن مفكرى المسيحية منذ عصورها الأولى قد جنحوا إلى رفض هاتين النزعتين ، فاعتبروا نزعة اليونان ترفا لا طائل تحته ، ونزعة الرومان حرصاً على الدنيا التى بشرت المسيحية بالاستخفاف بها إيثاراً للأخرى ، ومن أجل هذا وجهوا نشاط العقل إلى خدمة الدين ، فسلك المتفلسفة فى أوربا المسيحية مسلك المتكلمين فى الإسلام ، أقاموا منهج البحث على أساس البدء بالاعتقاد بصحة ما نزل به الوحى ، ثم استخدام العقل فى محاولة تأييده والبرهنة على صحته ، على عكس ما يقضى به منهج البحث عند الفلاسفة والعلماء معاً ، من عدم التسليم برأى ما ، إلا بعد إقامة البرهان على صحته بالنظر العقلى الحر ، أو الاختبار التجريبى ، وعند هذا المنهج الكلامى انعقد الرأى عند فلاسفة العصور الوسطى — من أفلاطونيين كأوغسطين وأنسلم ، وأرسطاطاليسيين كألبير الكبير وتوما الأكوينى — وفى هذا يقول چانيه وسياى : إن الفلسفة منذ عصور المسيحية الأولى كانت متضمنة فى تكوين العقيدة الدينية . وقد جد الفلاسفة فى العصور الوسطى فى التوفيق بين العقل والايمان ، لكى يجعلوا سلطة العلم القديم وسلطة الدين الجديد على وفاق واتساق ، وكانوا ينزعون إلى البرهنة على أن الحقائق التى نزل بها الوحى الإلهى ، تساير منطق العقل ، ومن ثم تكون

قوانين المادة والعقل وطبيعة الانسان وقوانين منطقه متضمنة كلها فى المسيحية، وكان هذا مطمع كبار المفكرين فى هذه العصور ، فالقديس أنسلم (+ ١١٠٩) — كبير الأفلاطونيين فى العصر المدرسى — يرى أن الإيمان ضرورى للعقل ، بل شرط لصحة التفكير وسلامته ، والقديس توما + ١٢٧٤ — كبير المشائين وزعيم اللاهوتيين فى هذا العصر — يذهب إلى التمييز بين مجال العقل وميدان الايمان ، ويجعل وظيفة العقل تهيئة الطريق إلى الإيمان وإرشاد الناس إليه ، ويقرر أن الحقائق التى يقدمها الإيمان لا يقوى العقل على التدليل عليها ، ففى استطاعة العقل أن يتصور وحدة ماهية الله Essence ولكنه لا يستطيع أن يدرك تثليث الأقانيم ، ومن دلل على عقيدة التثليث فى الأقانيم حقر من شأن الإيمان .

ورأى أن الفلسفة تمتاز من الدين فى المنهج كذلك ، إن منهجها يقوم على البرهان العقلى ، ومنهج الدين يستند إلى الوحى الالهى . ولكن القديس توما مع اقراره بهذا التمايز قد عالج التوفيق بينهما ، وإن أوجب على العقل أن يتقيد بالوحى ، لأن تجاوزه نطاق الوحى دليل على فساد تفكيره .

وإذا كان العقل لا يقوى على التمكين لحقائق الايمان ، ففى وسعه أن يدحض الاعتراضات التى توجه إليها ، وقد بدا « توما » فى فترة من الزمن ، وكأنه نجح فى التوفيق بين العقل والايمان ، ولكن وليام أوكام W.Occam باعث المذهب الاسمى فى القرن الرابع عشر — قد أعلن أن كل ما كان وراء التجربة ، لايدخل نطاق العقل ، ومن ثم يكون موضوعا للايمان[1] ومن هذا نلاحظ ما أسلفناه من قبل ، من أن محاولة التوفيق بين العقل والايمان — عند فلاسفة العصور الوسطى — كانت تقوم على إخضاع الأول للثانى ، وتسخيره لخدمة الحقائق التى نزل بها الوحى ، لا لبحثها وتعرف وجه الحق فيها .

---

(١) P. Janet et G. Sèailles : L'Histoire des Problèmes de la Philosophie
وقد نشر هنرى جونس أستاذ الفلسفة الخلقية فى جامعة جلاسجو ترجمة انجليزية للشطر الأول من الكتاب فى جزءين ترجمهما إدا موناهان . والفقرة المقتبسة ص ٩ — ١٠ فى النسخة الانجليزية . واقرأ هذا الموضوع فى كتابنا أسس الفلسفة .

وهكذا انصبت الدراسات الفلسفية فى شتى صورها فى قوالب لاهوتية محضة ، وحتى العلوم الطبيعية — وكانت مذابة فى الفلسفة — كانت فيما يقول وايت موضع استخفاف ، مالم تسخر لإقرار ماجاءت به الكتب المقدسة . وغاية البحث عند أهلها هى الكشف عن جلال الله ، وروعة حكمته البادية فى هذه الخليقة ، وكانت النصوص المقدسة مصدر التفكير فى العالم الطبيعى ، أكثر من عشرة قرون من الزمان ، ووجه الطرافة فى هذا استمرار هذه النزعة وتجاوزها العالم الكاثوليكى فيما بعد إلى البروتستانت الذين انشقوا على الكنيسة الكاثوليكية ، وهذا يفسر لنا استخفاف الكنيسة الأولى بعلم الهيئة ، إذا لم يحقق غرضا دينيا ، وفى موقف القديس أوغسطين منه ، شاهد عدل على مانقول . وسرعان ما اتصل الدين بموضوع العلم والفلسفة ، فاتصلت فكرة الخلق بنظرية الفداء فى المسيحية ، وأفضى هذا إلى استبعاد علم طبقات الأرض ، وعلم الحيوان وعلم الانسان من ميادين البحث الحر واعتبرت الحقيقة متضمنة فى ظاهر النصوص المقدسة ، وتكفل تفسيرها بهداية الناس إلى وجه الحق فيما يبحثون ، فأدى هذا إلى الأخطاء الجسيمة التى سنعرض لبيانها فى الفصول التالية .

على أن من الإنصاف أن نقول مع « بيورى » إن الأوضاع الاجتماعيـة فى العصر الوسيط كانت لا تلائم الروح العلمى الذى ينزع إلى اكتشاف الحقيقة لذاتها ، ولم يكن من المعقول أن يبعث العلم من جديد لو ظلت هـذه الأوضاع الاجتماعية قائمة حتى القرن الثالث عشر وما بعده . ومعنى هـذا أن العقائد التى كانت سائدة فى المدة التى تفصل الحضارة الحديثة عن الحضارة القديمة ، لم تكن السبب فى إعاقة إحياء العلم وابتعاثه ، وكل ما تحمله هذه العقائد من تبعات إنما يقوم فى العوائق التى أقامتها فى وجه العلم حين هم بالانبعاث والظهور من جديد .

بدء النزاع بين العقل والسلطة :

هذا هو الجو الذى عاش فيه العقل الأوربى إبان عصر الآباء ، وشطراً من العصر المدرسى . فلما أقبل القرن الثانى عشر ، أفاقت أوربا المستغرقة فى سباتها الآمن ، على دعوة جديدة لا تساير روح العصر ، نادى بها «أبيلارد» وطالب فيها بتحرير العقل من كل قيد ، واعتباره الحكم الذى يفصل فى كل رأى ، ويعرض بالمناقشة الحرة حتى لحقائق الوحى المنزل ، وتعاليم الكنيسة المقدسة .. ! وبهذا أقام البحث اللاهوتى على أساس من منطق العقل ، ورفض كل ما لا يتمشى مع منطق دعوته ، فسخر من آلام المسيح لقاء رحمة الله وغفرانه ، وعزا تألمه إلى حبه لله ورغبته فى أن يرد الناس إلى طاعته والاعتراف بجميله ، وتمادى فوضع كتابه « نعم ولا Sic et Non وعرض فيه بآباء الكنيسة . ! وعرض إلى عقيدة التثليث فى الأقاليم ، فأولها تأويلا يساير منطق العقل ، وهال رجال الدين ما رأوه من كلف الناس بدعوته ، وتهافتهم على الاستماع لمحاضراته ، فتصدوا لمقاومته . واضطلع القديس برنارد St. Bernard of Clairvaux باثارة الرأى العام فى وجهه ، وكان هذا القديس يستلهم الانجيل فى دفاعه ، وينساق فى خصومته بوقدة الايمان الذى كان يعمر قلبه ، فأذعن للنهج الدينى وأعلن أن الحقيقة الالهية لا يتكشف عنها عقل ولا ظن ، وإنما تصدر عن الوحى الذى يهدى العقل سواء السبيل ، فاتهم أبيلارد بالهرطقة وانعقد لمحاكمته مجمع سواسون Soisson عام ١١٢١ ، وأدان المجمع رأيه وقرر إحراق كتابه — الذى تناول فيه عقيدة التثليث ، واستدعى أبيلارد وأكره على إلقائه فى النار بيده ، ثم سجن فى دير St Médard فى سواسون . ولكنه عاد إلى مواصلة بحثه فى حدود منهجه العقلى ، ونجح القديس برنارد فى عقد مجلس لمحاكمته فى Sens عام ١٩٤١ ، نخف أبيلارد إلى روما مستنجداً بالبابا ، ولكن خصمه قد كشف عما تتضمنه آراؤه من بدع ، وتمكن — فى العام التالى — من استصدار قرار بإدانته ، ووافق البابا على حرمه مع تعاليمه ، وإلزامه الصمت بعد ذلك .

لقى أبيلارد عنتاً كثيراً ، ولكنه لفت العالم الأوربى إلى نداء العقل ، ومهد الطريق لسلطان أرسطو الذى علا بعد مماته بنحو نصف قرن من الزمان ، ولكن قصة غرامه مع هيلوئيز قد فتنت العالم وصرفته عن فلسفته ، فلبث مجهولا حتى كشف عنه كوزان Cousin عام ١٨٣٦ حين نشر «Ouvrages inédit d'Abelard» « آثار غير معروفة لأبيلارد »

هذا ما لقيه أول من دعا لتحكيم العقل فى أوربا ، فجرت الفلسفة فى عصرها الحديث على دعوته ، وفى القرن التالى ، نهضت فى أوربا دعوة جديدة لم تكن مألوفة عند أهلها ، هى الاتجاه إلى التجربة ، واستقاء العلم من معينها ، وعدم الركون إلى الكتب والمراجع[1] وفى ضوء هذه الدعوة جرى العلم الطبيعى فى عصرنا الحديث ، أما صاحب هذا الاتجاه الجديد فهو روجر بيكون + ١٢٩٢ وهو راهب فرنشسكانى صبغ عقله من روح عصره ، ولكن له لفتات سبقت زمانه ، منها الثورة على الجهل والتمرد على تحكم السلطات والدعوة إلى التجربة العلمية ، وقد أفضت به دراسته للغة العربية إلى الإعجاب بتراث أهلها ، والنفور من طريقة الجدل الأرسطاطاليسية ومهاجمة الاعتماد على التأمل العقلى وحده ، وبهذا أبطل المنهج النظرى ونزع إلى الاحتكام إلى التجربة فى كل معرفة نستقيها من الطبيعة ، واهتدى إلى الكثير من المخترعات وعرف الروح العلمى الصحيح ومال إلى الكشف عن مغالطات السحرة وأضاليلهم واشتد فى حملاته على معاصريه من الفرنشسكان.

(١) جدة الدعوة ملحوظ فيها الزمن الذى قيلت فيه ، وإلا فقد عرفت من قديم الزمان ، فأرسطو على وجه أخص ، قد دعا إليها ومارسها ، قال فى كتاب السياسة : « لا ينبغى أن يطلب الضبط من الاعتبارات النظرية المجردة بقدر ما يكون فى مشاهدات الحوادث الواقعة تحت الحس » . وقال أيضا : « وهنا كما فى كل موطن آخر ، الصعود إلى مبدأ الأشياء والعناية بتتبع تطورها هو آمن طريق للمشاهدة » . ومن هنا اعتبره إمام الفلسفة الوضعية « أوجست كونت » أول من بدأ بنقل التفكير الفلسفى من طوره الميتافيزيقى إلى طوره الوضعى . فيما قرر فى الجزء الأول من دروسه فى الفلسفة الوضعية وفيما أشار أحمد لطفى السيد فى تصديره للاخلاق ص ١٧ بل إنه لا يكتفى بإيثار الاعتماد على الحواس أكثر من الاعتماد على الاستنتاج ، بل قرر عدم الثقة بالاستنتاجات إلا متى طابقت الحقائق الملاحظة ، لأنه أوجب التحقق من صدق الفروض بالرجوع إلى هذه الحقائق ، وقيل إن فى كتبه لفتات منثورة جمعت مبادئ المنطق الاستقرائى الحديث كله !! انظر كتابنا : أسس الفلسفة .

اولدومينكان والعلمانيين على السواء ، فاتهم بزاولة السحر ، وانعقد مجمع فرنشسكانى وقرر « حرم » كتاباته مع حبسه فى غرفته ، فلبث سجينا من عام ١٢٧٧ إلى ١٢٩٢ م . وبمماته كادت تموت دعوته إلى التجربة ، حتى إذا أقبل عصر النهضة وأشرف العصر الحديث ، استيقظت حماسة الترويج لها فى رواد الفكر الحديث ولا سيما خلفه وسميه فى الاسم : فرنسيس بيكون على نحو ماسنعرف بعد .

على أن روجر رغم هذه اللفتات الطيبة — لم يكن إلا نتاج عصره ، لا رائداً لحرية التفكير ، ولا ثائراً على الروح المدرسى كله — فيما يقول D. A. Sharp لا يتردد فى الاعتقاد بحجر الفلاسفة والايمان بعلم النجامة . ! ولهذا قال عنه فولتير : ذهب وقد رانت عليه جميع أقذار عصره . .

أما عن موقف الكنيسة من أرسطو إبان العصر المدرسى — فلا ينبغى أن نمر به دون أن نقف عنده وأن نطيل الوقوف قليلا . لأن الكنيسة قد اعتنقت أرسطو — الذى بدا بعد مسيحياً — مذهبا رسمياً لها ، وأقامت على هذا منذ ذلك العصر حتى يومنا الراهن ، وترتبت على هذا آثار لها خطرها الملحوظ فى تاريخ النزاع بين الدين والفلسفة .

أوربا بين الطابع الأفلاطونى والأرسطاطاليسى :

منذ عصور المسيحية الأولى والفلسفة موضع نفور عند بعض المسيحيين ، تولوا منذ القرن الثانى مناهضة الاشتغال بها ، وإثارة الرأى العام ضد أهلها ، وآتت دعوتهم ثمرها حتى علت راية العقل حديثا وطمست نفوذ هؤلاء الخصوم ، ولكن تاريخ الفكر قد سجل إلى جانب هذا التيار تياراً مضاداً بدا عند آباء الكنيسة الذين كانوا يشتغلون بالفلسفة قبل اعتناقهم الدين الجديد ، فواصلوا الانتصار لها ، واستغلال أساليبها ومذاهبها فى تأييد العقيدة الدينية والتمكين لتعاليمها ، ومقاومة الوثنية وحملات رجالها ، وكانت الأفلاطونية — القديمة والمحدثة — أكبر عون لهم فى هذا الجهاد الدينى ، وانتصر هذا

الاتجاه فى العالم الأوربى منذ عصور المسيحية الأولى ، وكان مرد الانتصار إلى انطواء الأفلاطونية على نزعات روحية لاتبدو فى غيرها من المذاهب على هذا النحو من الوضوح ، وهى نزعات تيسر قبول المسيحية ، وتمهد للتوفيق بين الدين والفلسفة ، وقد كان علم هذا الاتجاه القديس أوغسطين (+ ٤٣٠) الذى طبع التفكير الأوربى بطابعه الأفلاطونى حتى القرن الثانى عشر . وهكذا جهل العالم الأوربى تراث أرسطو منذ بداية المسيحية ، بل انصرف عن دراسته باعتباره طبيعياً ملحداً ، وإن سلم بما عرف من مباحثه فى المنطق منذ القرن الخامس والسادس للميلاد[١] . ولبث العالم الأوربى على هذا حتى أقبل القرن الثانى عشر وانتقل إليه تراث أرسطو فى الطبيعة والأخلاق والميتافيزيقا وعلم النفس ، وذلك حين اجتاحت قوات ألفونس السادس — أمير قشتالة — مدينة طليطلة عام ١٠٨٥ م[٢] . وأنشأ المونسنيير ريموند Raymund كبير أساقفة المدينة — بين سنتى ١١٣٠ — ١١٥٠ م — ديوانا لترجمة الكتب العربية فى الفلسفة ، على يد مترجمين من اليهود ، وأمر رئيس الشمامسة السالف الذكر دومنيك جنديز الفس D. Gundisalvus أرشيدوق سيجوفيا[٣] ويوحنا أفنديث الأشبيلى Juan Avendeath بترجمة التراث الفلسفى الإسلامى ولا سيما ما خلفه ابن سينا ، ثم تكفل الديوان بعد هذا بترجمة الفارابى والكندى ، على النصف الأول من القرن الثالث عشر تولى ميخائيل الأيقوصى Micheal the Scot ومن حذا حذوه ترجمة تراث الشارح

---

(١) يقول جيوم إن أحدا من أهل الغرب لم يخطر له أن أرسطو كان فيلسوفا حتى جاء زمن جنديزالفس ، وكانت ترجمة Boethius للمقولات والعبارة وأبحاثه فى المنطق كل ما بلغ أوربا من علم أرسطو حتى عام ١١٥٠ تقريبا (تراث الاسلام ص ٢٣٩ فى ترجمتنا للفلسفة والالهيات) .

(٢) وسرعان ما اصطبغ بلاطه المسيحى اسما بالثقافة الاسلامية ، فأعلن نفسه « امبراطور العقيدتين » وحج إلى طليطلة طلاب العلم من كل أنحاء أوروبا وأضحت طليطلة مدرسة لترجمة اللغات الشرقية كما يقول J. B. Trand فى مقاله عن أسبانيا والبرتغال فى « تراث الاسلام » وراحت مكتبة مسجدها مثابة للعلماء فيما يقول ايرنست باركر E. Barker فى مقاله عن الحروب الصليبية فى الكتاب السالف .

(٣) انظر The Legacy of Israel ص ٢٥٤ — ٢٥٦ .

الأعظم ابن رشد تحت رعاية الامبراطور فردريك الثانى الذى اتصل بالعالم الإسلامى فى حروبه الصليبية ، ومهر فى العربية واستخفه الإعجاب بفلاسفتها ، فتاق لنقل تراثهم إلى اللاتينية والعبرية . وعلى هذا النحو عرفت أوربا فلسفة أرسطو منقولة إلى اللاتينية عن كتب شراحه ومفسريه من المسلمين ، واستطاع مفكرو أسبانيا أن يقدموا للغرب تراثه قبل أن تنتعش فيه الدراسات الإغريقية بعدة قرون ، وأضحت ترجمتهم مرجعاً للعلم فى القرن الثالث عشر .

وقد انتقل أرسطو إلى أوربا عن غير أسبانيا ، لأن الحروب الصليبية حين ربطت المسيحية اللاتينية بالدولة البيزنطية والمسيحية اليونانية — فوق ربطها بالشرق الإسلامى — قام وليم الموربيكى W. of Moerbeke — بطريق كورنثة الفلمنكى وزميله هنرى البربنتى Henry of Brabant — بنقل كتابى الأخلاق والسياسة لأرسطو بمساعدة القديس توما — فى القرن الثالث عشر — وفى نهاية القرن الرابع عشر ، وفى خلال القرن التالى له حمل علماء بيزنطة إلى إيطاليا التراث اليونانى كاملا وغذوا به النهضة الإيطالية ، فيما يقول ابرنست باركر .

وعلى هذا النحو استحوذت أوربا على خلاصة الفلسفة الأرسطاطاليسية ، أى على دائرة المعارف القديمة ، وما اتصل تراثه بأوربا حتى ضاق به رجال الأكليروس ، لأن اسمه كان لا يزال موصوما بالإلحاد وكان مذهبه فى نظرهم لا يساير تعاليم الكتاب ، وعندئذ جد رجال الأكليروس فى مقاومة آرائه الطبيعية والميتافيزيقية ، إذ لم يكن ثمة مسيحى مؤمن ، يرضى عن رأيه فى الله وصفاته وموقفه من العالم وخلود النفس ونحو ذلك .

ولكن بعض المتفلسفة من المسيحيين قد جدوا فى التوفيق بين مذهبه وتعاليم الكتاب ، ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى تكفل ألبير الكبير Albertus Magnus + ١٢٨٠ والقديس توما الأكوينى St. Thomas Acquinas + ١٢٧٤ بالانتصار لتراثه وإبدائه فى صورة مسيحية عقلية ، ضاقت بها الكنيسة أول الأمر ثم رضيت عنها واعتمدت القديس توما مذهباً لها ،

فانحصرت فى أرسطو بعد هذا فلسفة المدرسيين ، واعتنقه العالم الكاثوليكى ديناً إلى جانب دينه ، أو اعتبره صورة عقلية لدينه المنزل ، فاتهم بالإلحاد كل من خرج على ما اعتمدته الكنيسة من آرائه ، فكانت هذه هى « السلطة العلمية » التى يتحدث عنها مؤرخو الفلسفة كثيراً ، وأخص ما يميزها تقييد المفكرين بما قال أرسطو ، وسخط الكنيسة — والعالم الأوربى من ورائها — عمن ينتهى إلى غير ما قرر من رأى ، ومطاردة الذين يبشرون بفكرة لم ترد فى تراثه ، أو لا تكون على الاتفاق مع ما ارتأى من قبل ، وسوف نرى فيما يلى من بحثنا أهم الآثار الخطيرة التى ترتبت على هذه السلطة العقلية ، وكان لها أكبر الخطر فى تاريخ النزاع بين الدين والفلسفة .

موقف الأكليروس اليهودى من أرسطو :

حمل اليونان مشعل الفلسفة عدة قرون من الزمان ، ثم خبا النور فى أوربا منذ عصور المسيحية الأولى ، فحمل المسلمون القبس فى العصر الوسيط ، ثم سلموه إلى بنى إسرائيل ، وسلمه هؤلاء بدورهم إلى المسيحيين فى أوربا إبان العصر المدرسى ، فلنتحدث فى إيجاز عن موقف الأكليروس اليهودى من أرسطو ، ثم نعقب عليه بالحديث عن موقف الأكليروس المسيحى :

مثل ابن ميمون فى اليهودية دور القديس توما فى المسيحية ، وابن رشد فى الإسلام ، من حيث محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة ، وانتهى إلى القول بأن العالم غير قديم ، وأول ما ورد فى سفر التكوين بشأن الخلق ، فقال إن المراد ترتيب الكائنات بعد خلقها ، وصرح مع هذا بأن القول بقدم المادة لا يعتبر كفراً ومضى فى هذا الاتجاه طويلا ، فاتهم بالكفر والتعطيل — فيما يقول المقريزى — وأخذ الاكليروس اليهودى فى مقاومة فلسفته واضطهاد أشياعها ، فاضطر الكثيرون منهم إلى مغادرة الأندلس والانصراف عن العربية ، ونقل ابن رشد ومن إليه إلى العبرية واللاتينية ، وتولى فردريك الثانى تشجيع هذه الحركة ورعاية رجالها ، ولكن هذه النهضة قد تكشفت عن

آراء لا تساير الشريعة اليهودية من استحالة الخلق من عدم، وقدم المادة ونحوها مما حاول فلاسفة اليهود أن يؤولوا الشريعة بحيث تساير هذه المذاهب الفلسفية، أى أنهم حاولوا — كفلاسفة، وعلى عكس ما يفعل المتكلمون — إخضاع الدين للفلسفة فى عملية التوفيق — وهو منهج ابن رشد ومن اليه من فلاسفة الإسلام. ثم أخذت الفلسفة اليهودية فى الاضمحلال منذ القرن الخامس عشر وأخذ ساعد الأكليروس اليهودى يشتد ويقوى، حتى إذا أقبل القرن السادس عشر اشتدت حملته على الفلسفة، واستعان فى مقاومتها بالغزالى الذى اشتد فى هجومه على الفلسفة فى العالم الإسلامى على ما سنعرف فى الفصل التالى، فترجم اليهود كتابه « تهافت الفلاسفة » حول عام ١٥٣٨ ليدحضوا به أتباع ابن رشد وأرسطو، ولبثت الحال على هذا حتى احتلت الفلسفة الأوربية الميدان فى العصور الحديثة.

موقف الأكليروس المسيحى من أرسطو وشراحه من المسلمين :

نقل اليهود أرسطو إلى أوربا عن كتب المسلمين فى القرن الثانى عشر، على نحو ما أبنا منذ حين، فنهض الأكليروس لمقاومته، حتى ظهر أرسطو مسيحيا فى القرن التالى، فانشطرت أوربا المسيحية إزاء التراث الأرسطاطاليسى إلى معسكرين : معسكر ينتصر لأرسطو الذى بدا مسيحيا عند توما وألبير ومن جرى مجراهما، وقد جدّ فى تأييد هذا الاتجاه جامعة السوربون وإخوان الدومنيكان بوجه خاص. أما المعسكر الثانى فكان يناصر أرسطو الذى تكشفت عنه الكتب العربية، وارتدى فى أوربا ثوبا لاتينيا، ولم يتمثل تراثه صدى وحى دينى سماوى، بل بدا نتاج عقل إنسانى عبقرى، لأن محاولة المسلمين التوفيق بينه وبين الإسلام كانت تقوم على إخضاع الدين للفلسفة وتأويل آياته حتى يسايرها، وتولت رعاية هذا الاتجاه جامعة باريس على قلة علمائها منذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر حتى القرن التالى، حين فر علماؤها — تحت ضغط الاضطهاد إلى جامعة بادوا ومثلوا

الأرسطاطاليسية أصدق تمثيل — إبان القرنين الخامس عشر والسادس عشر كما سنعرف عند الحديث على النزاع فى عصر النهضة .

كان للدومينيكان من أمثال البير الكبير + ١٢٨٠ والقديس توما الاكوينى + ١٢٧٤ أكبر الأثر فى التمكين لتراث أرسطو ، والمظنون أن ألبير الكبير كان أول من ميز بين نور العقل (العلم الطبيعى) ونور الوحى (علم اللاهوت) ، فتكفل هذا بضمان شىء من الحرية للعلم والفلسفة اللذين كانا مسخرين فى العصور الوسطى لخدمة الدين — فيما يقول ولف — وإذا كان ألبير قد روج للمذهب الأرسطاطاليسى ، وأضاف إليه أقوال شراحه ، فقد كان يتخلى عن تأييده كلما بدا على غير اتفاق مع تعاليم الدين ، ولهذا أنكر على أرسطو قوله بقدم العالم وآمن بخلود النفس ، ورفض تعريف الله بالمحرك الأول ، واعتبره موجودا لا متناهيا . وقد أكد القديس توما نزعة ألبير ، فميز فى وضوح بين الفلسفة والإيمان فى الموضوع والمنهج معاً ، وكفل الغلبة للايمان الذى يستند إلى الوحى ، على الفلسفة المكتسبة بالعقل — كما أشرنا من قبل — واعتبر الوحى محكا للحقيقة إن خالفه العقل ضل سواء السبيل .

وقد ضاق الفرنشسكان بموقف الدومنيكان ، فرفض أمثال دانز سكوت Dunz Scotus + ١٣٠٨ ووليام أوكام + ١٣٤٩ أية محاولة يراد بها التوفيق بين الايمان (اللاهوت) والعقل (الفلسفة أو العلم الطبيعى) ، وصرحوا بأن ما يسلم به العلم قد لا يذعن الإيمان له ، وجاهروا بأن كلمة الدين هى العليا ورفضوا المذهب العقلى الذى روج له القديس توما ، وقرروا أن الخير مقدم على الحق ، والخير ما أمر به الله ، وأوامر الله ليست فى ذاتها خيراً ، ولكنها خير لأن الله قد أمر بها (١) ومن واجب الإنسان طاعة الله .

---

(١) ورأيهم فى هذا شبيه برأى أهل السلف فى الإسلام ، وقد عارضهم فى الغرب أفلاطونيو كمبردج وفى الإسلام المعتزلة ، إذ قالوا إن الله يأمر بالفعل الخير لأنه فى ذاته حسن . . . . . انظر مشكلة الإلزام الخلقى فى كتابنا « مسائل فلسفية » .

وقد اعتنقت الكنيسة — الكاثوليكية — الأرسطاطاليسية، كما بدت فى فلسفة القديس توما مذهباً لها، وأقامت على هذا حتى يومنا الراهن، وقد كان لهذا الموقف خطره البين فى تاريخ النزاع بين الدين والفلسفة، ولهذا يحسن بنا أن نقف عنده قليلا :

كان القديس توما أكبر أرسطاطاليسى فى أوربا المسيحية كلها، وكان ابن رشد أعظم شراح أرسطو فى العالم الإسلامى — شرقيه وغربيه على السواء، ومع هذا فقد خاصمه توما خصاماً شديداً، وإن كان من الإنصاف أن نقول مع « رينان » إنه كان أكبر تلامذته، وأن نقرر مع بيورى أن شيوع تأملاته كانت من الأسباب التى أدت إلى ظهور فلسفة القديس توما، وأن نسلم مع ألفرد جيوم بأن وجوه الاتفاق بين إلهيات توما وابن رشد فى منتهى الكثرة، بالإضافة إلى أن محاولته التوفيق بين الدين والفلسفة تسير عندهما فى طريق واحدة، وتجرى على نسق واحد[1]، وكان توما إذن أقوى خصوم ابن رشد جميعا، وقد تكفل بدحض ما لا يساير تعاليم المسيحية من مذاهب الفلسفة العربية عامة والرشدية بوجه خاص، من قدم المادة وإنكار العناية الإلهية ووحدة العقل واستحالة الخلق من العدم ونحوه، واستطاع هذا القديس أن يستنبط من فلسفة أرسطو خلود النفس والقول بأن الله واجب الوجود . . . الخ .

---

(١) كان لابن رشد نفوذ واسع النطاق فى العالم المسيحى، رغم أنه لسوء الحظ، لم يخلفه تلميذ واحد يواصل فلسفته فى العالم الاسلامى — فيما لاحظ « رنان » Renan وكان أثر فلسفته وشروحه على أرسطو ضئيلا جداً فى العالم الاسلامى — فيما يقول « دى بوير » De Boer ، بل لقد كان ابن رشد آخر فيلسوف كبير فى العالم الاسلامى كما ستعرف فى الفصل التالى، وقد واصل فلسفته ابن ميمون ومدرسته . ويبدو لنا أن مرد هذه الخصومة التى كان لها أبلغ الآثار فى موقف الكنيسة من كل من توما وابن رشد إلى الخلاف فى المنهج الذى اتبعه كلاهما فى فلسفته، فابن رشد كان يوفق بين الدين والفلسفة بتأويل الآيات الدينية تأويلا يؤدى إلى اتفاق معناها مع ما يقول أرسطو، أما توما فكان فى توفيقه بينهما يؤمن بالفكرة الدينية أولا ثم يأخذ فى تفسير المذهب الفلسفى وتوجيهه إلى حيث يتفق مع النصوص الدينية، أى أن ابن رشد أخضع الدين للفلسفة، أما توما فقد أخضع الفلسفة للدين، فكان الطبيعى بعد هذا أن تقوم الخصومة بينهما، وأن تختلف نتائج البحث الواحد عند كليهما، وأن تنتصر الكنيسة للقديس توما وتخصم مع ابن رشد وإن كان كلاهما شارحا لفلسفة أرسطو !

وخطأ أرسطو فى القول بقدم الزمان والحركة ، كما خطأ ابن رشد فى استنتاجه استحالة الخلق من ذلك ، وتكفل هذا كله بأن يدنى مذهبه من قلوب رجال الكنيسة ، بقدر ما باعد بين الكنيسة ومذهب ابن رشد بوجه خاص .

ونهض الأكليروس لمقاومة الأرسطاطاليسية ، وبدت المقاومة فى عام ١٢٠٩م ، حين انعقد مجمع أكليركى فى باريس ، وقرر إدانة المشتغلين بفلسفة أرسطو الطبيعية وشراحه ، ثم عاد الأكليروس فقرر منع تعليم أرسطو ، وخاصة كما بدا فى تراث ابن سينا ، وقرر البابا جريجورى التاسع عام ١٣٣١ تحريم الاشتغال بدراسة الفلسفة الإسلامية ، وكان يكفى تبريراً لهذا التحريم ، إنكار أرسطو لخلود النفس ، وموقفه من قدم العالم وخلقه ، ونظرته إلى الكون باعتباره خاضعاً لنواميس طبيعية — فى وقت جهل فيه العلم الطبيعى هذه النواميس .

وقد كان ابن رشد هدف هذه الحملات فيما يلوح ، وهو الشارح الأعظم الذى اشترك فى خصومته ألبير الكبير وتوما الأكوينى معا ، فكان المعقول أن يكون محط السخط من رجال الكنيسة . وكان المظنون خطأ أنه يقول إن الفلسفة على حق ، وأن الأديان المنزلة على ضلال ، ومرد هذا الخطأ فى فهم ابن رشد إلى سيجر Siger of Brabant لأنه كان لا يذكر نظرية تتعارض وتعاليم المسيحية إلا استند إلى أرسطو ، وعزا الإبهام الذى يصادفه فى شرحه إلى تعليقات ابن رشد ، وكان من رأى سيجر أن العقل والعقيدة متناقضان ، ولما كانت الكنيسة لاتجد فى متناولها دراسة دقيقة لتعاليم ابن رشد وكتاباته ، فانها لم ترا بُداً من أن تضم إلى سخطها على سيجر سخطها على المصدر الذى ادعى أنه استمد منه نظرياته [1] .

---

(١) كنت أثناء ترجمتى للفلسفة والالهيات فى كتاب « تراث الاسلام » على اتصال بواضع هذا الجزء الموقر « ألفرد جيوم » بانجلترا ، وقد جاء فى رسالة منه إلى : « ينبغى أن نتكلم عن ابن رشد حذرين ، وأنا لا أرى فى تعاليمه ما يناقض عقائد الاسلام . . الخ انظر ص ٣٦٥ — ٦٦ ج ١ تراث الاسلام .

والواقع أن ابن رشد كان لا يقل عن القديس توما حماسة فى تأييد المثل الأعلى القائل باتساق العقل مع العقيدة ، والثابت أن توما قد أفاد منه كثيراً فى تأييد هذا الاتساق[١] . ولكن توما — بوجه خاص — قد شوه سمعته . فوضع رسالة « فى وحدة العقل رداً على أتباع ابن رشد De unitate intellectus contra averroistas عارض فيها الرأى القائل بأن الاعتقاد فى وحدة العقل — كونه واحداً لجميع الناس — ضرورى من وجهة النظر العقلى ، بينما ينبغى رفض الاعتقاد بها رفضا باتاً من وجهة العقيدة الدينية ، وناقش رأيه فى وحدة العقل « مارتن » فى كتابه الدفاع عن الإيمان ، وكتب « ستيفن » أسقف باريس رسالة قدم بها للتسع عشرة ومائتى مسألة المنسوبة لأتباع ابن رشد الذين أدانتهم الكنيسة ، وعرض مارتن لمناقشة وحدة العقل عند ابن رشد فى كتابه « الدفاع عن الإيمان » واعتبرها شبيهة « بهذيان عنيف » فتكفل هذا وأمثاله بتصوير ابن رشد فى صورة رب الزندقة وأبى الفكر الحر .

ولكن جامعة باريس قد نهضت بتعليم ابن رشد ، وتمثل فيها التراث الأرططاليسى مستقلا عن الروح الدينى ، وكان أظهر ما فى برنامجها — من الفلسفة الرشدية — القول بقدم العالم وإنكار خلود النفس وإقرار فنائها بفناء الجسم[٢] ، والنظر إلى الحوادث باعتبارها متعاقبة تعاقبا لا مجال فيه للعناية الإلهية . . . ونحو هذا مما لا يرتضيه مسيحى مؤمن ، فنشأت عن هذه الجامعة مدرسة من أحرار الفكر الذين ذهبوا إلى أن قصة التكوين وبعث الأجسام

---

(١) انظر كتابه : فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال وكتابه : مناهج الأدلة فى عقائد الملة ، وقد تناول الأولى بالدرس المستشرق الفرنسى ليون جوتييه L. Gauthier ونشر الثانى بالأسبانية المستشرق ميجيل بين M, Bain مع مقارنته بكتاب توما « الخلاصة الفلسفية » وقام بنشرهما مولر Müller وترجمهما إلى الألمانية ونشرت الرسالتان بالقاهرة تحت عنوان فلسفة ابن رشد ١٣١٣، ١٣٢٨ — وانظر ما كتبه الفردجيوم فى بحثه عن « الفلسفة والالهيات » المنشور فى كتاب تراث الإسلام The Legacy of Islam الذى ترجمناه إلى العربية ونشرته لجنة الجامعيين لنشر العلم فى عام ١٩٣٦ .

(٢) انظر فى تناقض ابن رشد فى رأيه فى خلود النفس وتأويله هذا التناقض فى كتاب « ابن رشد وفلسفته » للمرحوم فرح أنطون ص ٤٧ وما بعدها وخير ما فيه استناده فيما يقول إلى نصوص ابن رشد نفسه .

ونحوه من العقائد الرئيسية ربما كان صحيحاً من وجهة النظر الدينية ، ولكنه باطل من وجهة النظر العقلية ! ولم يسغ هذا الاتجاه رجال اللاهوت الذين كانوا يرون الاتفاق معقوداً بين العقل والوحي . وخيل إلى الرجل العادي وكأن أصحاب هذا الاتجاه يقولون إن نظرية خلود النفس صادقة أيام الآحاد ، باطلة في سائر أيام الأسبوع ! وأن عقيدة الحواريين تبطل في نظرك متى كنت في حجرة الجلوس ، وتصدق إن كنت في قاعة الطعام . . !!

واشتد حنق الدومنيكيين على أرسطو المستقل عن المسيحية ، وتمكنوا في مدى ست أو سبع سنوات من استصدار أربعين أمراً من البابا بحظر الفلسفة الإسلامية « وحرم » المشتغلين بها ، وقرر مجمع باريس المنعقد في عام ١٢٦٩ تحريم مبادئ كانت معروفة عند ابن رشد ، منها وحدة العقل الإنساني في الناس جميعاً ، وقدم العالم وفناء النفس بفناء الجسم ، وإنكار علم الله للجزئيات ، وعدم تأثير العناية الإلهية في أفعال البشر . . . الخ . وأدان البابا جون الحادي والعشرون[١] مذهب ابن رشد في ازدواج الحقيقة ، ونكلت الكنيسة بالمتفلسفة في جامعة باريس حرقاً وإعداماً ، حتى اضطروا إلى الفرار إلى بادوا حيث كانت البندقية بمجلس شيوخها كفيلة بتوفير الحرية لأهل الفكر الحر . وعندئذ انتصر ابن رشد وعاش أتباعه طوال القرنين الخامس عشر والسادس عشر آمنين في هذه الجامعة التي لم يكن في أوربا كلها مكان أكثر منها أماناً . وهذا ما نعرفه في الفصل الذي عقدناه على عصر النهضة .

ويسجل تاريخ الاضطهاد أن جامعة باريس التي اضطهد فيها أتباع ابن رشد قد طلبت من خريجها بعد مضي قرن من الزمان ، أن يقسموا غير حانثين ، ألا يعلموا إلا الأشياء التي تتفق مع تعاليم أرسطو كما فسرها ابن رشد[٢] . . !

ومن وجوه الطرافة أن المسيحيين الذين خاصموا الفلاسفة إجمالا ، قد

---

(١) تولى عرش البابوية من سبتمبر ١٢٧٦ إلى مايو ١٢٧٧ م .
(٢) Rashdall, Universities, I. 368.

استعانوا بخصوم الفلسفة من المسلمين ، فموقف الغزالى العقلى والدينى قد راق علماء المسيحيين منذ اللحظة التى تيسر لهم فيها الاطلاع على كتبه ، ولا يزالون مهتمين بدراسة أبحاثه والعناية بها ، والمعروف أن الغزالى قد هاجم الفلسفة ، وذهب فى هجومها إلى تكفير أهلها من أفلاطون وأرسطو ، إلى الفارابى وابن سينا ، مهد لدراستها بكتابه « مقاصد الفلاسفة » ، ثم حمل عليها فى كتابه « تهافت الفلاسفة » ، وسرعان ما راج كتابه الثانى عند خصوم الفلسفة من المسيحيين ، فنلاحظ أن ريموند مارتن R. Martin — الذى يحتمل ألا يكون لعلمه بمؤلفى العرب نظير فى أوربا بأسرها حتى العصور الحديثة — فيما يقول جيوم — قد نهض بعد ممات القديس توما بمقاومة فلاسفة الإسلام وعلمائه ، واستجاب لمطلب ريموند بنافورت Raymuud Pinnaforte رئيس هيئة الدومنيكيين ، فى وضع كتابه « الدفاع عن الإيمان » Pugio fidei وأدخل فيه الكثير من آراء الغزالى ، ومنذ ذلك الحين أفاد الكثيرون من علماء المسيحية من آراء الغزالى فى إثبات الخلق بعد العدم Creatis ex nihilo وبراهينه فى التدليل على أن علم الله شامل للجزئيات ، وبرهنته على عقيدة البعث بعد الممات . وانتفع القديس توما — الذى عاصر مارتن — برسالة الغزالى فى « الاقتصاد فى علم الاعتقاد » فى وضع كتابه المعروف « الخلاصة الفلسفية فى الرد على الأمم غير المسيحية » الذى وضعه استجابة لطلب رئيس هيئة الدومنيكيين السالف الذكر ، وأوجه الشبه بين آراء توما والغزالى كثيرة[١] .

وهكذا نلاحظ أن الغزالى كان ويلا على الفلسفة عند اليهود والمسيحيين على السواء . . . وسنعرف أثره الهدام فى فلسفة العالم الإسلامى فى الفصل التالى ، وكان أثر كتابه « تهافت الفلاسفة » عند هؤلاء جميعاً أعمق — فيما يلوح — من أثر « تهافت التهافت » الذى فند فيه ابن رشد موقف الغزالى من الفلسفة . وعند ابن رشد كان يلتقى إعجاب أتباعه وسخط خصومه من المسيحيين[٢]

---

(١) تراث الإسلام فى ترجمتنا للفلسفة والالهيات ص ١٠٣ وما بعدها .

(٢) كان بين المعجبين به رجال دين ! يقول كارا دى فو Carra de Vaux فى مقال له عن ابن رشد بدائرة المعارف الإسلامية : « كان الإعجاب بشروح ابن رشد عظيما ، حتى بين رجال الدين الذين كانوا يرون فى مذهبه خطراً يهدد العقيدة » .

امتد نفوذه وعلا ذكره منذ القرن الرابع عشر ، حتى غلب ابن سينا فى أوربا كلها ، ولبث عاملا حياً فى التفكير الأوربى حتى مطلع العصر الحديث فى القرن السابع عشر ، وكان هذا يزيد من حقد خصومه وسورة غضبهم ، على نحو ما أبنا من قبل .

بل لقد سرت عند بعض المسيحيين موجة من السخط الشديد ، أتت على التراث العلمى للمسلمين جميعاً ، وتجلت هذه الظاهرة عند أمثال بترارك وريموند لل R. Lull + ١٣١٥ ، وقد وقف الأخير جهوده على الطواف بالبلاد الأوربية من باريس إلى فينا إلى مونبلييه إلى جنوه ونابلى وبيزا ، وإثارة الناس ضد المسلمين وفلسفتهم . وعندما انعقد مجمع فينا عام ١٣١١ م أرسل عريضة إلى البابا يطلب فيها « حرمان » كل مسيحى ينتصر لابن رشد ، وحظر تدريسه فى مدارس أوربا ، وتضمنت العريضة غير هذا مما يدخل فى محاربة الإسلام « ولكن المجمع لم يلق إليها بالا »[1] .

* * *

هذا هو موقف المسيحيين عامة والأكليروس المسيحى بوجه خاص من أرسطو وشراحه من فلاسفة الإسلام ، ولعل للكنيسة بعض العذر فى موقفها من أحرار الفكر ، ومقاومتها للمذاهب التى بدت على خلاف مع تعاليم الدين ، فقد تكشفت حرية التفكير — منذ بدأت يقظة العقل الأوربى — عن موجة من الإلحاد المروع كادت تأتى على الحياة الروحية التى تقوم الكنيسة على حراستها بحكم وظيفتها ، وقد ثارت فى القرن الثالث عشر شكوى دينية نسب بعضها إلى المفكر الحر « فردريك الثانى » + ١٢٥٠ الذى شجع حركة النقل عن فلاسفة الإسلام واعتبر أول رجل حديث »[2] ،

---

(١) لم يكن هذا غريبا على « لل » الذى جعل مثله الأعلى تقديم العقيدة المسيحية للشرقيين على أسس عقلية ، والذى استشهد فيما يقال أثناء تبشيره لعرب تونس ، وقصد إلى تحويل آسيا إلى المسيحية ، وطالب باستبدال الحملات الصليبية ببعثة تبشيرية . تراث الإسلام .

(٢) أورد بيورى مثالا لهذا (ص ٧٠) آثرنا إغفاله لجرأته على الرسل والديانات الثلاث المنزلة .

وامتدت هذه الموجات من الشك حتى شملت الأديان المنزلة جميعها ، وتناولت الرسل عليهم السلام بالطعن والتجريح ، وهذا بالإضافة إلى ما حملته فلسفة أرسطو المنقولة عن شراحه من آراء لا تساير أبسط العقائد المسيحية ، ولا تتمشى مع أظهر المبادىء المعروفة فى التقاليد الدينية .

كلمة أخيرة :

وعلى هذا انقضت العصور الوسطى ، خلا عصر الآباء وبعض العصر المدرسى من مظاهر النزاع الذى يرتفع إلى مرتبة التضييق والاضطهاد ، لخلو هذه المرحلة الطويلة من وجود عقل يقظ جرىء ، ولكن بعض آباء الكنيسة قد اضطلع — منذ العصور الأولى — بوضع السنن والشرائع التى مهدت — فيما بعد — لاضطهاد العقل ، ومكنت من مطاردة أهله ، وهيمنت الكنيسة على عقول الناس وقلوبهم معا ، واستسلم العالم الأوربى لتعاليمها ، وسارت الفلسفة فى ركابها ، وتكفلت بتأييد عقائدها ووجهات نظرها ، فصفا الجو بينهما قرونا طوالا ، حتى إذا دبت اليقظة إلى العقل ، وتكشفت أمامه دائرة المعارف القديمة — ممثلة فى التراث الارسطاطاليسى المنقول عن فلاسفة الإسلام — ضاق العقل باستكانته لاستعباد السلطات ، وأعلن فى منتصف العصر المدرسى تمرده ، فنهض الأكليروس لمقاومته ، حتى إذا ضاق بأهله زج بهم إلى السجون اتقاء لشرهم ، ولكن بعض دعاة العقل قد أسرفوا فى الالتجاء إلى منطقه وتغليبه على كل شريعة ، فأفضى هذا إلى إنكار العقائد الدينية وامتهان التقاليد المقدسة ، فأنذر هذا باكفهرار الجو واشتداد النزاع ، وعندئذ تأهب الأكليروس لحشد قواته وتعبئة جنوده وتنظيم محاكمه ، والاستعداد للانقضاض على خصومه ، فلم تنقض العصور الوسطى حتى أشرف العالم الأوربى على عهد إرهابى ملوث بالدم الآثم ، وهذا ما سنعرفه عند الحديث على النزاع بين اللاهوت والفكر الجديد فى عصر النهضة :

(مصادر الفصل)

ما ذكر فى هوامش الفصل مع كتب تاريخ الفلسفة التى تناولت العصور الوسطى ثم :

W. E. H. Lecky, Hist of the Rise & Influence of Rationalism in Europe vol. 2 ch. I.

A. D. White; A Hist. of the Warfare of Science with Theology in Christendom vol. I.

J. B. Bury, Hist. of Freedom of thought.

J. Robertson, A Short Hist. of Freethought vol. I.

Ch. Watts, Freethought: Its rise, Progress & Triumph.

J. W. Draper, Hist. of the conflict between Religion and Science.

Encyclopaedia of Religion and Ethies art, Persecution, Toleration,

Encyclopaedia Brit, art, Inquisition St Augustine. . . etc.

E. Renan, Averroes et L'averroisme ed. 1925.

Charles de Rémusat, Abelard 1845.

فرح أنطون : ابن رشد وفلسفته ١٩٠٣

تراث الإسلام نشرة لجنة الجامعيين لنشر العلم — ولا سيما الجزء الذى ترجمناه عن « ا . جيوم » فى الفلسفة والالهيات .

وفى تصوير التقاليد الممهدة للاضطهاد ، يقرأ كتابنا « قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام » .

الفصل الرابع

موقف الإسلام وفقهائه

من التفكير الفلسفي

تمهيد : موقف فلاسفة الإسلام من الدين — موقف رجال الدين من العلوم الفلسفية — عداء الغزالي للفلسفة وأثره — موقف ابن رشد من الدين والفلسفة — محنة ابن رشد — منشور الخليفة بتحريم الاشتغال بالفلسفة — فتوى ابن الصلاح بتحريم الاشتغال بالفلسفة والمنطق — أثر فتوى ابن الصلاح فيمن تلاه — عداء ابن تيمية وابن قيم الجوزية للفلسفة — قيام الفلسفة في الإسلام رغم حملات خصومها المتزمتين — موقف رجال الدين من صوفية الإسلام : كيف خرج التصوف على أبسط قواعد الدين — ضيق أهل السنة بالتصوف الجامح — مصرع الحلاج — مقتل السهروردي — موقف القرآن من حرية النظر العقلي — تفسير الاضطهاد في الإسلام — الاضطهاد في المسيحية والإسلام

تمهيد :

عرف العالم الاسلامي من رجال الدين أحراراً يسايرون التطور ويسبقون الزمن ، وينتصرون للعقل ويحاربون الجمود والجهل والتعصب ؛ وعرف إلى جانب هؤلاء متزمتين يجمدون والدنيا من حولهم في حركة دائمة ونشاط متصل ، فيطمعون في أن يوقفوا الركب ويعرقلوا حركته ، لأنهم لا يطيقون في الرأي جدة ولا خلافاً ، ولا يحتملون من أحد أن يخرج على مألوف ، أو يصيب عند الناس شهرة أو عند الحكام عطفاً ورعاية . فان وقع شيء من هذا فهم المناعون للخير المشاؤون بالسوء ! فلنعرض لبيان موقفهم من العلوم الفلسفية الغريبة عنهم ، والتصوف الجامح المتمرد وبيان رأيهم في أهلهما إن بدا في تفكيرهم جدة أو خلاف لما عرف ، فاذا فرغنا من عرض المحن التي نزلت بهؤلاء ، عقبنا ببيان موقف القرآن الكريم من حرية النظر العقلي ، ورأيه في هؤلاء المتزمتين وخصومهم من المفكرين على السواء .

موقف فلاسفة الإسلام من الدين :

ذهب جمهرة فلاسفة الإسلام إلى القول بأن غاية الدين تتشابه مع غاية الفلسفة ، من حيث إن كليهما يرمى إلى تحقيق السعادة عن طريق الاعتقاد الحق وعمل الخير ، ويقولون إن موضوعات الدين والفلسفة واحدة ، لأن كليهما يعطى المبادئ القصوى للموجودات ، ويفيض عن واجب الوجود على عقول البشر بواسطة العقل الفعال ، لأن المعارف كلها — ما كان منها بوحى أو عن غير وحى — تصدر عن واجب الوجود بواسطة العقل الفعال. وقد حاول فلاسفة الإسلام التوفيق بين الدين والفلسفة « فى أسلوب ليس فيه — فى الغالب — عنف — ولا نزوع إلى كبرياء ، وإن كان بعضهم تنم أساليبه عن العنف أو مهاجمة الدينيين فيما يقول أستاذنا المرحوم مصطفى عبد الرازق ، وكانت هذه المحاولة مناط الابتكار أو معقد الطرافة فى الفلسفة الإسلامية فيما يقول ليون جوتييه ، وإن أفضت فى رأى غيره إلى انقلاب هؤلاء الفلاسفة مبشرين بالدين ودعاة له .

موقف رجال الدين من الفلسفة الإسلامية :

هذا موقف الفلاسفة إجمالا ، أما علماء الدين فقد نزعوا غير ذلك المنزع ، فهم « فى أكثر الأمر خصوم للفلسفة فى غير هوادة ولا رفق » وإن لم نجد عند بعضهم ممن تأثروا بالفلسفة تلك الجفوة التى نجدها فى أساليب المتأخرين من أمثال ابن الصلاح — كما سنعرف بعد قليل .

وقد كان مفكرو الإسلام — فيما يقول جولد تسيهر — يطلقون على دائرة معارف اليونان من رياضيات وطبيعيات وإلهيات اسم « علوم الأوائل أو علوم القدماء أو العلوم القديمة » وهى تقابل عندهم علوم العرب والعلوم الشرعية بوجه خاص ، وقد كانت علوم الأوائل مثار الشكوك والريب عند المتطرفين من أهل السنة ، حتى حين كانت موضع عناية فى البيئات الدينية الإسلامية منذ القرن الثانى للهجرة ، ومن هنا كان من السهل اتهام

الرجل بالزندقة متى نحا فى كتبه نحواً فلسفياً ، كما حدث مع على بن عبيدة الريحانى وأبى زيد البلخى وغيرهما . وقد بالغ هؤلاء المتطرفون فى هذا النزوع حتى كانوا ينفرون من كل علم ينسب إلى الفلسفة أو يتصل بها ! وليس أدل على هذا التطرف من أن يشكو منه الغزالى فى منقذه ، وهو أكبر خصوم الفلسفة وأصلبهم قناة ، ويقول أصحاب هذا الاتجاه إن النبى حين سأل ربه أن يعيذه « من علم لا ينفع » ، إنما قصد علوم الأوائل ! بل يرى ابن تيمية الحنبلى فى الجزء الأول من مجموعة رسائله الكبرى أن العلم ما كان موروثاً عن نبى ، وكل ما سواه فهو علم لا ينفع ، أو ليس بعلم وإن سمى به . . ! ويصف جمهرة المتكلمين من السنيين علوم الأوائل بأنها « حكمة مشوبة بكفر ، لأنها تؤدى إلى التعطيل « أى تجريد ذات الله من كل حسنة إيجابية » ، وبدا الاشتغال بها مسايراً للاستخفاف بالدين ، وكل من عنى بهذه العلوم دل بعنايته على أنه مغموز فى عقيدته متهم فى دينه ، وليس ينجيه من هذا الاتهام أن يكون ثقة فى العلوم الشرعية مزاولا للتعاليم الدينية ، بل إن مجرد الاتصال بهذه العلوم ، كفيل بأن يجنح بصاحبه إلى طريق الدين القويم ، وهذا هو السبب الذى جر المأمون إلى القول بخلق القرآن — فيما يرى تاج الدين السبكى .

ومن أجل هذا كان أهل السنة ينصحون طلاب العلم بتجنب الاتصال بالمشتغلين بعلوم الأوائل ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وكان هؤلاء بدورهم يخفون اشتغالهم بالدراسات الفلسفية متى كانوا حريصين على سمعتهم أن يمسها سوء ، ومن هؤلاء ابن الطيب + ٤٣٦ الذى روى عنه القفطى أنه كان يتقى أهل زمانه فى التظاهر بعلم الأوائل فيخرج ما عنده فى صورة متكلمى الملة الإسلامية . . ! فإذا قيل إن أحد الفلاسفة قد ثاب إلى رشده وعدل ساعة موته عن ضلالات الفلسفة وأكاذيبها ، أثار هذا الغبطة والرضا فى نفوس الناس ، وقد قيل هذا عن ابن نجاء الأربلى ٦٦٠ وهو فيلسوف رافضى يختلف الكثيرون إلى داره بدمشق ليأخذوا عنه ، « قيل عنه فى لهجة يمازجها سرور المنتصر الظافر » إن آخر كلمة صدرت عنه وهو على فراش موته : « صدق الله العظيم وكذب ابن سينا . . ! »

وكان طبيعياً أن تشيع الدعوة إلى تجنب الاطلاع على الكتب الفلسفية ، وقد سوى الجاحظ فى بخلائه بين الكتاب المتهم والشراب المكروه — عند حديثه على الأشياء التى تخفى عن عيون الناس بعناية . . ! وطولب المحترفون من نساخى الكتب فى بغداد (عام ٢٧٧ هـ) بأن يقسموا صادقين بألا ينسخوا كتابا فى الفلسفة ! — فيما يروى ابن الأثير .

والمعروف أن الزندقة قد فشت فى العصر العباسى لأسباب منها أن الزندقة بمعنى الشك أو الإلحاد « تقترن عادة بالبحث العلمى وهو فى العصر العباسى أبين وأظهر » ، إذ انتشرت فيه « مذاهب الكلام والجدال الدينى حول المسائل الأساسية فى الأديان ، والبحث الفلسفى على النحو الذى يبحثه أرسطو وأفلاطون وغيرهما فى المادة والصورة والجزء الذى لا يتجزأ والجوهر والعرض وما إلى ذلك » وانساق الخلفاء إلى مطاردة الزنادقة استجابة لنزعاتهم الدينية أو مجاراة للرأى العام ، وكان المهدى « أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب فى الرد على الملحدين ، وإقامة البراهين على المعاندين وإزالة شبه الملحدين مع إنشائه إدارة للبحث عن الزنادقة ومحاكمتهم ؛ وقد نصح ابنه الهادى فى مطاردة أصحاب مانى واستجاب ابنه لنصحه ، وكذلك فعل هارون الرشيد والمأمون والمعتصم ، فقتل الكثيرون أو صلبوا وأحرقوا بالنار ، وكان من هؤلاء الزنادقة من كان يدعو إلى الشعوبية والمذاهب الدينية ويعلن شكه فى الأديان ويقول « بسلطان العقل إلى أقصى حدوده ، فهم لا يريدون أن يؤمنوا إلا بما يرون بأعينهم ويحكمون العقل حتى فيما ليس للعقل فيه مجال ، فنبذوا الأديان جملة ودعوا إلى الإلحاد »[1] .

وكان من اليسير أن تحرق كتب الأوائل متى عثر عليها عند المشتغلين بها ، وقد حدث هذا مع حفيد عبد القادر الجيلانى الصوفى المعروف ، هو

---

(١) المرحوم الأستاذ أحمد أمين فى ضحى الإسلام ج ١ فى الفصل السادس من الباب الأول عن حياة الزندقة وحياة الإيمان .

ركن الدين (محمد بن عبد السلام ٦١١ ﻫ) ولما وجهوا الاتهام إليه ، زعم اتقاء لشرهم أنه نسخ هذه الكتب توطئه لتفنيدها والرد عليها ، ولكن دفاعه لم يجدِ فتيلا ، فأوقدوا أمام مسجد مجاور لمسجد الخليفة ناراً عظيمة ، واعتلى السطح العلماء والقضاة وجمهور غفير من الناس . ثم ألقيت الكتب من فوق سطح المسجد فى النار ، ونهض أحدهم بتعريف الحاضرين بهذه الكتب كتابا كتابا ، وهو يقول — وعبد السلام حاضر معهم — : العنوا من كتب هذه الكتب ومن آمن بما فيها ، والعامة يهتفون باللعنة التى تجاوزت عبد السلام إلى الشيخ عبد القادر نفسه ، ونهض الشعراء بهجو الملحد والسخرية من أمثاله . أما عبد السلام فقد أدين بالفسق ، وجرد من طيلسان العلماء ، وزج به فى السجن ، وانتزعت منه مدرسة عبد القادر . . . ومثل هذا كان كثيرا ما يقع ، وستعرف بعد قليل محنة ابن رشد وإحراق كتبه وصدور منشور بتحريم الاشتغال بالفلسفة .

وقد كانت إلهيات أرسطو — أولا وبالذات — محط السخط عند أهل السنة ، إذ اعتبروا مقدماتها ونتائجها متعارضة كل التعارض مع مقتضيات عقائد الإسلام ، وتجاوز سخطهم ذلك إلى العلوم الرياضية لأنها تمهد للدراسات الفلسفية ؛ لانت نظرتهم إلى الحساب « لأن الاشتغال به من مستلزمات علم الفرائض » فوق أنه يعين الخبراء فى أحوال التوريث . أما الهندسة فقد كانت مثالا للشك عند أهل السنة . وكانت الأشكال الهندسية تثير قلقهم ، وتدين صاحبها بالزندقة ، وقد وقع هذا زمن أبى نواس وتجاوزه إلى العصور المتأخرة ، وقد تحدث أبو الحسين بن فارس فى كتابه « الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها » عن خطر الهندسة على الدين مع قلة نفعها . وانتهى إلى أن الخوض فى الرياضيات يؤدى إلى الانخلاع عن الدين[1] .

ولما كان الاشتغال بعلوم الأوائل قد ارتبط بالتقاليد الأفلاطونية المحدثه ، فقد دخل فى جملة هذه العلوم مزاولة السحر والطلسمات والنارنجيات

---

(١) ولكن الغزالى — وهو من كبار الاشاعرة — كان على غير هذا الرأى — أنظر رأيه فى المنقذ من الضلال .

إلى جانب علم التنجيم ، ومن هنا كان محط السخط عند أهل السنة ، فاتفق المعتزلة والأشاعرة على إنكار علم النجوم ، بل تجاوز الإنكار ذلك إلى علم الهيئة (الفلك) رغم منفعته فى تحديد مواعيد الصلاة والقبلة وسمتها ، وحسبنا فى الدلالة على هذا الاتجاه أن يكون مفسر متكلم معروف كالفخر الرازى ، ضعيف الثقة فى هذا العلم — رغم اعترافه بعلم النجامة ، فيصرح فى الجزء السادس من مفاتيح غيبه بأنه « لا سبيل إلى معرفة السموات إلى بالخبر » . وكان يبرر شك السنيين فى هذا العلم تأييده للقول بأن الشمس تطلع فى بعض البلاد فى منتصف الليل ، وأنها تشرق من المغرب مع أن الحديث يقول إن هذا من علامات الساعة . . الخ .

وإذا كان أهل السنة قد حذروا من خطر العلوم اليونانية على الدين ، فقد حاربوا المنطق اليونانى فى غير رفق ولا هوادة ، لأن طرق البرهان الأرسططاليسية كانت خطراً على صحة العقائد الإيمانية ، ومن هنا ذهب غير المثقفين إلى القول بأن « من تمنطق تزندق » .

ومن معسكرات المتكلمين — معتزلة كانوا أو شاعرة — صدرت كتب كثيرة تهاجم الفلسفة والمنطق بوجه خاص — منها كتاب « الرد على أهل المنطق للنوبختى وغيره ، وقد اتهم إخوان الصفا — فى الجزء الرابع من رسائلهم — المعتزلة — وفى اتهامهم بعض الغلو — بأنهم يعتبرون المنطق والطبيعيات كفراً وزندقة . وإن كان هذا كله لا ينفى القول بأن بعض أئمة رجال الدين قد حسن ظنهم بالاشتغال بالمنطق ، وأنهم قد انتفعوا به فى خدمة الكلام والدراسات الدينية .

فإذا نزلنا بالغرب الإسلامى ، لاحظنا أثر هذا التعصب بعد موت الخليفة الحكم عام ٣٦٦ ﻫ فالمنصور بن أبى عامر يأمر بإحراق الكتب المؤلفة فى العلوم القديمة ولاسيما ما كان منها فى المنطق والنجوم ، وقد أيد حكمه فى هذا الصدد رجال الدين ، وقد فصل صاعد فى « طبقات الأمم » فى وصف إحراق هذه الكتب . وليس ينفى هذا أن يؤيد المنطق — بعد هذا التعصب —

ابن حزم ، وهو من أشد المتحمسين لنصرة السنة بمعناها الضيق ، ويذود عن رأيه فى ملله ونحله وفى غيره من كتب . وقد كان المنطق مثار الضيق عند بعض رجال الدين فى عصر الازدهار الذى كان أيام دولة الموحدين ، فالمتزمتون من فقهاء المالكية يهاجمون الفلسفة فى عنف وغضب ملحوظ ، وفى القرن الثانى عشر يهجو ابن جبير الفلسفة بقوله :

قد ظهرت فى عصرنا فرقة   ظهورها شؤم على العصر
لا تقتدى فى الدين إلا بما   سن ابن سينا وأبو نصر

ولعل الغزالى قد قصد إلى إخفاء اسم المنطق من عناوين كتبه اتقاء لضيق أهل السنة والجماعة ، ومن هنا جعل كتبه « معيار العلم » ، و « محك النظر » و « القسطاس » وقد عرض له فى مقدمة « المستصفى » ، ومقدمة « المقاصد » .. وقد أبان — كما فعل ابن حزم — عن منفعة هذا العلم للمباحث الدينية ، وإن لم يمنعه هذا من إبداء سآمته وضجره من هذا العلم فى « محك النظر » ، وتحذيره فى « المنقذ » من التسرع فى الوقوع فى الكفر استناداً إلى زندقة أهل المنطق فيما يقول جولد تسيهر .

وفى العصر الذى تلا الغزالى وصلت معارضة المنطق أوج شدتها ، فلنقف هنا وقفة قصيرة نكشف خلالها عن موقف الغزالى من الفلسفة إجمالا ، عسى أن يلقى هذا ضوءاً على تزمت العصور التى تلته .

عداء الغزالى للفلسفة وأثره :

يعرض الغزالى « فى المنقذ من الضلال » إلى بيان موقفه من الفلسفة . ويقول إن من لا يقف على منتهى علم لا يقف على فساده ، وأنه لم ير « أحداً من علماء الإسلام صرف همته وعنايته إلى ذلك (الرد على الفلاسفة) وليس فى كتب المتكلمين الذين اشتغلوا بالرد عليهم إلا كلمات معقدة ظاهرة التناقض والفساد » وعلم الغزالى أن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه ، رمى فى عماية ، ومن أجل هذا جد فى تحصيل الفلسفة من كتبها دون استعانة بمعلم ، حتى انتهى بعد ثلاث سنوات إلى الكشف عما فيها من خداع وتلبيس وتحقيق وتخييل ،

ورأى أن الفلاسفة « على كثرة أصنافهم تلزمهم سمة الكفر والإلحاد ، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين وبين الأواخر منهم والأوائل تفاوت عظيم فى البعد عن الحق والقرب منه » .

وتمشياً مع منهجه السالف فى دحض مايبدو فى الفلسفة منافياً للدين ، وضع كتابه « مقاصد الفلاسفة » للإبانة عن مذاهبهم وكأنه واحد منهم ؛ ثم اضطلع فى « تهافت الفلاسفة » بتفنيد مزاعمهم وإبطال دعاويهم وإثبات ضعف عقيدتهم فى مذاهبهم التى قرروها متأثرين بفلاسفة اليونان ؛ وقد قصد من وراء هذا كله أن يبين عن عدم وفاق الفلسفة للدين ، وأن يصرف الناس عن أهلها ويزجر من يخوض فى علومها ، إذ قل « من يخوض فيها إلا وينخلع من الدين » فاذا انتهى من هذا قرر أن التصوف يلى الوحى طريقاً إلى اكتشاف الحقيقة ؛ وأنه يفوق العقل الذى يتشبث به الفلاسفة مع قصوره عن إدراكها ، وسنعرض لبيان رأيه فى هذا الصدد بعد قليل .

وقد قسم الفلاسفة فى المنقذ إلى ثلاثة أصناف : دهريون وهم الزنادقة لأنهم جحدوا الصانع المدبر العالم القادر وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً بنفسه ولم يزل الحيوان من نطفة ؛ والنطفة من حيوان كذلك . . . ثم طبيعيون وهم الذين سلموا بوجود قادر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها ولكنهم أنكروا معاد النفس وجحدوا الآخرة والحساب فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ولا للمعصية عقاب ، وهؤلاء أيضاً زنادقة . ثم إلهيون : وهم المتأخرون منهم كسقراط وأفلاطون وأرسطو ، وقد هاجموا الدهرية والطبيعيين ولكنهم استبقوا من رذائل كفرهم بقايا فوجب تكفيرهم وتكفير متبعيهم من متفلسفة الإسلاميين كابن سينا والفارابى وأمثالهما . ويرى أن مجموع ما صح من فلسفة أرسطو بحسب ما نقله هذان الفيلسوفان ينحصر فى ثلاثة أقسام : قسم يجب التكفير به ، وقسم يجب التبديع به ، وقسم لا يجب إنكاره أصلا .

وقد قسم الغزالى علومهم إلى رياضية ومنطقية وطبيعية وإلهية وسياسية

وخلقية ، ويجمل رأيه فى الأولى والثانية أنها لا تتعلق بالدين نفياً أو إثباتاً ... ويمضى فى حديثه حتى يصل إلى الإلهيات ، وهى بيت القصيد ، لأن فيها « أكثر أغاليطهم » ، « ومجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلا يجب تكفيرهم فى ثلاثة منها ، وتبديعهم فى سبعة عشر ، وقد صنف تهافته لإبطال هذه المسائل العشرين . فأما المسائل الثلاث التى خالف فيها الفلاسفة كافة الإسلاميين فكفروا من أجلها فهى :

(١) إنكار بعث الأجساد فهى فى رأيهم لا تحشر ، والمثاب والمعاقب هى الأرواح المجردة ، والعقوبات روحانية لا جسمانية .

(٢) قصر علم الله على الكليات دون الجزئيات ، وهو كفر صريح ، إذ « لا يغرب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء » .

(٣) قولهم بقدم العالم وأزليته .

وليس بين المسلمين من ذهب إلى شىء من هذه المسائل — وأما ما وراء ذلك من نفى الصفات وقولهم إنه عالم بالذات وما يجرى مجراه ، فمذهبهم فيه قريب من مذهب المعتزلة ، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك ، ومن رأى تكفير أهل البدع من فرق الإسلام ، كفرهم من أجل هذه المسائل السبع عشرة .

وقد ندد الغزالى فى تهافته بالفلاسفة ، ورماهم بالغباوة والحمق والزيغ وسوء الظن بالله ، والغرور والادعاء والاعتداء بالعقل ونحوه ، ولكن تكفيرهم كان أقسى ما فى حملته التى أماتت الفلسفة فى الشرق الإسلامى — فيما لاحظ المستشرق مونك — وضعضعت التفكير الفلسفى فى العالم الإسلامى وسخرت الدراسات الفلسفية لخدمة الدين باقتباسات من أرسطو أو ابن سينا أو غيرهما ، وانصرف المفكرون فى المغرب الإسلامى عن الطبيعة وما بعد الطبيعة ، واتجهوا إلى العلوم العملية من أخلاق وسياسة — فيما لاحظ المستشرق دى بوير .

وليس بدعاً منه هذا الهجوم ، فإن علماء الكلام — فيما يقول البارون

كارادى فو فى كتابه عن الغزالى ، قد زاولوا محاربة الفلاسفة منذ ظهرت مدارس الفلسفة ، لأن مذاهبهم — بالغاً ما بلغ إخلاصهم فى إيمانهم — خطر يهدد الدين فى رأى حماته ؛ لأنهم يعتزون بالعقل أكثر مما ينبغى .

ولكن من الإنصاف لهذا الرجل أن نقول إنه مع عدائه للعقل ومحاولته دحض الفلسفة ، لم يحرّم الفلسفة جملة من غير تفصيل ؛ لأن « الخلاف بينهم وبين غيرهم من الفرق ثلاثة أقسام : قسم يرجع النزاع فيه إلى اللفظ ، وقسم لا يصدم مذهبهم فيه أصلا من أصول الدين ، والقسم الثالث ما يتعلق النزاع فيه بأصل من أصول الدين ، كالقول فى حدث العالم وصفات الصانع وبيان حشر الأجساد والأبدان ، ثم يعقب قائلا فى تهافته « فهذا الغش ونظائره هو الذى ينبغى أن يظهر فساد مذهبهم فيه دون ما عداه » . ثم هو — على ما أشرنا من قبل — يشكو فى « معيار العلم » وفى « المنقذ » من نفرة رجال الدين من الحساب والمنطق لمجرد أنهما من علوم الفلاسفة الملحدين ، وهو يقرر أن الرياضيات مفيدة فى ذاتها ، وأنها فى أصلها لا تتعلق بالدين نفياً أو إثباتاً ، وإن عاد فحذر مما ينجم عنها من آفات ينص عليها فى المنقذ وفاتحة العلوم معا .

ولم يكن الغزالى أول من اضطلع بالتصدى لمهاجمة الفلاسفة وتبيان باطلهم ، فقد سبقه إلى ذلك ابن حزم فى فصله ، والجوينى فى برهانه فى أصول الدين وإرشاده فى قواعد الاعتقاد ، وغير هذين من أسلافه ، ولكن الغزالى كان فى مجال الهجوم على الفلاسفة وتفنيد مزاعمهم ، أقواهم حملة وأغزرهم مادة وأصلبهم قناة وأطولهم باعاً ؛ فطبع هذه الحملة بطابعه القوى الغلاب ، وبهذا مكن لها وهيأ أذهان الناس لقبولها ، ومهد الطريق للتنكيل بالفلسفة على يد ابن الصلاح وأمثاله . وإذا كان بين من تقدموا الغزالى من حارب الفلسفة فى غير رفق ولا هوادة ، فقد كان هذا الصنف ممن لم يتذوقوا طعم الفلسفة ، ومن هنا بدا الخلط فى كلامهم ، ومن أمثلة هذا قول الخوارزمى + ٣٨٣ هـ (٩٩٣ م) فى « الباب الثالث فى الرد على الفلاسفة » من كتابه

« مفيد العلوم ومبيد الهموم » : « وهم قوم من اليونانيين تحذلقوا فى المقالات حتى وقعوا فى وادى الحيرة والخباط — وهو كالمجنون وليس به — وتحيروا فى الإلهيات ، وبنوا مقالاتهم على التشهى المحض والدعاوى الصرف ويزعمون أنهم أكيس خلق الله ، وسياق مذهبهم يدل على أنهم أجهل خلق الله وأحمق الناس ، وأساس الإلحاد والزندقة مبنىٌّ على مذهبهم : والكفر كله شعبة من شعبهم . . » ويمضى بعد هذا إلى ذكر شىء من مذاهب سقراط وأفلاطون وأرسطو عن جهل بهذه المذاهب .

موقف ابن رشد من الدين والفلسفة :

قضت حملة الغزالى على الفلاسفة فى الشرق الإسلامى بل امتد لهيبها إلى الغرب الإسلامى وأتى على التفكير الفلسفى عند أهله ؛ ولما مات الحكم الذى بعث الحركة العلمية وأجزل لأهلها العطاء ، خلفه ابنه هشام الذى اغتصب ملكه الحاجبُ المنصور ، وناهض العلم واضطهد العلماء والفلاسفة ، وحاصر قرطبة وأسقط قصر الخلفاء ، وأمر بإحراق ما فيه من كتب الفلسفة والمنطق والفلك ، فأحرقت فى ساحات قرطبة أو طرحت فى آبارها ، وبيع سائر الكتب فى الأسواق بأبخس الأثمان : وقد فعل هذا كله رغبة منه فى استمالة رجال الدين وترضى الشعب بعد اغتصابه الملك من هشام ، وليكون بهذا بطل الدفاع عن شريعة الناس ودينهم . ثم خلفه الخليفة عبد المؤمن الذى اجتمع فى بلاطه أعظم فلاسفة العصر ، وفى طليعتهم ابن رشد ، فشجعه الخليفة على شرح كتب أرسطو ، فاستجاب له وكان الشارح الأعظم . . .

وكان على ابن رشد أن ينتصف للفلسفة من هجمات الغزالى ، فوضع كتابه « تهافت التهافت » ليدحض به حملة الغزالى ، وليثبت إمكان التوفيق بين الدين والفلسفة ، فمهد إلى هذا « بالاستدلال بالقرآن على وجوب النظر العقلى » ومتى صح هذا وجب الانتفاع بتراث اليونان ، ومحاولة التوفيق بين حرفية النص وتراث العقل القديم ، بتأويل ظاهر النصوص وجعلها متمشية مع منطق العقل السليم ، وقد وقف على هذه الغاية كتابيه : « فصل المقال

فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » و « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الأمة » ومرد الأمر فى هذا إلى أن للآيات ظاهراً وباطناً ، ولا ينبغى أن نقف عند الظاهر حتى لا تتكشف العلاقة بين الدين والعقل عن تناقض وتنافر ، وإن كان من الخير للعامة أن يقفوا عند ظاهر النص ، لأن التأويل يضرهم ولا يجدى معهم فتيلا .

وقد حاول ابن رشد أن يوفق بين الوحى والعقل ، فصرح بأن للعقل ميدانا يُحسن التفكير فيه ، فإن تجاوزه ضل سبيلا ، ومن هنا مست الحاجة إلى الوحى الذى جاء متمماً للعقل ، فمن ذلك معرفة الله تعالى والسعادة والشقاء فى الدنيا والآخرة وأسبابها ووسائلها . . . واتصال الإنسان بالعقل الفعال يسلم إلى هذه السعادة ، ويلهم العقل الحقائق ، وقد فصل ابن رشد فى بيان طرق الاتصال وكيفيته ، فليرجع إلى كتاباته من شاء مزيدا .

وحاول ابن رشد أن يرد على الغزالى معنياً بالمسائل الثلاث التى كفر الفلاسفة من أجلها ، وهى إنكار بعث الأجساد ، وقدم العالم ، وقصر علم الله على الكليات ، ولكن التوفيق قد أخطأه فى ذلك ، وإن كانت المحاولة ذاتها كفيلة بتقدير صاحبها ، وإثابته على ما قدم من جهود طيبة[1] .

محنة ابن رشد :

وقد خلف يعقوب الملقب بالمنصور أباه يوسف أبا يعقوب ٥٨٠ هـ ، ورغم ما صادفه ابن رشد فى رحاب هذا الخليفة من عطف وتقدير ، فقد ثارت الريب والظنون بعقيدته ، ومهد هذا لمحنته بعد ، وذلك أن المنصور قد أضمر له الشر ، فجمع كبار الفقهاء فى قرطبة وعرض عليهم كتب ابن رشد ، توطئة لتعليلها أو تحريمها ، ويقول الأنصارى فى وصف هذا المجلس :

« لما قرئت (فلسفة ابن رشد) بالمجلس ، وتُدوولت أغراضها ومعانيها ،

(١) انظر تعليقنا المنشور فى هامش ص ٣١٠ و ٣١٣ فى ترجمتنا للفلسفة والإلهيات فى كتاب تراث الإسلام .

وقواعدها ومبانيها ، خرجت بما دلت عليه أسوأ مخرج ، وربما ذيلها مكر الطالبين ، فلم يمكن عند اجتماع الملأ : إلا المدافعة عن شريعة الإسلام ، ثم آثر الخليفة فضيلة الإبقاء ، وأغمد السيف التماس جميل العزاء ، وأمر طلبة مجلسه وفقهاء دولته بالحضور بجامع المسلمين ، وتعريف الملأ بأنه (ابن رشد) مرق من الدين ، وأنه استوجب لعنة الضالين . وأضيف إليه القاضي أبو عبد الله ابن ابراهيم الأصولي في هذا الازدحام ، ولف معه في فريق هذا الملام . . . ثم أمر أبو الوليد (ابن رشد) بسكنى اليسانة (بقرب قرطبة وسكانها من اليهود) لقول من قال إنه ينسب في بني إسرائيل وأنه لا يعرف له نسبة في قبائل الأندلس ، وتفرق تلاميذه أيدى سبا » .

وفي المجلس السالف الذكر ، مثل القاضي أبو عبد الله ابن مروان المدعى العام ، إذ نهض برفع الدعوى على ابن رشد ، ثم نهض بتعريف الناس بالاتهام الخطيب أبو علي بن حجاج ، ولم يدافع ابن رشد عن نفسه ، ولم ينهض لهذا الدفاع أحد من أصدقائه ؛ وبعد هذا صدر الحكم بنفيه على ماعرفنا ، ثم نشر الخلية في الأندلس والمغرب منشوراً كتبه كاتبه أبو عبد الله ابن عياش لتحريم الفلسفة وإعدام كتبها واضطهاد رجالها ، وتحذير الناس من شرها كأنما كان قيام الفلسفة واشتغال المفكرين بها ، ونهوض العقل بأداء وظيفته الطبيعية في النظر العقلي ، مرهوناً بقرار يدعو إليه خصومها ، ويصدره من يستجيب إليهم من الحكام . . . !! وهذا هو نص المنشور :

منشور بتحريم الفلسفة :

« قد كان في سالف الدهر قوم خاضوا في بحور الأوهام ، وأقر لهم عوامهم بتفوق عليهم في الأفهام ، حيث لا داعى يدعو إلى الحى القيوم ، ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم ، فخلدوا في العالم صحفاً ما لها من خلاق ، مسودة المعاني والأوراق ، بُعدها من الشريعة بُعد المشرقين ، وتباينها تباين الثقلين ، يوهمون أن العقل ميزانها ، والحق برهانها ، وهم يتشعبون في القضية الواحدة فِرَقا ، ويسيرون فيها شواكل وطرقا ، ذلك بأن

الله خلقهم للنار ، وبعمل أهل النار يعملون ، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون ! .

« ونشأ منهم فى هذه السمحة البيضاء شياطين أنس يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ، فكانوا عليها أضر من أهل الكتاب ، وأبعد عن الرجعة إلى الله والمآب ، لأن الكتابى يجتهد فى ضلال ، ويجد فى كلال ، وهؤلاء جهدهم التعطيل ، وقصاراهم التمويه والتخييل ، دبت عقاربهم فى الآفاق برهة من الزمان ، إلى أن أطلعنا الله سبحانه منهم على رجال ، كان الدهر قد أملى لهم على شدة حروبهم ، وأغنى عنهم سنين على كثرة ذنوبهم ، وما أملى لهم إلا ليزدادوا إثما ، وما أمهلوا إلا ليأخذهم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما .

« وما زلنا — وصل الله كرامتكم — نُذكرهم على مقدار ظننا فيهم ، وندعوهم على بصيرة إلى ما يقربهم إلى الله سبحانه وتعالى ويدنيهم : فلما أراد الله فضيحة عمايتهم وكشف غوايتهم ، وقف بعضهم على كتب مسطورة فى الضلال ، موجبة أخذ صاحبها بالشمال ، ظاهرها موشح بكتاب الله ، وباطنها مصرّح بالإعراض عن الله ، ليس منها الإيمان بالظلم ، وجىء منها بالحرب الزبون فى صورة السلم ، مزلة للأقدام ، وهم يدب فى باطن الإسلام ، أسياف أهل الصليب دونها مفلولة ، وأيديهم عما يناله هؤلاء مغلولة ، فإنهم يوافقون الأمة فى ظاهرهم وزيهم ولسانهم ، ويخالفونهم بباطنهم وغيهم وبهتانهم .

« فلما وقفنا منهم على ما هو قذى فى جفن الدين ، ونكتة سوداء فى صفحة النور المبين ، نبذناهم فى الله نبذ النواة ، وأبغضناهم فى الله كما أننا نحب المؤمنين فى الله ، وقلنا اللهم إن دينك هو الحق اليقين ، وعبادك هم الموصوفون بالمتقين ، وهؤلاء قد صدفوا عن آياتك ، وعمت أبصارهم وبصائرهم عن بيناتك ، فباعد أسفارهم ، وألحق بهم أشياعهم حيث كانوا

وأنصارهم ، ولم يكن بينهم إلا قليل وبين الإلجام بالسيف فى مجال ألسنتهم ، والإيقاظ بحدة من غفلتهم وسنتهم ، ولكنهم وقفوا موقف الخزى والهون ، ثم طردوا من رحمة الله ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون .

« فاحذروا — وفقكم الله — هذه الشرذمة على الإيمان ، حذركم من السموم السارية فى الأبدان ، ومن عُثر له على كتاب من كتبهم ، فجزاؤه النار التى بها يعذب أربابه ، وإليها يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآبه ، ومتى عثر منهم على مُجد فى غلوائه ، عَمٍ عن سبيل استقامته واهتدائه ، فليعاجل بالتثقيف والتعريف .

« ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تُنصرون — أولئك الذين حبطت أعمالهم — وأولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون .

« والله تعالى يطهر من دنس الملحدين أصقاعكم ، ويكتب فى صحائف الأبرار تضافركم على الحق واجتماعكم ، إنه منعم كريم » .

هذا هو المنشور الذى ظن مصدروه والمروجون له أنهم بهذا قد قضوا على الفلسفة وأعدموا كتبها وأزالوا من الوجود المشتغلين بها ، فكتب للفلسفة الخلود ولخصومها الفناء . وقد نكب مع ابن رشد أبو جعفر الذهبى والقاضى عبد الله بن ابراهيم الأصولى ، وأبو الربيع الكفيف وأبو العباس الشاعر . . . وقد نفاهم المنصور إلى غير المنفى الذى استقر فيه ابن رشد .

يقول الذهبى : إن المنصور قد كتب إلى البلاد يأمر بإحراق الكتب ، إلا ما كان منها فى الطب والحساب والمواقيت ، وقد استيقظ الشعر وأيد نار الفتنة ، فسار أهله فى ركاب هذه الحملات ، ومن ذلك قول ابن جبير :

لم تلزم الرشد يا بن رشد لما علا فى الزمان جِدك
وكنت فى الدين ذا رياء ما هكذا كان فيه جِدك

ويقول :

نفذ القضاء بأخذ كل مموه متفلسف فى دينه متزندق
بالمنطق اشتغلوا فقيل حقيقة إن البلاء موكل بالمنطق

ويقول :

خليفة الله أنت حقـــا فارق من السعد خير مرقى
حميتم الدين من عداه وكل من رام فينـــا فتقا
أطلعـــك الله سرّ قوم شـــقوا العما بالنفاق شقا
تفلسـفوا وادعوا علوماً صاحبها فى المعـــاد يشقى
واحتقروا الشرع وازدروه ســـفاهة منهم وحمقـــا
أوسعتهم لعنـــاً وخزيا وقلت بُعـــداً لهم وسحقا
فابق لدين الإله كهفا فإنه ما بقيت يبقى

ويقول :

بلغت أمير المؤمنين مدى المنى لأنك قد بلغتنـــا ما نؤملُ
قصدت إلى الإسلام تعلى مناره ومقصدك الأسنى لدى الله يقبلُ

إلى أن يقول :

وأوعزت فى الأقطار بالبحث عنهم وعن كتبهم والسعى فى ذاك أجمل
وقد كان للسيف اشتياق إليهم ولـكن مقام الخزى للنفس أقتلُ

كانت هذه المحنة انتصاراً لرجال الدين على أهل الفلسفة فى هذه الفترة من الزمن كما لاحظ رينان من قبل ، وإن كان انتصاراً لم يكن فى حكم العقل أن يكتب له الدوام ! وقد طال الأمد الذى ركدت فيه ريح الفلسفة فى العالم الإسلامى ، ولـكن قد آن لها أن تبعث من جديد .

ويقول ابن رشد : إن أعظم ما آلمه فى محنتــه أنه دخل مع ابنه مسجداً فى قرطبة وقد حانت صلاة العصر ، فثار بعض سفلة العامة وأخرجوهما من المسجد . . ! فإن صح هذا استبعد ما قيل من أنه فر من منفاه إلى فاس ، وأن أهلها أمسكوه ونصبوه أمام باب المسجد ، للبصق عليه عند الدخول والخروج ! .

على أن محنته لم يطل أمرها ، فقد استجاب الخليفة لمسعى الوسطاء ، فعفى

عنه وعن أصحابه ورضى عن الفلسفة وألغى منشور تحريمها والتنكيل برجالها .

وقد رد رينان Renan هذه المحنة وأمثالها من وجوه الاضطهاد الذى عاناه أحرار الفكر ، إلى تعصب الموحدين ، وصرح بأنهم يتصلون بمدرسة الغزالى اتصالا مباشراً ، وأن المهدى مؤسس دولتهم فى إفريقية كان يتتلمذ على حجة الإسلام .

وقد لاحظ المستشرقون قبل هذا أن الفلسفة قد تلاشت فى العالم الإسلامى بعد ممات ابن رشد (٧٩٥ هـ — ١١٩٨ م) فلم يعرف تاريخ الفلسفة واحداً من تلامذته قد واصل فلسفته فيما يقول « دى بوير » ، ولم يعرف العالم الإسلامى منذ مطلع القرن الثالث عشر فيلسوفاً مشائياً خالصاً ، بل عرف مفكرين دينيين كالايجى صاحب المواقف فيما يقول « مونك » . وفقدت الفلسفة الإسلامية بموت ابن رشد آخر ممثليها فى الإسلام كما يقول « رينان » .

وقد مكنت مكانة الغزالى لحملته على الفلاسفة ، وكان لها خطرها المروع على العقل فى نفوس الناس ، وكان العالم الإسلامى مهيئاً لقبولها ، فأسلس لها قياده زمناً طويلا حتى أفاق وزايله النعاس أخيرا .

فتوى ابن الصلاح بتحريم الفلسفة والمنطق :

وقد ظهرت مبالغة المتأخرين من رجال الدين فى النفور من الفلسفة . وكراهية الاشتغال بعلومها والتبرم برجالها من القرن السابع للهجرة ، واتصل العنف فى معارضة المنطق باسم محدث معروف منذ بدء الانحلال ، هو كمال الدين بن يونس الموصلى الذى عاصر ابن خلكان وكان واسع العلم بالأديان والرياضيات والطبيعيات والعلوم الفلسفية والأدبيات ونحوها ، وكان ممن يختلفون إليه ويتلقون عنه : ابن الصلاح الشهرزورى ٦٤٣ هـ الذى أصبح من أكبر أئمة الحديث بعد ذلك ، فقد رحل إلى الموصل ليتعلم عليه المنطق سراً ، وعلى غير جدوى كان تحصيله ، فقال الشيخ لتلميذه : « يافقيه ، المصلحة عندى أن تترك الاشتغال بهذا الفن » فقال له : « ولم ذلك

يامولانا ؟ ، قال : « لأن الناس يعتقدون فيك الخير وهم ينسبون كل من اشتغل بهذا الفن إلى فساد الاعتقاد ، فكأنك تفسد عقائدهم فيك ، ولا يحصل لك من هذا الفن » واستجاب ابن الصلاح لرأيه ، فترك الاشتغال بالمنطق وخاصمه باسم الدين خصاماً عنيفاً ، وبدا هذا فى فتواه المعروفة التى أجاب بها عن سؤال هذا ملخصه : هل الشارع قد أباح الاشتغال بالمنطق تعلما أو تعليما ، وهل يجوز أن تستعمل الاصطلاحات المنطقية فى إثبات الأحكام الشرعية ؟ وماذا يجب على ولى الأمر فعله بإزاء شخص من أهل الفلسفة معروف بتعليمها والتصنيف فيها وهو مدرس فى مدرسة من المدارس العامة . ؟

فأجاب ابن الصلاح قائلا : الفلسفة أس السفه والانحلال ، ومادة الحيرة والضلال ، ومثار الزيغ والزندقة ، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المطهرة ، المؤيدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة ، ومن تلبس بها تعلماً قارنه الخذلان والحرمان ، واستحوذ عليه الشيطان ، وأى فن أخزى من فن يعمى صاحبه ويظلم قلبه عن نبوة نبينا . . . .

وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة ، ومدخل الشر شر ، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشرع ، ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والسلف الصالحين ، وسائر من يقتدى به من أعلام الأمة وساداتها ، وأركان الأمة وقادتها ، قد برأ الله الجميع من ذلك وأدناسه فطهرهم من أوصابه . وأما استعمال الاصطلاحات المنطقية فى الأحكام الشرعية فمن المنكرات المستبشعة والرقاعات المستحدثة ، وليس بالأحكام الشرعية — والحمد لله — افتقار إلى المنطق أصلا . وما يزعمه المنطقى للمنطق من أمر الحد والبرهان فقعاقع ، قد أغنى الله عنها كل صحيح الذهن لا سيما من خدم نظريات العلوم الشرعية . ولقد تمت الشريعة وعلومها ، وخاض فى بحر الحقائق والدقائق علماؤها ، حيث لا منطق ولا فلسفة ولا فلاسفة . ومن زعم أنه يشتغل مع نفسه بالمنطق والفلسفة لفائدة يزعمها ، فقد خدعه الشيطان ومكر به ، فالواجب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المياشيم (لعلها المشائيم) ويخرجهم

عن المدارس ويبعدهم ، ويعاقب على الاشتغال بفنهم ، ويعرض من ظهر منه اعتقاد عقائد الفلاسفة على السيف أو الإسلام ، لتخمد نارهم وتمحى آثارها وآثارهم ، يسر الله ذلك وعجله . . ! ومن أوجب هذا الواجب ، عزل من كان مدرس مدرسة من أهل الفلسفة والتصنيف فيها والإقراء لها ، ثم سجنه وإلزامه منزله ، وإن زعم أنه غير معتقد لعقائدهم ، فإن حاله يكذبه ، والطريق فى قلع الشر قلع أصوله ، وانتصاب مثله مدرساً من العظائم جملة ، والله تعالى ولى التوفيق والعصمة وهو أعلم » .

وقد سئل ابن الصلاح يوماً عن حكم الشرع فيمن يدرس ابن سينا ومصنفاته ؟ فقال : « إن من فعل ذلك فقد غدر دينه وتعرض للفتنة العظمى . . لأن ابن سينا لم يكن من العلماء ، بل كان من شياطين الإنس ! » .

أثر فتوى ابن الصلاح فيمن تلاه :

هذه هى الفتوى التى وضعها صاحبها ليتهنه من جموح الفلسفة ويطامن من شرها ، فأضحت وثيقة عند أهل السنة ، يستندون إليها كلما هموا بمهاجمة الفلسفة والمنطق ، ومالوا إلى اضطهاد المشتغلين بهما ، وفى الحق لقد ناءت الفلسفة بعبء هذه الحملات التى أنقضت ظهرها ، وأحرجت صدرها وشتتت أتباعها ، وملأت قلوب الناس ضيقاً بها وسخطاً على أهلها .

ولعلنا لاحظنا من خلال هذه الفتوى : عند الحديث عن استخدام المنطق فى الأحكام الشرعية ، أن ابن الصلاح يعرّض بالغزالى الذى أدخل فى هذه الأحكام مناهج المنطق ، ومن الطريف أن ابن الصلاح نفسه قد استخدم مناهج المنطق فى بعض أدلته التى هاجم فيها المنطق ![1] .

والنغمة التى نلاحظها فى هذه الفتوى قد ترددت فى أقوال من خاصموا الفلسفة بعد ذلك ، ومن هؤلاء طاش كبرى زاده + ٩٦٢ هـ (١٥٥٤ — ٥٥) الذى يقول فى « مفتاح السعادة ومصباح السيادة » : « وإياك أن تظن من كلامنا

(١) انظر مثلا قوله : إن المنطق مدخل الفلسفة ، ومدخل الشر شر !

هذا أو تعتقد أن كل ما أطلق عليه اسم العلم ، حتى الحكمة المموهة التى اخترعها الفارابى وابن سينا ، ونقحه نصير الدين الطوسى ، ممدوحا ، هيهات هيهات ، إن ما خالف الشرع فهو مذموم ، سيما طائفة سموا أنفسهم حكماء الإسلام ، عكفوا على دراسة ترهات أهل الضلال وسموها الحكمة ، وربما استهجنوا من عرى عنها ، وهم أعداء الله وأعداء أنبيائه ورسله ، والمحرفون كلم الشريعة عن مواضعه . . . . قيل (فيهم) :

وما انتسبوا إلى الإسلام إلا   لصون دمائهم عن أن تسالا
فيأتون المناكر فى نشاط   ويأتون الصلاة وهم كسالى

فالحذر الحذر منهم ! وإنما الاشتغال بحكمتهم حرام فى شريعتنا ، وهم أضر على عوام المسلمين من اليهود والنصارى ، لأنهم متسترون بزى الإسلام ... الخ

ومن آثار فتوى ابن الصلاح ، ما أصاب الآمدى + ٦٣١ من جراء اتهامه بالاشتغال بالفلسفة والمنطق ، فقد كان واسع الاطلاع فى العلوم الدينية والعلوم القديمة على السواء ، وقد نزل بالقاهرة وتولى تدريس العلوم الشرعية بها ، ولكن شهرته بالاشتغال بالفلسفة (المنطق بوجه خاص) قد آذته كثيرا ، رغم أنه كان لايدخل شيئاً من العلوم الفلسفية فى دروسه ! حين اتهم بأنه فاسد العقيدة يقول بالتعطيل ويذهب مذهب الفلاسفة . وقد كتب بهذا محضر وقع عليه الكثيرون ، وأعلنوا فيه استباحة دمه فيما يروى ابن خلكان . . ! ولكنه فر إلى الشام ، وقام بالتدريس فى مدرسته بدمشق . فاتهم بمثل ما اتهم به فى القاهرة ، وعزل من منصبه . . !

حرم المنطق على المؤمنين بعد فتوى ابن الصلاح ، ولكن اشتغال الغزالى به ، قد ألان من أحكام خصومه على المشتغلين به ، فمن ذلك أن تاج الدين السبكى الشافعى + ٧٧١ ﻫ كان خصيما عينداً للفلسفة حتى جره هذا إلى معاداة المتأخرين من المتكلمين الذين مزجوا كلامهم بكلام الفلاسفة ، ! وحمله على أن يوافق من غير قيد ولا شرط فيما يقول فى « مفيد النعم ومبيد النقم » على

ما أفتى به جماعة من أئمتنا ومشايخنا ومشيخة مشيختنا بتحريم الاشتغال بالفلسفة ، ومع هذا يرى إمكان الاشتغال بالمنطق متى اطمأن المشتغل به على قواعد الشريعة فى قلبه .

عداء ابن تيمية وابن قيم الجوزية للفلسفة :

ولا يملك الباحث فى هذا الموضوع أن يغفل عن ذكر ابن تيمية الحنبلى الكبير ٧٢٩ ﻫ فى عدائه المرير للفلسفة . وقد بدا هذا فى مؤلفاته ، ولا سيما « الرد على عقائد الفلاسفة » و « نصيحة أهل الإيمان فى الرد على منطق اليونان »، وهو الذى لخصه السيوطى بعد ذلك وسماه « جهد القريحة فى تجديد النصيحة » وزاد فألف « صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام » واتجه فى هذه المباحث كلها إلى تحريم الاشتغال بالمنطق .

وقد جرى ابن قيم الجوزية ٥٧١ ﻫ مجرى أستاذه ابن تيمية فى عدائه للفلسفة ، ولكنهما كانا — فيما يقول أستاذنا الأكبر المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق « ممن اتصل بها — بالفلسفة — وألم بعلومها فيما ألما به من مختلف العلوم ، وأسلوبهما فى النقد والجدل عنيف ، غير أن نفحات النظر العميق والاطلاع الواسع تخفف من لذع أسلوبها » .

وقد عرض ابن قيم فى «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة » لنقد العلوم الفلسفية والإبانة عن تهافت المنطق وقلة جدواه ، وأشار فى حديثه إلى صلته بالدين وحكم الشرع فى تعلمه ، ومما قاله فى ذلك :

واعجباً لمنطق اليونان كم فيه من إفك ومن بهتان
مخبط لجيد الأذهان ومفسد لفطرة الإنسان
مضطرب الأصول والمبانى على شفا هار بناه البانى
أحوج ما كان إليه العانى يخونه فى السر والإعلان
يمشى به اللسان فى الميدان مشى مقيد على صفوان
متصل العثار والتوانى كأنه السراب بالقيعان

بدا لعين الظمىء الحيران　　فأمه بالظن والحسبان
يرجو شفاء غلة الظمآن　　فلم يجد ثم سوى الحرمان
فعاد بالخيبة والخسران　　يقرع سن نادم حيران
قد ضاع منه العمر فى الأمانى　　وعاين الخفة فى الميزان

ثم يعود إلى مهاجمته للمنطق نثراً حتى يقول: «وما دخل المنطق على علم إلا أفسده وغير أوضاعه وشوش قواعده».

قيام الفلسفة فى الإسلام رغم حملات خصومها :

ولكن من الإنصاف أن نقول بعد هذا كله، ما قاله «جولدتسيهر» من قبل: «من أن الرأى المتعصب الذى قضى بتحريم المنطق، لم يقدر له التوفيق فى السيطرة على الدراسات الدينية الإسلامية، فقد احتلت متون المنطق — للأبهرى والكاتبى والأخضرى وغيرها — مكاناً فى التدريس إلى جانب العلوم الإسلامية، ويشهد هذا بأن معارضة المتعصبين فى مهاجمة المنطق قد ذهبت هباء، بل استند علم الكلام فى إقامة قواعده ومقدماته وتطوره إلى الفلسفة الأرسطاطاليسية — ولا سيما منذ أيام الفخر الرازى ٦٠٦ هـ. وما أكثر ما وضع فى المنطق حديثاً من فنون وشروح وتعليقات ومنظومات؛ ومثل هذا يقال فى غير المنطق من علوم الأوائل، وهذا هو الشاهد العدل على أن تزمت غلاة المتعصبين من رجال الدين لم يقض على الدراسات الفلسفية وإن كان قد مكن لإيذاء بعض المشتغلين بها، ثم إن رجال السنة فى أيامنا الحاضرة قد كفُّوا عن مقاومة العلوم الفلسفية فى وضعها الراهن، وتوقفوا عن معارضتها والسخط عليها.

ولم يمنع تزمت المتطرفين من ظهور أمثال زكريا الرازى الذى هاجم الأديان والكتب المقدسة، وتطاول على القرآن الكريم، وصرح بإبطال النبوة، بل لم يحل هذا التزمت دون ظهور ابن الراوندى — فى القرن الثالث للهجرة — بإلحاده المفجع، كما بدا فى كتابه الزمرد الذى كشفه پاول كراوس،

وغير هذا من آثاره التى هاجم فيها النبوة والقرآن ، وأعتز بالعقل وجعله الأداة الوحيدة للمعرفة ، والحكم الثقة حتى فى شئون الدين[1] .

لم تؤثر الحملات التى شنها على التفكير الفلسفى المتزمتون من أهل السنة ، لأن الدين الإسلامى فى أصله لا يعوق طلاقة النظر العقلى ، ولا يعرقل حريته ، ولو كانت تقاليد الإسلام تميل أصلا إلى التنكيل بأحرار الفكر ، لحالت دون هذا حاجة المتعصبين إلى « سلطة » تمكنهم من اجتياح خصومهم ، والسير على جثثهم ؛ وقد خلت الآيات القرآنية والمعتمد من الأحاديث النبوية من نص يشجع على عرقلة الفكر الحر والتنكيل بأهله ، وسنعرف بعد قليل علة الاضطهاد فى بعض ما عرفنا من حالات .

على أن تيار الحركات العقلية فى العالم الإسلامى قد اشتد فى عهده الأخير ، فأخذ المستنيرون من رجال الدين يسيرون فى اتجاهه ، ويتمشون مع مقتضياته ، وقد استلزم هذا النوع منهم أن يعملوا على التوفيق بين المبادئ الجديدة وتعاليم الدين ، وإلى مثل هذا ذهب محمد عبده والكواكبى ومحمد بخيت ومحمد فريد وجدى والغلايينى وغيرهم . . . وطريقتهم فى التوفيق تبدو فى أكثر الأحايين فى تأويل الآيات القرآنية تأويلا يرهق ألفاظها بمعان قد لا تطيقها ، فمن ذلك قول الكواكبى[2] إن الآية « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا وجعل الشمس عليه دليلا » تتضمن — هذه الآية — اختراع آلة التصوير — « الفوتوغرافيا » ! وقوله تعالى : « وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » فيه إشارة إلى اختراع البخار والكهرباء ! وقوله « كل شىء عنده بمقدار » إشارة إلى أن التغير فى التركيب الكيماوى والمعنوى ينشأ عن اختلاف نسبة المقادير ! وإلى مثل هذا ذهب الغلايينى[3] ، حين قال : إن قوله تعالى « صنع الله الذى أتقن كل شىء » إقرار لقانون السببية !! وقوله تعالى

(١) انظر فى تفصيل موقف هذين الملحدين كتاب صديقنا الدكتور عبد الرحمن بدوى « من تاريخ الالحاد فى الإسلام » والكتب التى ذكرناها فى صلب كلامنا .

(٢) الكواكبى : طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ص ٣٥ .

(٣) الغلايينى : الإسلام روح المدنية ص ١٩ وما بعدها .

« يكور الليل على النهار » دليل على كروية الأرض ! وقوله « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب » دليل على دوران الأرض ! . . . الخ وقد رددنا على هذا النزوع فى التأويل ، فى كتاب سابق لنا[١] .

موقف رجال الدين من صوفية الإسلام :

كيف خرج التصوف على أبسط قواعد الدين :

الأصل فى التصوف العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه فيما يقول ابن خلدون ، وأريد بالصوفية الزهدة والعباد والفقراء ، وهى ألفاظ كان يُراد بها شدة العناية بالدين ومراعاة أحكام الشريعة فيما يقول أستاذنا المرحوم مصطفى عبد الرازق .

ولما نشأ البحث فى العقائد عن طريق النظر العقلى واتجه المتكلمون إلى التماس المعرفة ، نزع الصوفية إلى طلب الإيمان والمعرفة عن طريق التصفية والمشاهدة ، وتطلعوا إلى وضع نظرية فى المعرفة وسبل كسبها ، فأصبح التصوف طريقا للعرفان Gnosticism وإذا كانت المعرفة عند العلماء والحكماء والمتكلمين تجىء بالتعلم والبرهان . فإنها عند الصوفية تجىء إلهاما بعد تصفية النفس بالتعبد والمجاهدة وغيرها مما هو معروف عند الصوفية .

ثم تطور التصوف مرة أخرى حين تَطَلّع إلى كشف حجاب الحس ومعرفة ما وراءه والتصرف فى الكون بأنواع الكرامات والتعرض للشطح ، والتعبير عن الوجد بعبارات مستغربة ، وفلسف الصوفية التجربة الروحية التى كانوا يقنعون بأن يعيشوها ، وانتهى غلاتهم إلى نظريات يتنافى ظاهرها مع أبسط قواعد الدين الإسلامى وتعاليمه .

وقد نشأ هذا التصوف النظرى أو الإشراقى فى القرن الثالث للهجرة ،

---

(١) توفيق الطويل : التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام ص ٣٥ — ٣٦ .

واعتبر « نيكلسون » Nickolson ذا النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ هـ أحق أهل التصوف إطلاقا بأن يكون مؤسس هذا النوع من التصوف ، وجاء أبو اليزيد البسطامى فنشأت على يديه نظرية الاتحاد — اتحاد الإنسان بالله — وكانت له شطحات جذب أخرجته عن حده كقوله : إنى أنا الله ، لا إله إلا أنا فاعبدونى !! سبحانى ما أعظم شأنى !! إلى آخر هذه الشطحات المثيرة .

وعُرف مثل هذه الشطحات عند الحلاج (المقتول عام ٣٠٩ هـ) فقال قولته المعروفة : أنا الحق (أى الله) إننى ما زلت أبداً بالحق حقاً . وعلى يديه نشأ مذهب الحلول ، أى حلول الله فى مخلوقاته . . !!

ونضج التصوف الإشراقى على يد السهروردى المقتول عام ٥٨٧ هـ وفيه رأى أن المتصوف يتصل بالنفوس الفلكية ويأخذ عنها العلم بالغيب كما سنعرف بعد قليل .

وتطور اتحاد البسطامى وحلول الحلاج إلى نظرية كاملة فى وحدة الوجود عند ابن عربى المتوفى عام ٦٣٨ هـ وفيها توحد الخالق والمخلوق فى حقيقة واحدة . . ! وانتفت الثنائية التى أقرتها الأديان كلها .

ضيق أهل السنة بالتصوف الجامح :

كان طبيعياً بعد الذى أسلفناه أن يضيق أهل السلف بالتصوف الذى تسللت إليه النظرات الفلسفية الجامحة فى المعرفة والوجود ، وأبعدته عن أبسط قواعد العقيدة الدينية البسيطة ، وقد تصدى الأشاعرة لإنكار المذاهب الجامحة من اتحاد وحلول ووحدة وجود ، وظهر من بينهم صوفى كبير أنشأ تصوفا يجرى على الكتاب والسنة ، ذلك هو الغزالى المتوفى عام ٥٠٥ هـ وضاق الفقهاء والمتكلمون بهؤلاء الصوفية الذين ينشدون الضمير ويحتكمون إلى قضائه الباطن ، لأن شريعة القرآن تحاسب الناس على ما ظهر من أعمالهم ولا حيلة لها مع النفاق فى الدين ، وقد سبق الخوارج إلى معاداة الصوفية وتبعهم فى ذلك الإمامية فى القرن الثالث للهجرة ، وأجمع أهل السنة على إنكار

التصوف وقام بدحضه فرقتان من أهل السلف هما الحشوية مؤتمين فى ذلك بابن حنبل ثم فرقة أخرى يمثلها حشيش وأبوزرعة من تلامذة ابن حنبل الذين اعتبروا الصوفية من طوائف الزنادقة ؛ واستنكر الظاهرية العشق . . . إلى آخر ما يقوله المستشرق ماسنيون .

بل أخذت تظهر طوائف الصوفية منذ أواخر القرن السادس للهجرة ، فظهرت القادرية والرفاعية والشاذلية وغيرها وأنشئت الزوايا والخوانق والربط يقيم فيها شيوخ الصوفية مع مريديهم ، طاعمين كاسين منقطعين لعبادة الله ، إلا أن هذا النوع من التصوف الجمعى قد دخله الفساد حين اعتنقه العامة والدجالون واتخذوه أداة للكسب الرخيص ، مع تحررهم من قيود الشريعة حتى صرح بعضهم بأن الصوفى يلتزم العمل بأوامر الله ونواهيه حتى يصل إلى الله ، فإذا وصل بتصوفه أحل له ما حرم على غيره ، وعندئذ تسقط عنه التكاليف الدينية . . !! ولم يكن من المعقول أن يسكت على هذا العبث رجال الدين(١) وإن كان المعروف فى الإسلام أن أهل السنة لم يقولوا بمروق المعتدلين من الصوفية .

مأساة الحلاج والسهروردى :

كان طبيعيا أن يضيق الفقهاء بشطحات غلاة الصوفية ، وأن يمسهم السخط كلما رأوا فى عباراتهم أو سلوكهم نبوا عن تعاليم الدين وأحكامه ، وكان أكبر خصوم الصوفية وأقساهم نقداً وتجريحا هو الفقيه الحنبلى ابن تيمية ٧٢٨ وعلى هداه سار غيره من الفقهاء ولكنهم لم يكونوا أصحاب سلطة زمنية تمكنهم من التنكيل بهؤلاء الذين اعتبروهم فى عداد الزنادقة والمارقين ، وحالات الاضطهاد والتنكيل التى عرفها تاريخ التصوف فى الإسلام مردها إلى بواعث

---

(١) انظر هذا كله مفصلا فى كتبنا :

١ — الفصل الثالث من الباب الرابع فى كتابنا أسس الفلسفة فى طبعته الثالثة .

٢ — التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى .

٣ — الشعرانى إمام التصوف فى عصره .

شخصية أو دوافع سياسية ، استجاب فيها أصحاب السلطان لأهواء العامة وحققوا آمال أصحاب هذه البواعث والدوافع ، وهذه الحالات قليلة على أى حال ، وأظهرها جميعاً مقتل الحلاج ومصرع السهروردى ، ولهذا آثرنا أن نقف عند كليهما قليلا :

مصرع الحلاج :

كان الحسين بن منصور الحلاج يجمع بين التصوف والكلام[١] ، انحدر عن حفيد مجوسى من عبدة النار — وقيل إنه من سلالة الصحابى أبى أيوب — ولما انتهى من دراسة التصوف على شيوخه نهض بالدعوة بين الناس إلى الزهد والتصوف ، ولكنه اعتنق دعوة القرامطة وتصدى للتبشير بها فى خراسان وفارس والهند وغيرها ، وعند ما عاد من مكة إلى الأهواز أخذ يعظ الناس فأثار سخط العلماء والصوفية عليه ، وانقسم هؤلاء بين نصير متحمس له ، وخصيم شديد الضيق به ، ومن هؤلاء معتزلة وشيعة قاموا بإثارة حفيظة العامة ضده واتهموه بالشعبذة والاحتيال . . . ولما زار مكة للمرة الثانية اتهمه بالسحر والاتصال بالجن بعض أصدقائه . . ! وبعد حجه الأخير صرح فى بغداد بأنه يتمنى أن يموت كافرا بشريعة الإسلام . . . وأخذ يلقى بأقوال غريبة ويدعو الناس إلى قتله فيؤجرون ويستريح هو بعد ذلك ! وضاق الكثيرون بمذهبه فى الحلول ، وفى مقدمة هؤلاء كبير القضاة بن داود فقدمه للقضاء طالبا إعدامه ؛ ولكن قاضيا شافعيا هو ابن سريج عارض ذلك بحجة أن الإلهام الصوفى لا يدخل فى اختصاص المحاكم ، ووفق فى معارضته ، فنجا الحلاج مؤقتا .

ولما اتهمه المعتزلة بالشعبذة عقب عودته من مكة إلى بغداد عام ٢٩٦ هـ وفق الامامية مستعينين بفتوى من الظاهرية بإخراجه من الطريقة ، وألقى رجال الشرطة القبض عليه مرتين .

وفى سنة ٣٠١هـ أثيرت قضيته فى وزارة ابن عيسى القنانى ، ولكن ابن عمه

(١) يراد بالكلام العلم الذى يستند إلى النظر العقلى فى إثبات العقيدة الدينية ودفع الشبه عنها ، انظر الفصل الثاني من الباب الرابع فى كتابنا أسس الفلسفة .

« حمد » وكان وزيرا فى وزارته قد تمكن من إرجاء النظر فيها ، وإن تيسر لخصومه أن يعرضوا الحلاج مصلوبا ثلاثة أيام بحجة أنه داعى القرامطة ، ثم سجن فى دار السلطان وأذن له فى أن يعظ المسجونين .

وأدت الأزمة المالية فى سنة ٣٠٦ﻫ إلى تشكيل وزارة سنية ثارت بين أعضائها خصومات بدت فيما كان بين محصل الخراج « حامد » والوزير ابن عيسى واستعان أولهما فى هذا النزاع بإثارة قضية الحلاج ، والتآمر مع القاضى المالكى أبى عمر الحمادى على إعدامه فاتهماه بأنه قال بأن فى وسع من يعجز عن القيام بالحج أن يعمد إلى تطهير غرفة فى بيته ويطوف بها « استغناء » عن الحج نفسه ، وإن صح هذا الإتهام شابه رأيه رأى القرامطة المتمردين الذين أرادوا هدم الكعبة ، وجىء بشهود محترفين سلموا بإعدامه مع فقهاء وقراء أضيفوا إلى أعضاء المحكمة حتى بلغ عديدهم أربعة وثمانين ، وحاول أمير البلاط نصر ووالدة الخليفة تخفيف حكم الإعدام ، ولكن خصوم الحلاج لوحوا بنذير ثورة اجتماعية حلاجية فوقع الخليفة الحكم بإعدام الحلاج .

وفى الثالث والعشرين من ذى القعدة أعلنت الأبواق الاستعداد لتنفيذ حكم الإعدام ، وعُهد بالحلاج إلى رئيس الشرطة واتخذت الاحتياطات للحيلولة دون اندلاع ثورة ، وفى اليوم التالى جىء بالحلاج وضرب ألف سوط وبترت يداه ورجلاه وصلب حيا ، والثائرون جادون فى إحراق المحال التجارية ، وجاء أمر الخليفة بإعدامه مساء فأرجىء تنفيذه إلى صباح اليوم التالى : وطلب حامد من الشهود الذين قالوا بإعدامه أن يصيحوا قائلين : نعم ، اقتله ففى قتله صلاح المسلمين ، ودمه فى رقابنا ! . ثم هوى رأسه وصُب على جذعه الزيت وأحرق بالنار . . . ثم ألقى الرماد المتخلف عن جثته المحروقة من أعلى المئذنة فى نهر الدجلة — (وكان هذا فى ٢٦ مارس ٣٠٩ ﻫ / ٩١١ م) .

هذه هى قصة مصرع الحلاج ، والمتتبع لصلة مأساته بالجو السياسى الذى وقعت فيه ، والبواعث النفسية التى كانت تحرك خصومه ، لا يملك إلا التسليم بأنه راح شهيد أوحال السياسة والأحقاد معا ، وإذا كان « ماسنيون » Massignon

قد استبعد من أسباب اضطهاده صلته بالقرامطة فإن « نيكلسون » Nicholson يصرح بأن من أسباب محاكمته اتهامه بالدعوة سرا إلى مذهب القرامطة الذين كانوا قد أغاروا على مكة قبل موت الحلاج بتسع سنوات واختطفوا الحجر الأسود منها ويزيد نيكلسون فيصرح بأن موقف المسلمين من أمثال ابن عربى فى اعتناقه وحدة الوجود ، أو أبى اليزيد البسطامى الذى قال سبحانى ! معبرا عن مذهبه فى الاتحاد ، أو الحلاج الذى قال : أنا الحق ، معبرا عن مذهبه فى الحلول ، أو ابن الفارض الذى يقول : أنا هى (أى المحبوبة وهى الذات الإلهية فهما فى حالة اتحاد) . . . يقول نيكلسون إن موقف المسلمين من هؤلاء الصوفية كان فى العادة مشبعا بروح التسامح ، لأنهم كانوا يعتقدون أن أولياء الله على اتصال بربهم ، وهذا يستدعى الاحترام ، بالغا ما بلغ تعارض أقوالهم وأفعالهم مع ظاهر الشرع ، بل يصرح « نيكلسون » بأن قولته : أنا الحق ، لم تكن إلا تهمة من أربع قدم من أجلها إلى المحاكمة ، ولو اقتصر الاتهام على هذا الادعاء لكان من المحتمل أن ينجو من مصيره المحزن رغم أن كلماته التى أثرت عنه فى هذا الصدد كانت من أشنع الأقوال فى نظر المسلمين .

ويبدو لنا فى ضوء فهمنا للإسلام وروحه أن رأى نيكلسون أدنى إلى الصواب ، بل إن « ماسنيون » الذى استبعد اتصاله بالقرامطة من أسباب تعذيبه ، يقول فى بحث آخر له عن الحلاج : « إنه قد أصبح داعيا للقرامطة فى خراسان والأهواز وإيران والهند والتركستان . . . الخ » فكيف كان يمكن للدولة أن تلزم الصمت حياله . . ؟ بل لا غرابة فى مأساته بعد أن اعتبره مولر Müller نصرانيا فى سريرة نفسه ، ورده رسكه Reska إلى الكفر وقال عنه براون Browne إنه كان دساسا خطرا . . . إلى آخر ما قيل فيه .

ومع هذا كان يستحيل على خصومه من الفقهاء أن ينالوا منه إذا لم تناصرهم السياسة ، إذ كيف كان يتأتى لهم قتله أو تعذيبه وهم مجردون من كل سلطة ؟

مصرع السهروردى :

أما عن السهروردى المقتول فهو مؤسس المدرسة الإشراقية فى التصوف ، والرأى عندها أن الله نور الأنوار ومصدر جميع الموجودات ، بمعنى أن العالم قد صدر عن إشراق الله وفيضه ، ومتى تجردت النفس عن علائق البدن وشهواته تيسر لها الاتحاد بالله والاتصال بنور الأنوار ، وعندئذ يتكشف لها الغيب فى يقظة أو منام ... الخ . وقضى صاحب هذا المذهب ومؤسس مدرسته وهو فى السادسة (أو الثامنة) والثلاثين من عمره عام ٥٨٧ هـ / ١١٩٢م .

ومرد مصرعه إلى استخفافه بالفقهاء وتمسكه برأيه واعتزازه بعقله ، إلى جانب أن صلاح الدين الأيوبى قد لقى عنتا شديدا فى سحق الدولة الفاطمية التى كانت معقد آمال القرامطة ، فكان شديد التخوف من دعاة الدعوات الباطنية ، وكان السهروردى — كما كان الحلاج — من هؤلاء .

كان هذا كله ينذر بشر مستطير ، وقد غادر السهروردى ديار بكر إلى حلب التى كانت تحت حكم الملك الظاهر — ابن صلاح الدين — وفيها ناظر الفقهاء والعلماء وجادلهم جدالا شديدا بدا فيه تهافت منطقهم وضحالة علمهم ، وتجلى عجزهم فى مناظرته فى علم الأصول ، فقالوا له إنك تقول فى بعض مؤلفاتك إن فى وسع الله إن شاء أن يخلق نبيا — مع أن محمدا هو خاتم النبيين — فأجاب السهروردى : بأن الله قادر على كل شىء ، والقادر إذا أراد شيئا لم يمتنع عليه ، قالوا إلا على خلق نبى ، قال : هل الاستحالة هنا مطلقة أو غير مطلقة ؟ قالوا : أنت كافر ...

وزاد من حقد الفقهاء أنه كان مقربا من الملك الظاهر ، فأرسلوا إلى صلاح الدين يوغرون صدره ويثيرون مخاوفه ، إذ بعثوا إليه بمحاضر يثبتون بها كفر السهروردى قائلين إنه إن بقى حيا أفسد معتقد الملك الظاهر ، وهدم عقيدة الناس فى أى ركن فى هذه البلاد ، فأرسل صلاح الدين إلى ابنه الظاهر بحلب خطابا يوجب فيه قتل السهروردى إذ لا سبيل إلى إطلاقه أو الإبقاء عليه بأى وجه من الوجوه ..!

وقيل إن من أسباب قتله رأيه فى الإمامة وهو رأى ينحدر إلى تفكير الباطنية الهدام ، إذ صرح بأن أبناء علي هم صور التجلى الإلهى ، ومعنى هذا أنه يريد قلب نظام الحكم على طريقة الإسماعيلية ، وفى هذا وذاك كان مصرعه . وتتضارب الروايات فى مقتله ، منها ما يزعم أن الظاهر قد استجاب لرأى أبيه بعد أن عصيه أول الأمر — فأذن بصلبه وخنقه ؛ وقيل إنه اختار أن يموت جوعا ، لأنه اعتاد الجوع فى رياضاته الروحية ، فترك بغير طعام حتى قضى نحبه . . . ويقال إن الملك الظاهر قد ندم بعد هذا على ما فعل ، وألقى القبض على خصومه وزج بهم إلى السجن(١) . . .

والمتتبع لأحداث مقتله يلاحظ وجوه الشبه بين الدوافع التى أدت إلى قتله والبواعث التى أفضت إلى مصرع الحلاج ، هى بوجه عام اتصالها بالدعوة الباطنية التى كان يمثلها القرامطة من ناحية ، وحقد الفقهاء وحسدهم من ناحية أخرى ، ولولا تدخل السياسة فى الحالين ما تسنى للفقهاء أن ينالوا منهما ولا أن يمسوهما بسوء ، فإن موقف المسلمين من هؤلاء الصوفية كان فى العادة مشبعا بروح التسامح كما يقول نيكلسون .

وقاتل الله السياسة ، فإنها تفسد الضمائر وتعمى البصائر وتتلف الأخلاق .

موقف القرآن الكريم من حرية النظر العقلى :

تحدثنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب عن موقف المفكرين من الأناجيل ، ورأينا كيف يتهم أمثال « درابر » W. Draper و « بيورى » Bury الكتاب المقدس بأنه أعان رجال الدين على إعاقة النظر العقلى الحر

---

(١) انظر فيما سلف : Encyclopedia of Islam مادتى الحلاج والسهروردى ثم نيكلسون Nickolson فى : The Idea of Personality in Sufism وقد ترجمها الدكتور أبو العلا عفيفى فى كتابه فى التصوف الإسلامى وتاريخه — ثم ماسنيون Massignon فى Etude sur une courbe personnelle de vie : Le cas de martyr mystique de l'Islam وهنرى كوربان Corbin فى Suhrawardi, fondateur de la doctrine illuminative (ishraqi) وقد ترجمها الدكتور عبد الرحمن بدوى فى : شخصيات قلقة فى الإسلام — وفى هذه المصادر مجموعة من المؤلفات التى يمكن الرجوع إليها لمعرفة تفاصيل الموضوع .

والحيلولة دون انطلاقه ، وعرفنا مدى ما فى اتهامهم من باطل ؛ وقد وجه بعض المفكرين مثل هذا الاتهام للقرآن الكريم ، ومن هؤلاء «تنمان» G. Th. Tennemann خليفة بروكر الألمانى J. Brücher أبى تاريخ الفلسفة فيما يقول فكتور كوزان V. Cousin

عرض تنمان لبيان العقبات التى عاقت العقل العربى (الإسلامى) عن التفكير الفلسفى ، وردها إلى أسباب دينية وقومية ، وفسر الأولى بأنها : القرآن « الذى يعوق النظر العقلى الحر » وحزب أهل السنة الذى يستمسك بحرفية النصوص .

ويعلق على هذا الرأى أستاذنا الشيخ الأكبر فيقول : « وقد لا يخلو حديث تنمان من العوامل المثبطة لرقى الفلسفة عند العرب من نغمة العاطفة الدينية وتلك كانت يومئذ روح العصر ، حتى عند الفلاسفة المشتغلين بتاريخ الفلسفة . . . » ويضيف إلى هذا عنصر تعصب جنسى على العرب تبدو بوادره فى كلام تنمان ، وهو التعصب الذى زخرف له « ارنست رينان E. Renan ثوباً علمياً من أبحاثه فى تاريخ اللغات السامية » . . . ويعرض الأستاذ رأى غيره من مؤرخى الفلسفة ، ومن بينها رأى « منك » S. Munk الذى يرى أن الفلسفة العربية قد « تقلبت فى جميع الأدوار التى مرت بها فى العالم المسيحى » وفى هذا مخالفة لقول تنمان إن الكتاب المقدس يعوق النظر العقلى الحر ، إذ يثبت « منك » « أن الإسلام ليس دون المسيحية اتساعاً لنمو الفلسفة وتطورها » .

وإذا كان تنمان قد رأى فى القرن الغابر الرأى السالف بصدد القرآن ، فقد وجد فى مطلع القرن الحاضر أمثال جوتييه L. Gauthier الذى « يقرر الحدود بين العقل السامى والعقل الآرى حتى لا تتلاقى منازعهما ، ثم يبين أن الإسلام دين قوى فى ساميته جداً ، فلا يمكن تصور نظام أشد منه معارضة للفلسفة اليونانية القوية فى آريتها جداً ، وأنه كان أول واجب على الفلاسفة المسلمين أن يوفقوا بين هذين التيارين . . » ولكن أكثرية العلماء فى القرن

الحاضر لا يؤيدون مثل هذا الاتجاه بصدد الإسلام ، فقد « تلاشى القول بأن الإسلام وكتابه المقدس كانا بطبيعتهما سجناً لحرية العقل وعقبة فى سبيل نهوض الفلسفة أو كاد يتلاشى » ، ويدلل على هذا بنصوص لعلماء آخرين .

لم يكن عند العرب عند نزول القرآن فلسفة بمعناها الدقيق ، فلنعرض موقف القرآن من حرية الجدل والبحث ملخصا عن أستاذنا المرحوم مصطفى عبد الرازق :

كان العرب عند ظهور الإسلام « يتشبثون بأنواع من النظر العقلى تشبه أن تكون من أبحاث الفلسفة العلمية لاتصالها بما وراء الطبيعية من الألوهية وقدم العالم أو حدوثه ، والأرواح والملائكة والجن والبعث ونحو ذلك » وكانوا « حين نزول القرآن فى منازعة وجدل فى العقائد الدينية ، وكان البحث فى إرسال الرسل والحياة الآخرة وبعث الأحياء من الموت موضع الأخذ والرد على الخصوص بين النحل المتباينة » وقد « جاء القرآن يقرر أن الدين الحق واحد ، وحى الله إلى جميع أنبيائه ، وهو عبارة عن الأصول التى لا تتبدل بالنسخ ولا يختلف فيها الرسل وهى هدى أبدا ، أما الشرائع العلمية فهى متفاوتة بين الأنبياء وهى هدى ما لم تنسخ ، فإذا نسخت لم تبق هدى » . . . والإسلام يجمع بين الدين والشريعة ، أما الدين فقد استوفاه الله كله فى كتابه الكريم ، ولم يكل الناس إلى عقولهم فى شىء منه ، وأما الشريعة فقد استوفى أصولها ثم ترك للنظر الاجتهادى تفصيلها ، جاء فى القرآن المجيد : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » ، وهذا هو تفسير الطبرى والشاطبى والشافعى للآية ، وبهذا وجد الاجتهاد بالرأى أصلا من أصول الإسلام .

وقد كان « على القرآن أن يجادل مخالفيه من أرباب الأديان والملل فى العرب رداً للشبهات التى كانوا يثيرونها حول عقائد الدين الجديد ، على أنه كان لا يمد فى حبل الجدل حرصاً على الألفة ، وكثيراً ما تختم آيات الجدال

بمثل قوله (إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون) وقوله (وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ، الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) وقوله (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) وهذا الجدل فى العقائد عرض له القرآن للحاجة وعلى مقدارها ، من غير أن يشجع المسلمين على المضى فيه ، بل هو قد نفرهم منه ... ودعا القرآن إلى الأخذ فى هذا الجدل برفق عند الحاجة إلى الجدل ... وإذا كان القرآن قد نفر المسلمين من الجدل فى أمور العقائد ، فإن القرآن قد ذكر الحكمة التى كانت معروفة عند العرب ، وكانت شرفاً لأهلها وجاهاً ، وأثنى عليها وشجع على حياتها ونموها ، وقد كان لهذه المعانى الدينية التى قررها الإسلام منذ نشأته ، أثرها العظيم فى توجيه النظر العقلى عند المسلمين فى عهدهم الأول ، فكرهوا البحث والجدل فى أمور الدين دون أمور الأحكام الفقهية .

وقد كان المسلمون فى الصدر الأول « يرون ألا سبيل لتقرير العقائد إلا الوحى ، أما العقل فمعزول عن الشرع وأنظاره ، كما يقول ابن خلدون فى مقدمته وابن تيمية فى النبوات » وكانوا يرون أن التناظر والتجادل فى الاعتقاد يؤدى إلى الانسلاخ من الدين ، من أجل ذلك كان المسلمون عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم على عقيدة واحدة إلا من كان يبطن النفاق ، ولم يظهر البحث والجدل فى مسائل العقائد أو فى أيام الصحابة ، حين ظهرت بدع وشُبه اضطر المسلمون إلى مدافعتها ... ومن ثم تفرقت الفرق ونشأ علم الكلام حجاجا للمبتدعة الحائدين عن طريق السلف والمخالفين للدين ، ونشأ على أنه ضرورة تقدر بقدرها .

« أما النظر العقلى فى المسائل الشرعية فقد نشأ فى الإسلام مؤيداً من الدين ، وقد ورد فى الكتاب والسنة الثناء على الحكمة والحكم والتنويه بفضلهما ، فمهد ذلك لانتعاش النظر العقلى فى الشؤون العملية ، وهو نوع من التفكير كانت العرب مستعدة لنموه بينها ... وحدث الاجتهاد فى التشريع الإسلامى منذ عهد الإسلام الأول فى كنف القرآن بترخيص من الرسول عليه السلام ...

وهذا الاجتهاد بالرأى فى الأحكام الشرعية هو أول ما نبت من النظر العقلى عند المسلمين ، وقد نما وترعرع فى رعاية القرآن وبسبب من الدين ، ونشأت منه المذاهب الفقهية ، وأينع فى جنباته علم فلسفى هو علم « أصول الفقه » ونبت فى تربته التصوف أيضاً ، وذلك من قبل أن تفعل الفلسفة اليونانية فعلها فى توجيه النظر العقلى عند المسلمين،إلى البحث فيما وراء الطبيعة والإلهيات على أنحاء خاصة » . وكان التشريع فى عهد النبى « يقوم على الوحى من الكتاب والسنة ، وعلى الرأى من النبى ومن أهل النظر ، والاجتهاد من أصحابه بدون تدقيق فى تحديد معنى الرأى وتفصيل وجوهه ، وبدون تنازع ولا شقاق بينهم » . . . حسبنا الآن هذا تصويراً لموقف القرآن من البحث والجدل نقلا عن مصدر موثوق لا يرقى إليه إتهام .

نرى مما أسلفناه أن القرآن قد بغّض المؤمنين فى البحث والجدل فى أمور الدين ، دون أمور الأحكام الفقهية ، ومن هنا نشأ فى الإسلام القياس والاجتهاد بالرأى .

وقد كان طبيعياً بعد هذا — فيما يبدو لنا — أن يضيق رجال الدين بالنظر العقلى الحر متى امتد إلى العقائد الدينية وأخذ فى بحثها ، أو تناول بالدراسة العقلية موضوعاتها ، وانتهى فى أمرها إلى غير ما يألف رجال الدين ، ولعل هذا قد شجع على ضيقهم بالفلسفة وسخطهم على أهلها .

والحق « أن ليس فى طبيعة الإسلام — ولا فى طبيعة المسيحية — ما يدعو إلى الاضطهاد ولا إلى محاربة الجديد ولا إلى مناهضة حرية الرأى ، لك أن تقرأ القرآن — والأناجيل — وتمعن فى القراءة ، ولك أن تبحث وتمعن فى البحث فلن تجد نصاً أو شبه نص ينكر التجديد ويدعو إلى مناهضته أو يأخذ العقول بالجمود أو يحظر عليها حرية الرأى قليلا أو كثيرا ، فيما يقول أستاذنا طه حسين فى كتابه : من بعيد .

بل لقد روى بعض أئمته ورجاله ، أن من أصول الإسلام : النظر العقلى

لتحصيل الإيمان ، وتقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض ، والبعد عن التفكير (فإذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مئة وجه ، ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حمل على الإيمان ، ولا يجوز حمله على الكفر !) ثم إلغاء السلطة الدينية[1] (فليس لأحد بعد الله سلطان ، والخليفة ليس موضع عصمة ولا مهبط وحي) .

وقد هيأت هذه الأصول السبيل لحرية العقل فى أكثر عصور الإسلام ، حتى عاش غير المسلمين من العلماء والعالم الإسلامى وهم موضع رعاية وإكبار ، وليس بنا من حاجة إلى تفصيل القول فى هذا الذى ذاع وانتشر ، فإن صح هذا فلماذا عرف العالم الإسلامى اضطهاد المفكرين فى بعض مراحل تاريخه . . ؟

إن أجمل ما فى موقف القرآن المجيد بصدد الحرية العقلية ، قوله تعالى فى سورة البقرة : « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغيّ ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصام لها والله سميع عليم » وقوله فى سورة الكهف : « وقل الحقُّ من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » وبهذا أطلق القرآن الكريم حرية النظر ، وسجل على المتزمتين إثم ما يفعلون وجعل رسول الله مبلغاً ومذكرا ، لا مسيطراً ومهيمنا « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » وبهذا كله خلا الإسلام من شيء اسمه السلطة الدينية ، والخليفة لا يحتكر تأويل الكتاب والسنة ولا يعتبر معصوما من الخطأ ، فإن زل وجب تقويمه « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » فيما يقول الحديث النبوى .

---

(١) الإمام محمد عبده : الإسلام والنصرانية ، جعل الأصول ثمانية ، وجعلها الأستاذ محمد فريد وجدى فى الطبعة الخامسة من كتابه : المدنية والإسلام اثنى عشر أصلا وأيدها بفيض من الأحاديث النبوية والآيات القرآنية فليرجع إليها من شاء .

تفسير الاضطهاد فى الإسلام :

مرد هذا الاضطهاد فيما نعلم ، إلى أسباب سياسية أو شخصية ، ونعنى بالأخيرة حسد العلماء للمتفوقين منهم ، وضيقهم بشهرة غيرهم وذيوع اسمهم ، وقلقهم من ظهور رأى جديد لم يألفوه ، وحرصهم على رأى قديم ثبتوا عليه وآمنوا بصحته ، لحب القديم لقدمه وكراهة الجديد لجدته ، فطرة فطر الناس عليها من قديم الزمن ، ثم طبيعة المعتقد الدينى فى نفوس أهله — على ما عرفنا فى الفصل الأول — لأن الإيمان كثيراً ما يسلم إلى التزمت ، والتزمت لا يستقيم مع إطلاق الحرية للعقل ، وتقبل كل رأى يتكشف عنه البحث والنظر ، هذا بالإضافة إلى ضيق الأفق وضآلة التفكير عند هؤلاء المتزمتين . أما الأسباب السياسية فنعنى بها انسياق الحكام فى ركب الرأى العام ، ومسايرتهم لشعور الجماعات ، وتمشيهم مع عقلية الجماهير — وقد يفعل هذا نفسه رجال الدين — اكتسابا للسمعة الطيبة بين الناس — وهذا بالإضافة إلى جهل الجماهير وسرعة تأثرها وانسياقها إلى حيث تتوهم الجهاد فى سبيل الله ، يضاف إلى هذا كله ما يبدو فى كتابات بعض الفلاسفة من جموح لا يستقيم مع قواعد الدين ، وما أشيع عن سلوكهم وأقوالهم — إن حقا وإن باطلا — مما لا يتفق مع احترام الدين وتوقير مبادئه

فلنعرض نماذج من أسباب هذا الاضطهاد فيما عرفنا من حالاته :

كثيراً ما كان المضطهد من الفلاسفة تترجح حياته بين عطف الحاكم وسخطه ، يخضع فى هذا لمدى استجابة الحاكم لوشاية خصومه وحساده ، ووساطة أصدقائه وأتباعه ، ويفسر هذا محنة محمد بن عبد السلام الملقب بركن الدين ، ونكبة أبى الوليد بن رشد ، وقد عرفنا أثرهما من قبل ، فأما الأول فمرد محاكمته — فيما يروى جولد تسيهر نقلا عن ابن رجب فى مخطوطه عن طبقات الحنابلة — إلى انتقام الوزير بن يونس من حفيد عبد القادر الجيلانى الذى آذاه أولاده إيذاء شديداً ، وهذا بالإضافة إلى مؤامرات أبى الفرج بن الجوزى خصم عبد السلام العنيد . وقد أشرنا إلى أن مدرسة عبد القادر قد انتزعت

من يد حفيده عبد السلام أثناء محنته ، ولكنها ردت إليه بعد ممات الوزير ابن يونس ، وأمضى عبد السلام « بقية حياته فى رضى من الخليفة تارة ، وسخط تارة أخرى » .

ومثل هذا يقال فى تفسير النكبة التى أصابت ابن رشد ، فإن مردها على اختلاف أقوال الرواة لا يكاد يخرج عما أسلفناه ، فمن ذلك ما يقال من أنه كان يؤثر أبا يحيى على أخيه الخليفة المنصور ، ومنها أنه عرّض بالمنصور فكتب بخطه يقول : « رأيت الزرافة عند ملك البربر » وهمّ المنصور بسفك دمه لولا وساطة أبى عبد الله الأصولى الذى أوهمه أنها « ملك البرين » (أى الأندلس والمغرب) . ومنها أنه استفاض بين الناس فى الشرق والأندلس أن ريحاً عاتية — فيما تقول إحدى المنجمات — ينتظر أن تهب فى يوم كذا ، فيهلك الناس ، وأثار هذا النبأ جزع الجماهير حتى اتخذوا الكهوف والأنفاق والمغاور اتقاء لشرها ، فاستدعى والى قرطبة أهل الرأى فيها ليعرف حقيقة هذه الريح ، فقال أبو محمد عبد الكبير : إن صح أمر هذه الريح فهى ثانية الريح التى أهلك الله تعالى بها قوم عاد ، فقال ابن رشد على الفور : والله وجود قوم عاد ما كان حقا ، فكيف سبب هلاكهم ؟ فذهل الحاضرون وأكبروا هذه الزلة التى لا تصدر إلا عن صريح الكفر والتكذيب لما جاءت به آيات الكتاب المجيد — فيما يروى الأنصارى — ولكن الذهبى يروى ما يفيد أن الذى أثار غضب المنصور عليه إنما هو وشاية حساده وخصومه ، ومنها أنهم أخذوا بعض ملخصاته فى الفلسفة وأطلعوا عليها المنصور فإذا فيها بخطه حاكيا عن بعض الفلاسفة « قد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة » فاستدعاه بمحضر من الكبار بقرطبة وسأله : أخطك هذا ؟ فأنكر ابن رشد ، فقال له : لعن الله كاتبه ، وأمر الحاضرين بلعنه ، ثم أمر بإخراجه مهانا .

وربما أكّد هذا ما نلاحظه فى فلسفة ابن رشد من عدم اتساقها فى بعض نواحيها مع المعروف من أمور الدين ، ثم إنه لم ينجح فى دفاعه عن الفلاسفة فى الاتهام الذى وجهه الغزالى إليهم بصدد بعث الأجساد ، وقصر علم الله

على الكليات وقدم العالم وأزليته ، وهى المسائل الثلاث الذى كفر الغزالى الفلاسفة من أجلها . وهذا بالإضافة إلى أن الفلسفة فى ذاتها كانت بغيضة إلى سواد الناس والمتزمتين من رجال الدين .

ولكن محنة ابن رشد لم تطل ، ونجح مسعى أصدقائه عند الخليفة فى تزوير عقيدته ، فعفا عنه وعن صحبه وأولاه العطف حتى مات فى العام التالى .

وحملة ابن الصلاح — وأمثاله — فى فتواه التى هاجم فيها الفلسفة والمنطق ، لها ما يبررها من اتجاهات عقله وتيارات قلبه ، وقد عرفنا أنها كانت دينية محضة ، وأنه أخفق فى تعليم المنطق حتى قال له أستاذه : « يا فقيه ، المصلحة عندى أن تترك الاشتغال بهذا الفن » ومن هنا كانت خصومته العنيدة للمنطق والفلسفة باسم الدين ، ولعل السؤال الذى أفتى فيه فتواه كان من وضعه ، لأن فيه إشباعاً لنزعات نفسه ، وإرواء لظمأ قلبه فى مهاجمة مالا يحب ، وقد كانت روح العصر تلائم هذه الفتوى وتتفق مع ما تنطوى عليه من تزمت وضيق نظر .

الاضطهاد بين المسيحية والإسلام :

من الإنصاف أن نقول إن فتواه تذكرنا بشىء له خطره المروع فى تاريخ النزاع بين الإيمان والعقل ، وإن فيها نصاً يشهد بأن أمثاله من المتزمتين من رجال الدين لو تهيأت لهم السلطة ، لقيدوا العقل وحجروا على حريته ونكلوا برواد الفكر الحديث ، وقضوا على التفكير الفلسفى فى غير رفق ولا هوادة ، أليس يقول فى فتواه « فالواجب على السطان أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء (المشائيم) ويخرجهم من المدارس ويبعدهم ، ويعاقب على الاشتغال بفنهم ، ويعرض من ظهر منه اعتقاد عقائد الفلاسفة على السيف أو الإسلام ، لتخمد نارهم ، وتمحى آثارها وآثارهم ، يسر الله ذلك وعجلة . . ! ومن أوجب هذا الواجب عزل من كان مدرس مدرسة من أهل الفلسفة

والتصنيف فيها والاغراء لها ، ثم سجنه وإلزامه منزله ، وإن زعم أنه غير معتقد لعقائدهم (الفلاسفة) فإن حاله يكذبه ، والطريق فى قلع الشر قلع أصوله . . الخ » !

قد يذكرنا هذا بمحاكم التفتيش فى العالم الأوربى الكاثوليكى ! وقد عرفنا شيئا عن أنبائها المروعة ، وموقف رجالها من إعاقة النظر العقلى الحر والتنكيل بأهله . ويلوح لنا أن أول فارق ملحوظ بين الحالين ، استحواذ الهيئات الكنسية على « سلطة زمنية » لم تتهيأ لهؤلاء المتزمتين من رجال الدين الإسلامى ويشهد بصحة هذا الرأى ، أن المعتزلة وهم الذين اعتصموا بالعقل فى دفاعهم عن الدين ، قد نكلوا بخصومهم فى القول بخلق القرآن حين تهيأت لهم السلطة فى عهد المأمون والمعتصم ، فلم يقنعوا بالمحاجة والتزام المنطق العقلى ، بل حكَّموا السيف فى رقاب مخالفيهم ! ناهيك بغيرهم من رجال الدين الذين لا يقرون للعقل بسلطان ! على أن مثل هذه السلطة كانت تعوز المتزمتين من المسلمين ، وقد يُرد إلى هذا السبب ، القول بأن تبعات هؤلاء المتزمتين فى اضطهاد الفكر الحر وإعاقة النظر العقلى ، أخف بكثير جداً من تبعات السلطات الكنسية فى أوربا ، وإذا كان من الإنصاف أن يقال إن حكام المسلمين قد جمعوا بين الحكم الدنيوى والدينى فى الصدر الأول من الإسلام ، فلم يحدث من المحن بعض ما عرفنا فى العالم الأوربى ، وأن بعض حكام المسلمين فى غير هذه الفترة قد انساقوا إلى حيث أراد المتزمتون من رجال الدين . فحجروا على الفكر الحر واضطهدوا أهله ، ولكنهم لم ينشئوا محاكم تفتيش تطارد هؤلاء الأحرار أنى كانوا ، ولم يضعوا سجلا يثبتون فيه أسماء الكتب التى حرمت قراءتها على المؤمنين ، ويقضون بحرمان مؤلفيها وقرائها على السواء ، ولم يلجأوا إلى الإعدام والإحراق والتنكيل ونحوه إلا فى حالات نادرة ، إذا كان من الحق أن يقال ذلك فمن الإنصاف أن نقول إن كثيرين من رجال اللاهوت فى أوربا وأمريكا قد أوتوا من سعة العقل ورحابة الصدر وصدق الإدراك ما مكنهم من مسايرة الركب والتطور مع الزمن ،

فباركوا حركات التجديد وأدنوا من حضرتهم رواد الفكر الحديث، وتولوهم بالرعاية والتقدير؛ وإذا كانت ساحة الإسلام قد برئت من آثام غلاة المتعصبين من رجاله، فإن المسيحية — فيما يلوح لنا — غير مسئولة عن تاريخها الملطخ بالدم [1].

(١) انظر إلى جانب ما ذكرناه فى صلب الكلام وهوامش الصفحات السالفة: الفصل القيم الذى وضعه المستشرق الألماني جولد تسيهر عن « موقف أهل السنة القدماء بأزاء علوم الاوائل » وظهر فى نشرة مباحث الأكاديمية الملكية البروسية للعلوم عام ٩١٥ وقد نقله إلى العربية زميلنا الدكتور عبد الرحمن بدوى فى « التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية » ١٩٤٠ وكتاب أستاذنا الأكبر المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الازهر « تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية » وكتاب فرح أنطون « ابن رشد وفلسفته » ١٩٠٣ والأستاذ الإمام « محمد عبده » فى « الإسلام والنصرانية » وكتابنا فى « أسس الفلسفة » وكتب الغزالى ولاسيما المنقذ من الضلال، وتهافت الفلاسفة، وابن تيمة وابن رشد وغيرها مما ورد فى صلب الكلام أو فى هوامش الصفحات.

الفصل الخامس

النزاع بين اللاهوت والفكر الجديد

فى عصر النهضة

التنافر الملحوظ بين روح النهضة وروح العصر الوسيط — مظاهر النضج فى عصر النهضة — موقف العقل الجديد من المسيحية — بواعث النزاع فى هذا العصر — مقاومة الروح العلمى الجديد فى العالم الكاثوليكى — مقاومته فى العالم البروتستانتى — مقاومة الاكليروس لنشأة علم الفلك الحديث (نظرية دوران الأرض — موقف الكنيسة من عمران الكرة الارضية) — فهرست الكتب المحرمة على المؤمنين — كلمة أخيرة .

التنافر بين روح النهضة والعصر الحديث :

تمكنت المسيحية من قلوب الناس منذ عصورها الأولى ، فاكتسح وحيها العقلَ الذى كان قد شاخ وسيره فى ركابه ، وأكرهه على الدعوة لتعاليمه ، وانفرد الوحى بالنفوذ قرونا طوالا ، نزعت أوربا — فى أواخر العصر الوسيط — إلى إحياء ما اندثر من تراث الفكر القديم ، واسترد العقل سلطانه ، وتمكن من إحداث انقلاب شمل مرافق الحياة كلها ، وامتد من إيطاليا إلى أوربا الشمالية ، فكان هذا عصر النهضة الذى شغل القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وبدا بها على تنافر ملحوظ مع روح العصر الوسيط ، فلما أقبل العصر الحديث ، كان العقل قد استبد بهوى مفكريه ، فالتمسوا عنده الخلاص من هذا التنافر ، والجمع بين الضدين فى وحدة عقلية متسقة ، لم تلبث حتى اعتراها التفكك ، وخضع الوحى المسيحى لنقد العقل وسخريته — كما سنعرف فى الفصل التالى .

فأما هذا الانقلاب الذى حمل اسم النهضة ، فمرده إلى يقظة العقل بعد طول رقاد ، ونشاطه بعد وفرة الاستجمام ، وتاريخ العقل فى الجماعات البشرية

يشهد بأنه لا يقيم على حال واحدة من ركود أو نشاط ، وكأنه يلتمس الراحة بعد الكد ، ويميل إلى الجد متى استوفى حظه من الراحة ، وقد أدركت إيطاليا منذ القرن الثالث عشر تطورات غيرت من أحوالها الاجتماعية وظروفها السياسية ، ومهدت لنشأة حركة عقلية واجتماعية تكفلت بتبديد الظلام ، ومهدت الطريق لتقويض السلطة الدينية ، وتحرير العقل من قيود الأسر ، وساقت المفكرين إلى إحياء الروح القديم ، ومكنتهم من التحرر من سذاجة العصر السالف ، وإدراك أنفسهم وفهم العالم من حولهم ، وأحس الإنسان بإنسانيته وفرديته ، مستقلة عن قومه ووطنه ، وشعر فى هذا العالم الجديد بأنه محتاج إلى مرشد يهديه سواء السبيل ، فالتمس الإرشاد فى آداب اليونان والرومان ، فكان هذا هو « المذهب الإنسانى » الذى أنشأ جواً عقلياً مكن الفكر من الانطلاق ، ويسر للمعرفة أن تتقدم إلى الأمام ، تقدماً أيده اختراع المطبعة ، ومكن له اكتشاف أقطار جديدة زادت من معارف الناس ، وصححت الكثير من أخطائهم ، وشجع على هذا اضمحلال نفوذ البابوات فى العالم الأوربى ، وانحلال الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وغير هذا من عوامل يسرت قيام الإصلاح الدينى ، ومهدت لقيام النزعة العقلية واشتداد بأسها .

فأما التنافر الملحوظ بين روح العصر الوسيط وروح النهضة ، فما أكثر شواهده . . ! كان العصر الأول يستجيب للوحى الإلهى ويميل إلى الزهد ويتجه نحو الروحية التى تتضمن التوجس من الجسم والتخوف من ميوله وشهواته ، وتتهيب التمتع بالجمال ، ويرضى عن الجهل الذى يجعل صاحبه أكثر استجابة لأوامر الدين ! ويقصر البحث على نمو الحياة الروحية والتماس الخلاص ، وينزع إلى التجرد من الحياة وتعذيب الجسم ونحو هذا مما أدى إلى إدانة الفنون المتجسدة والعلوم التجريبية ، وحصر المعرفة فى اللاهوت وما بعد الطبيعة لأنها الطريق الوحيد إلى الخلاص . أما عصر النهضة فقد عكس الآية ، إذ احتوته الثقة بالعقل ، واستغرقه حب الاستطلاع الحر ،

واشتد كلفه بالعلم واحترامه لرجاله ، وأحب الجمال وشغف بالطبيعة وولع بالاستمتاع بملاذ الحياة ، ومن ثم توافر الفن على محاكاة الأوضاع الجسمانية ، وتمكن العلم من ملاحظة الظواهر الطبيعية ، وقوى النزوع إلى تبرير الشهوات ، ونبذ العقائد التحكمية المتعسفة والخروج على التقاليد المألوفة والمبادىء المرعية ، واتسعت هوة الخلاف بين النزعة الصوفية فى العصر الأول ، والاتجاه العقلى فى العصر الثانى — فيما يقول مؤرخو العصرين .

مظاهر النضج فى عصر النهضة :

كان الإنسان فى العصر الوسيط فرداً فى جماعة يسير فى ركابها ويعمل بوحيها ، فاسترد فى عصر النهضة استقلال شخصيته ، واستكمل نزعته الفردية التى كانت قد انطمست منذ أواخر عهد اليونان والرومان ، وكان من أثر هذا التطور اشتداد حركة الإصلاح الدينى التى تولت بالنقد أكبر هيئة دينية مقدسة ، وأتاحت لغير الكنيسة تفسير الأناجيل — وبهذا نادى زعماؤها — وأفضت — عن غير قصد — إلى تحرير العقل من قيود العقيدة الدينية ، وتمثل هذا الانقلاب فى اتجاه العقل الجديد فى طريقين : أولهما إحياء الروح القديم الذى بدا على ما عرفناه قبل ذلك ، ولكنه اشتد فى عصر النهضة ، فانطلق دعاة المذهب الإنسانى — منذ القرن الرابع عشر حتى السادس عشر — إلى بعث ما عرف من آداب اليونان والرومان ، مسترشدين بها فى إخضاع الدنيا لصالح هذا الإنسان الجديد ، وجدّ المشتغلون بالفلسفة فى إحياء التراث الفلسفى القديم ، فانبعثت الأفلاطونية فى أكاديمية فلورنسا (١) ، ومنها انتشرت فى سائر أوربا ، واستقامت الأرسطاطاليسية — كما بدت فى تراث ابن رشد وغيره من فلاسفة الإسلام — فى پادوا ، وامتدت حركة الإحياء إلى مذاهب الرواقية والشكاك وغيرهم من مدارس الفلسفة فى العصر القديم ، ونشطت

---

(١) أنشأها كوزيمو دى مديتشى + ١٤٦٤ وتولى رياستها « مارسل فيسان » ١٤٩٩ Marsile Ficin وهو الذى نقل آثار أفلاطون وأفلوطين إلى اللاتينية مع تعليقات عليها ، واستدعت فلورنسا كرسلوراس وغيره ليحاضر فيها باليونانية .

هذه الحركة بعد سقوط القسطنطينية [1] وفرار العلماء منها إلى إيطاليا . وثانى الطريقين اللذين سلكهما العقل الجديد يتجلى فى اهتمامه بالطبيعة الحافلة بالحقائق ، ونزوعه إلى ارتياد المجهول من آفاق العلم الطبيعى ، إذ انبعثت صيحة روجر بيكون فى الدعوة إلى التجربة والاختبار ، واستجاب لها العلماء والفنانون ونشأت الجمعيات العلمية صدى لهذه الدعوة [2] ومهد هذا لنشأة العلوم الطبيعية مؤيدة بالمخترعات الحديثة ، وانساق الناس إلى الكشف الجغرافى التماسا لحقيقة تسفر عنها مشاهداتهم [3] ، واتفق رواد الفكر الجديد على استهجان الكتب القديمة والسلطة الدينيـــة مصدراً لعلمنا بالطبيعة الكونية [4] ومضى العقل فى محاولة اكتشاف الجديد فى شتى صوره ، وأمعن فى تحطيم القيم المعتمدة فى عصره ، حتى إذا أتى عليها جميعا ارتد إلى نفسه ، وأعمل فيها معاوله .. ! أطاح بكل شىء ، ثم عاد إلى نفسه ، وأعلن شكه فى قدرته على أداء وظيفته فى التفكير بغية اكتشاف الحقيقة ، إذ هاله ما انتهى إليه رواد الفكر الحديث من كشف ما طواه التراث القديم من أخطاء ، وراعه الخلاف الملحوظ بين مذاهب الفلسفة ، وتعصب الطوائف لكل منها ، فكان الشك الهدام الذى أطاح بوحدة أوربا العلمية والدينية

---

(١) استولى الترك على القسطنطينية عام ١٤٥٣ فسقطت بسقوطها الدولة الرومانية الشرقية ، ونشر الترك الرعب فى قلوب الناس ، فغادرها علماء الإغريق بمخطوطاتهم إلى إيطاليا ، فأكرمت وفادتهم . وتولوا نشر العلم فى جامعاتها حتى انتقلت النهضة إلى أوروبا الشمالية .

(٢) فأنشأ Telesio + ١٥٨٨ أكاديمية البحث الطبيعى فى نابلى عام ١٥٦٠ وقامت جماعة لينيوس فى إيطاليا عام ١٦٠٣ وقوى هذا النزوع بعد فرنسيس بيكون + ١٦٢٦ فنشأت مدرسة الفلورنسيين عام ١٦٥٧ وقامت فى لندن الجمعية الملكية عام ١٦٤٥ وتلتها أكاديمية العلوم الملكية فى فرنسا عام ١٦٦٦ ثم الأكاديميا دل شيمنتو عام ١٦٥٧م .. الخ .

(٣) فظهر فى القرن الخامس عشر هنرى الملاح + ١٤٦٢ وبرثلميوديار + ١٦٧٩ وفاسكودى جاما + ١٥٢٤ وكولمب + ١٥٠٦ وماجلان + ١٥٢١ وغيرهم .

(٤) اتفق فى هذا النزوع أمثال Vesale + ١٥٦٤ منشىء علم تشريح الأعضاء وهارفى + ١٦٥٨ كاشف الدورة الدموية وكوبرنيكوس + ١٥٤٣ رائد علم الفلك الحديث وليوناردى الفنسى + ١٥١٩ الذى تمثلت فيه روح النهضة ، وكامبانيلا ومن إليه ، وقوى التبشير بهذا المنهج الجديد عند paracelsus + ١٥٤١ و Edward Wotton فى انجلترا وكنراجسنر فى القارة إبان القرن السادس عشر .

والسياسة فى القرن السادس عشر — فيما يقول كواريه[1] .

فما موقف الدين المسيحى من هذا الانقلاب كله .. ؟

تمرد هذا العصر على تقييد الحرية فى مجال الأخلاق والآداب ، وميادين العلم والفن والفلسفة جميعاً ، فتلاشت قيود الآداب والنظام ، وانطلقت الشهوات من عقالها ، وفشى الفساد حتى استغرق العصر كله ، وأصبح البرء منه شذوذاً لا يستقيم مع أوضاع العرف[2] ، وكان أفدح خسران لحق بهذا العصر فقدان الإيمان والتحرر من قيود الأخلاق ، ومشاركة رجال الدين فى هذا الفساد ، مما أدى إلى التهجم عليهم والتشهير بآثامهم ، وساهم فى هذا التجريح رجال الاصلاح الدينى ، وأسرفوا فيه حتى تحول مبدؤهم فى إقرار حق الفرد فى إصدار ما يرى من أحكام ، إلى عصيان روما فى كل ما ترى . . ! واستخف الناس بالروح المسيحى ودعاتها ، حتى انطمس ذكر دانتى — شاعر المسيحية العظيم فى روما وفلورنسا ، فى نفس الوقت الذى أقبل فيه طلاب العلم على أفلاطون وشيشرون ، وهوميروس وفرجيل ، فكان العصر بحق ثورة على المسيحية وتقاليدها .

موقف العقل الجديد من المسيحية :

على أن هذه الثورة لم تنته فى كثير من الحالات بإخضاع الديانة المسيحية لنقد العقل ، واختبار عقائدها فى ضوء منطقه ، وشتان بين الاستخفاف بتعاليمها والسخرية بتقاليدها والعمل بما لا يساير روحها ، وبين دحض معتقداتها وتفنيد قواعدها وأصولها ، ومن أجل هذا قيل إن الثورة العقلية التى استغرقت عصر النهضة ، لم تعصف بالعقيدة الدينية عصفاً مباشراً ، فأما

---

(١) أنظر كواريه A. Koyre فى محاضراته الثلاث بالجمعية الجغرافية نشرتها الجامعة المصرية تحت عنوان Trois Leçons sur Descartes مع ترجمتها إلى العربية للأستاذ يوسف كرم « ثلاثة دروس فى ديكارت »

(٢) امتنع التميز بين القديس والعاهر فى مجال التبجيل والاحترام . وإذا كان الفساد خروجا على مألوف المبادىء الخلقية ، تجرد القرن الخامس عشر من مثل هذا الفساد . وإن كان بحق عصر الأباحية والفساد فيما يروى سدنى دارك .

المصلحون فإنهم كانوا على اتفاق فى مقاومة انحطاط الكنيسة وفساد رجالها ، مع الإبقاء على الدين المسيحى كما ورد فى الأناجيل . وإن أبقى بعضهم — إرزمس — على العقائد الأساسية للمذهب الكاثوليكى ، وعصف البعض الآخر — ويكلف وجون هس ولوثر — بهذه العقائد ، ودعا إلى المسيحية كما تصورها . أما غير المصلحين من رواد الفكر الحديث ، فقد أشفق جمهرتهم من التهجم على الدين ، فى نفس الوقت الذى استجابوا فيه لنداء العقل ، فكان الجمع بين الإيمان الصادق قولا والفساد الطليق وموت الضمير فعلا ، من مميزات النهضة فى إيطاليا التى كانت تعبد الإله « بان » — بإمعانها فى اللذات — ولا تجرؤ على أن تنسى المسيح كل النسيان ، فيما يقول سدنى دارك ، ومثل هذا يقال فى سائر أوربا ، فلم تفض ثقافة هذا العصر — فيما يقول بيورى — إلى ثورة عقلية صريحة أو عامة ترمى إلى اجتياح المعتقدات الدينية ، بل اتخذ العالم بالتدريج مظهراً معادياً — من غير شك — لتعاليم الدين التى ذاعت فى العصر الوسيط ، ولكنه لم يتفجر سخطاً عليها وعداء لها ! ولم يكن أتباع المذهب الإنسانى أعداء للسلطة اللاهوتية ، ولا خصوما للعقيدة الدينية ، ولكنهم اكتشفوا ميلا إنسانياً محضاً إلى تأمل هذا العالم ، واستغرق هذا الاكتشاف اهتمامهم ، فكلفوا بالأدب الوثنى ، وشغفوا بالتعليم الدنيوى ، وكان هذا موضع اهتمامهم ، وعزلوا الدين واللاهوت فى جناح مستقل عن العلم الدنيوى ، وكان بعض أصحاب النظر العقلى ممن أدركوا التنافر بين هذين العالمين ، يحاولون التوفيق بين الدين القديم والفكر الجديد ، ولكن مفكرى عصر النهضة قد تحروا التمييز الكامل بين العالمين ، وممارسة الجرى على طقوس العقيدة الظاهرية ، دون إخضاع العقل لها إخضاعاً حقيقياً ، فكفلوا بهذا استقلال العقل فى تفكيره وتحرره من السلطة الكنسية مع الإبقاء على العقيدة الدينية ، ويوضح هذا الاتجاه « مونتانى Montaigne فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، إذ كان — مع ضيقه بالتقاليد وبغضه لكل سلطة تقيد العقل كاثوليكياً وفياً لدينه القديم ، غير ميال إلى اضطهاد الدين الجديد ، و« مقالاته » وإن بشرت بالمذهب العقلى ، قد جهرت بالكاثوليكية الأرثوذكسية

التى كان فى الواقع مخلصا لعقائدها ، ولم يحاول التوفيق بين هاتين الوجهتين من النظر ، بل إنه لزم الموقف الشكى الذى لا يرى إمكان التوفيق بين العقل والدين ، لأن العقل الإنسانى قاصر فى ميدان اللاهوت ، ومن أجل هذا وجب إبعاد الدين عن تدخل هذا العقل الذى يقصر دون بلوغه ، لكى يقبل الناس على اعتناقه من غير جدل ، وقد اعتنق « مونتانى » المسيحية لأسباب شكلية : كانت خليقة بأن تغريه باعتناق الإسلام لو قدر له أن يولد فى القاهرة مثلا ، والذين شكلوا عقليته واستبدوا بهواه ، هم الفلاسفة القدامى من أمثال شيشرون وسنكا وبلوتارك ، وإليهم — لا إلى المسيحية — كان يرجع إذا عرض للبحث فى مشكلة الموت وغيرها ، وتصور موقفه من الاضطهاد الدينى هذه العبارة : من المفيد أن يُشوى الناس لمصلحتهم الشخصية[1]

بواعث النزاع فى هذا العصر :

على أن التهجم على قدسية الكنيسة والجهر بنقد رجالها والتشهير بآثامهم والتصريح بحق الفرد فى إصدار الأحكام التى يمليها عقله ، والخروج على المألوف من سلطة الدين وسلطة العقل معاً ، وإحياء المذاهب الفلسفية القديمة ، وتعصب المفكرين لها من غير اكتراث بأرسطو الذى اعتمدته الكنيسة وانفرد بالنفوذ قبل هذا العصر ، ومجرد قيام المذهب الإنسانى ، والشغف

---

(١) فى تصوير النهضة إجمالا كتب كثيرة فصلت فى تحليل مظاهرها أهمها : بركاردت الألمانى ترجمه إلى الإنجليزية S. G. C. Middlemere تحت عنوان .
Burckhardt, Jacob, The Civilization of the Renaissance in Italy
ونشرت الترجمة الإنجليزية فى طبعتين كما ترجم إلى الفرنسية والإيطالية .
وكذلك J. A. Symonds (فى سبعة أجزاء) : Renaissance in Italy
أما عن تصوير التنافر بين روح النهضة وروح العصر الوسيط فانظر : استهلال المحاضرة الأولى من محاضرات « دانيل بارودى » الثلاث التى نشرت فى كتاب من الحكيم القديم إلى المواطن الحديث . وقد نقله إلى العربية زميلنا الدكتور محمد مندور (١٩٤٤) وفى تفسير النهضة ولا سيما الفساد الذى فشا فيها كتاب سدنى دارك عن النهضة الأوربية وقد نقله إلى العربية الأستاذ محمد بدران (١٩٤١) وفى نجاة العقائد المسيحية من نقد العقل إبان النهضة يقرأ مع المصدر السالف : Bury, J. B. A. Hist. of Freedom of Thought الفصل الرابع فى تحرر العقل من أسره .

بالعلم الطبيعى وما تسفر عنه المشاهدة والتجربة من حقائق ولو خالفت ما قررته الكنيسة من قبل ، كل هذا كان ينذر بإضعاف السلطة الدينية ، وإثارة الشك فى قدسية رجالها ، وكان هذا وحده كفيلا بإغضاب الأكليروس ودفعه إلى مقاومة الروح الجديد ، وهذا لا يمنع من وجود بابوات ورجال دين سايروا روح النهضة إلى أقصاها ، لم يكتفوا باطلاق العنان لشهواتهم ، بل كلفوا بالعلم وسعوا إلى احترام رجاله ، كما كان يفعل غيرهم من الأمراء والحكام ومن إليهم من العلمانيين فى هذا العصر ، ولكن جمهرة رجال الدين كانوا يقاومون الروح الجديد ، وينزعون إلى التنكيل بالمتحمسين من رجاله ، ويسرفون فى الاضطهاد إسرافاً يتمشى طردياً مع عناد خصومهم من رواد الفكر الجديد ، وكان هؤلاء قد وطدوا العزم على الدفاع عن مبادئهم والاستشهاد فى سبيلها ، فكان هذا إنذاراً بما وقع من مآس لطخت بالدم الآثم هذا العصر .

ولقد كان الأكليروس على حق فى الجزع من مظاهر الروح الجديد ، وحسبنا شاهداً على صحة ما نقول ما انتهى إليه شك « مونتانى » الذى أسلفنا الإشارة إلى إخلاصه لدينه ووفائه لتعاليمه ، فإن نتيجة شكه الهدام قد وضحت فى تفكير صديقه Charron ، إذ نشر عام ١٦٠١ كتاباً « فى الحكمة » صرح فيه بان الأخلاق لا تقوم على الدين ، واستعرض تاريخ المسيحية ليكشف عن السوءات التى نجمت عنها ، وصرح بأن خلود النفس أدنى النظريات إلى معتقدات الناس وأكثرها نفعاً لهم ، ولكنه أقلها صدقاً فى نظر العقل الإنسانى ، وإن كان قد عدل عن هذا الرأى فى طبعة أخرى ، ومن أجل هذا وضعه يسوعى معاصر فى ثبت أعظم الملحدين الأشرار خطراً . ولكنه كان فى الواقع من أتباع المذهب الطبيعى الإلهى Deism الذى يقر بوجود الله — وإن أنكر الوحى والرسل والكتب المقدسة — ولكن الناس فى عصر النهضة وما بعده كانوا يعتبرون غير المسيحيين ملحدين زنادقة ولو آمنوا بالله . . . ! ولقد كان كتابه خليقاً بأن يصادر ، وكان هو جديراً بأن يضطهد ، ولكن الملك

هنرى وقاه شر هذا الاضطهاد — وحسناً فعل ، فإن كتاب « شارون » ينقلنا من جو النهضة الذى يتمثل فى مقالات « مونتانى » إلى عصر جديد يعلو فيه نداء المذهب العقلى .

على أن الأكليروس وإن أصاب فى التوجس من هذه الحركة الجديدة ، — رغم إبقاء جمهرة دعاتها على العقائد الدينية نفسها — فقد أخطأه التوفيق فى طرق العمل على اتقائها ، لأنه اعتصم بالشدة ونكل بأتباعها وسار على جثث المتحمسين منهم ، ولكن تيارها الغلاب قد كتب لها النصر ، لأن الاضطهاد فى شتى صوره لا يوقف التقدم ولا يغير مجرى التاريخ ، وإن تكفل بإثارة الفزع فى النفوس . بل إن استشهاد هؤلاء الرواد قد مكن لقضيتهم ، وأشاع بين الناس إيمانهم فكان النصر حليفهم . . فلنعرض فى إيجاز بعض مظاهر النزاع الذى ثار بين أحرار الفكر ومعسكر خصومهم من رجال الدين .

مقاومة الروح العلمى الجديد فى العالم الكاثوليكى :

اندفع رواد الفكر الحديث جماعات وأفراداً لارتياد المجهول من آفاق الحقيقة ، والتبشير بالآراء الجديدة ، ومجابهة السلطات الكهنوتية بأضاليل العلم القديم الذى اعتمدته وأقرت حقائقه ، وكان البحث العلمى الحديث على خلاف ملحوظ مع أساليب التفكير القديم ، علا صوت المشاهدة والتجربة عند العلماء ، وأخذ مكان الوحى الذى انفرد بالنفوذ قبل ذلك ، فأزعجت هذه الحركة الجديدة رجال الأكليروس ، ووطدوا العزم على تطهير الجو من آثارها ، وتضافر الكاثوليك والبروتستانت على مطاردة أهلها ، وبدت المقاومة رفيقة مع من يستجيب لمطالب الكنيسة ويذعن لأوامرها ، فيوقف مواصلة أبحاثه ويكف عن التبشير بالجديد من آرائه ، وكانت المقاومة عنيفة دامية مع كل من ركب رأسه وجهر بالعناد مع رواد الفكر الحديث ، واستمرت حركة المقاومة قائمة حتى بعد أن قوض عصر النهضة آثار الروح القديم ، وأخذ العصر الحديث يمكن لنفسه على حسابها .

ومن آثار هذه الظاهرة أن John Baptist Porta كان فى النصف الثانى من القرن السادس عشر يقوم بأبحاث علمية قيمة — رغم ما صحبها من بدع العهد القديم ، لم يكن يمارس السحر الأسود على ما كان معروفاً ؛ ولكنه كان يزاول السحر الأبيض الذى كان يرمى إلى الكشف عن قوانين الطبيعة لتسخيرها لصالح الإنسان ، فكان السباق فى مجال العلم الطبيعى الحديث ، وكان كتابه الذى وضعه عن علم الظواهر الجوية أول بحث علمى فى هذا الموضوع ، ومن المحتمل أن يكون ذا فضل فى اكتشاف المرقب . أما فى الكيمياء فقد كان — فيما يلوح — أول من اهتدى إلى طريقة تحويل الأكاسيد المعدنية ، فوضع بهذا أساس الكثير من الصناعات التى درت على الإنسانية الخير الوفير ، وهذا بالإضافة إلى أنه بذل جهوداً محمودة فى تحويل الفلسفة الطبيعية من سحر إلى علم واضح مكين ، فضاقت به السياسة الأكليركية ، وسرعان ما انحلت جمعيته التى أنشأها لخدمة البحث الطبيعى ، واستدعاه البابا بولص الثالث إلى روما ، وحرم عليه مواصلة أبحاثه .

ومثل هذا يقال فى فرنسا ، إذ عرفت باريس عام ١٦٢٤ طائفة من شبان العلماء المشتغلين بمنهج البحث التجريبى الذين انسلخوا عن أرسطو ، ولكن برلمان باريس قد قرر مسوقاً بمساعى رجال الكهنوت تحريم هذه المباحث الكيميائية الجديدة ، وأنذر من لا يذعن لقراره بعقوبات صارمة — فيما يقول وايت White ، وإن كانت فرنسا — فيما رأى بيورى وروبرتسون — قد عرفت لوناً من الحرية أعوزغيرها من البلاد إذ بدا فيها تسامح نسبى فى عهد هنرى الرابع والكردينال ريشيليو ومازران إلى نحو عام ١٦٦٠ م .

وفى إيطاليا نهض الأكليروس لمقاومة الروح العلمى ومطاردة رجاله ، فأكاديمية البحث الطبيعى Academy for the Study of Nature التى أنشأها تليزيو Telesio فى نابلى عام ١٥٦٠ أثارت فزع الأكليروس ، فسارع إلى القضاء عليها ، وأدت حركة المقاومة إلى القضاء على الجهود العلمية المشتركة ، فلم تظهر الجمعيات العلمية فى أوربا إلا بعد مضى ما يقرب من مائة عام ، حين

عقدت فى لندن اجتماعات أفضت إلى قيام ما سمى بعد ذلك بالجمعية الملكية Royal Society ثم تلتها أكاديمية العلوم فى فرنسا وغيرها ، فأثار هذا جزع رجال اللاهوات ، وتملكهم الروع منذ عهد اربان الثامن حتى عصر بيوس التاسع — (أواخر القرن التاسع عشر) — وسنرى موقف رجال الكهنوت من الجمعية الملكية عندما نعرض للحديث على موقف العالم البروتستانتى — وقد استمرت مقاومة العلم الجديد فى إيطاليا حتى بعد أن ضعف الاعتقاد فى السحر ضعفا ملحوظاً ، وليس أدل على هذا من العنت الذى لقيته فى فلورنسا أكاديمية « دل شيمنتو » التى عقدت أولى جلساتها فى فلورنسا عام ١٦٥٧ تحت رآسة الأمير ليوبولد دى مدتشى ، وكانت تضم الممتازين من أهل البحث العلمى الذين اتخذوا شعارهم « دحض كل مذهب فلسفى وإن كان حبيباً إلى النفس ، وضرورة البحث فى ظواهر الطبيعة فى ضوء التجربة وحدها » واستغرقتهم الحماسة فى التزام هذا الشعار وكان لأبحاثهم أطيب الثمرات ، وحسبنا أن نشير إلى « بوريلى » Borelli فى الرياضيات و « ريدى » Redi فى التاريخ الطبيعى ، وكثيرين ممن ساهموا فى البحث العلمى الصحيح ، ووسعوا من نطاق المعرفة الصادقة فعرضوا لدراسة الحرارة والضوء والمغناطيسية والكهرباء وعلاقة المقذوفات بالجاذبية وعمليات الهضم وعدم إمكانية انضغاط الماء .... والتزموا فى بحثهم المنهج العلمى الصحيح ، فكانت الأكاديمية على يدهم حصناً منيعاً للعلم الجديد . ولكن رجال اللاهوت قد ضاقوا بها فضربوا عليها حصارهم ، وأعلنوا اتهام الأعضاء بالهرطقة واللادينية ، وقدموا لرئيسها قبعة الكردينالية ثمنا لخذلانها وخيانة مبادئها ، واستدعى هذا الرئيس إلى روما ، ولكن القلعة قد قاومت خصومها عشر سنوات طوال ، سقطت بعدها وخر أعضاؤها صرعى من عناء الجهاد ، فاضطهد Borelli « بوريلى » وحورب فى رزقه حتى اضطر إلى التسول ، وأكره « أوليفا » Oliva على أن ينتحر فراراً من عذاب محكمة التفتيش[١] .

(١) أنظر فى أكاديمية دل شيمنتو فى كتاب A. D. White ص ٣٩٣ ، ٤١ ج ١ ثم = Henri Martin, Histoire de وكذلك Florentine Hist. vol. v.p. 495

ومثل هذا يقال فيما لقيته أكاديمية Lincei من ألوان الاضطهاد ، كان البابا إربان الثامن يتولى رعايتها ، وكانت تضم طائفة من أهل البحث العلمى الجديد ، فتحرى البابا شل حركتها وإعاقة أعمالها ، وواصل سياسة التضييق عليها البابا جريجورى السادس عشر — فيما يقول Carutti .

ولم تكن أساليب الوحشية التى اتخذتها السلطات الكنسية فى التنكيل بأعضاء أكاديمية دل شيمنتو مثار الدهشة ، فقد سجل التاريخ قبل ذلك مثل هذه الوحشية فى مأساة De Dominsi ومصرع جيوردانو برونو ، فأما الأول فكان رئيساً لأساقفة Spaltra ، وقد ألقت محكمة التفتيش القبض عليه متهماً بهرطقة العلم وغيره ، وألقت به فى غياهب السجن حيث وافته منيته ، فأحرقت جثته مع كتاباته التى خلفها على مرأى من الجماهير .

وبعد ثمانية أعوام من مأساته كان مصرع برنو عام ١٦٠٠ م ، الذى نادى بمذهب كوبرنيكوس الذى اشترك فى إنكاره الكاثوليك والبروتستانت على السواء ، ومضى إلى أبعد من هذا فاعتبر النجوم الثوابت شموساً لكل منها أقماره التى تدور حولها ولا تراها العيون ، وساير رأى القائلين بالنشوء المعرضين عن ثبات الأنواع ، وإن تحرى الإبهام فى حديثه ، وكان أول من مهد للرأى السديمى الحديث ، وقد حاول أن يوفق بين آرائه وتعاليم الإنجيل ، ولكن لم يكن من الميسور لمن اعتنق هذه الآراء وأذاعها فى الناس أن يطيب له مقام ، فغادر إيطاليا حين حامت حوله شبهات الهرطقة ، وحط رحاله فى سويسرة ثم لم يلبث أن غادرها إلى فرنسا فانجلترا فألمانيا ، شريداً طريداً لا يحط رحاله فى بلد حتى يغادره إلى غيره ، وفى عام ١٥٩٢ أغراه صديق خداع بالعودة إلى البندقية ، فلما استقر بها أمرت محكمة التفتيش بإلقاء القبض

= France ثم Jevons, فى Principles of Science vol. II p. 36—40 وعن أهمية أبحاث Borelli فى نظر نيوتن وHuggens أنظر Brewster, Life of Sir Isaac Newton لندن ٨٧٥ ص ١٢٨ — ١٢٩ ويقول Libri فى Essai sur Galilée ص ٣٧ إن أوليفا قد استدعى إلى روما وتولت محكمة التفتيش تعذيبه حتى اضطر إلى الانتحار تخلصا من هذا العذاب ، بإلقاء نفسه من النافذة !

عليه ، ولكنه عاند وكابر ، فزجت به إلى السجن فى روما ستة أعوام أقام فيها على عناده ، فقضت المحكمة بقتله دون أن تراق قطرة من دمه ، فأحرقت جثته عام ١٨٠٠ م على الكامبو دى فيورى Campo dé Fiori ، وذروا فى الريح ما تخلف عنها من رماد ، وبعد مضى ثلاثة قرون من الزمان ، انعقد الرأى عند جمهرة من المفكرين على أن يكفروا عن هذه الجريمة ، بإقامة تمثال له ينصب فى نفس المكان الذى شهد إحداق جثته [١] .

كان هذا فى روما ، أما فى فلورنسا فقد أعدم سافونارولا بقرار من البابا اسكندر الخامس ، مع إخلاص هذا الشهيد للعقيدة الكاثوليكية ، وتوقيره للمركز البابوى وحرصه على حرفية النصوص المقدسة ، ولكن تهجمه على أشخاص البابوات وقيامه بدور سياسى قد مكن خصومه من التضافر عليه والنجاح فى شنقه ، ولو عاش فى عصرنا الحديث لارتفع إلى مصاف القديسين [١] .

وفى تولوز حوكم العالم الطليانى LucilioV anini عام ١٦١٩ ؛ وأدين من جراء آرائه الجديدة ، كقوله بالتطور من أدنى الكائنات إلى أعلاها ، فمزق لسانه ، وأعدم حرقا ، أما فى پادوا فقد أشرنا فى الفصل السالف إلى أن الفلسفة الأرسطاطاليسية — الرشدية — قد هاجرت إليها من پاريس حين اضطهد الداعون إليها ، وعاشت فى پادوا فى ظل الحرية التى كفلها مجلس الشيوخ فى البندقية ، ومنها شاعت فى كلية بولونيا بوجه خاص ، وفى البندقية وغيرها ، وبلغ من شيوع هذه الفلسفة أن أصبح الناس يتغامزون بتشيعهم لها ، وغلب صاحبها — ابن رشد — فيلسوف الإسلام ابن سينا فى القرن الرابع عشر ، وأصبح صاحب النفوذ المطلق فى منتصف القرن الخامس عشر ، ثم أضحى عاملا حياً فى التفكير الأوربى حتى القرن السابع عشر ، وتكفلت الحرية

---

(١) أنظر للتوسع فى ذلك Vie de Jordano Bruno باريس ١٨٩٦ جـ ١ ص ١٢١ و٢١٢ وما بعدها .

(٢) أنظر Villuri, Life of Savonarola وإشارة Bury ص ٤٣ و White جـ ٢ ص ٣٠٢ .

بإظهار طائفة من المشتغلين بالفلسفة اعتنقت اللادينية ، وفاخرت بالمروق من العقيدة : فنشأت حملات بترارك + ١٣٧٤؛ ومن جرى مجراه في مهاجمة الفلسفة الإسلامية والدعوة إلى الرجوع إلى فلسفة اليونان والرومان ، وتحققت هذه الدعوة إبان هذا العصر فبدأت پادوا بتدريس النص اليونانى لفلسفة أرسطو فى الرابع من شهر أبريل عام ١٤٩٧ م وبدأ عهد جديد فى پادوا والبندقية وشمالى إيطاليا ، ودعت فلورنسا إلى نص أفلاطون اليونانى ، حتى إذا ظهر البروتستانت شاركوا خصوم ابن رشد إلى أن أقبل القرن السابع عشر وبدأت فلسفة حديثة لا هى يونانية ولا هى إسلامية ، وخفت النزاع بصدد هذه المشكلة .

ولكن مشكلة البحث فى خلود النفس وفنائها ، كانت مثار الجدل فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن التالى ، إذ نهض بومبناتزى Pomponazzi ١٤٦٩ — ١٥٢٥ فى پادوا وصرح بأننا لا نجد دليلا عقلياً يشهد بخلود النفس ، ورأى أن الخلود المسلم به هو خلود النوع الإنسانى ، ومضى إلى أبعد من هذا فأعلن أن المعجزات والخوارق لا تتمشى مع المألوف من الظواهر الطبيعية ، وأسرف فى هذه النزعة حتى انتهى إلى إنكار أصول الدين ، ولكن هذه الدعوة قد ناهضها أشيلينى الذى كان من زعماء المذهب الرشدى ، واستطال الجدل بينهما حتى أصبح يتداعى ذكره مع ذكر پادوا ، ولما استفحل أمر الجدل وفشا شره ، انعقد مجمع لاتران عام ١٥١٣ وقرر حرم القول بفناء النفس ، وبأنها واحدة فى الناس ، وأنذر بمعاقبة من يبشر بذلك .(١)

هذا بعض ما كان فى العالم الكاثوليكى ، فما موقف العالم البروتستانتى من الروح العلمى الجديد :

---

(١) اقرأ Toprnard, Elements d'Anthropologie ص٥٢ وانظر إشارة White ج ١ ص ٢٨٨ و Bury ص ٨٥ أما عن الجزء الخاص بابن رشد فى پادوا فتقرأ فرح انطون فى ابن رشد وفلسفته ولاسيما ص ٧٦ — ٨١ ثم تراث الإسلام فى ترجمتى لفصل الفلسفة والإلهيات ص ٣٠٥ ج ١ وكتاب روبرتسون J. M. Robertson فى تاريخ حرية التفكير .

مقاومة العالم البروتستانتى :

عداء البروتستانتية للعلم الجديد يشبه عداء الكاثوليكية فى نوعه وإن كان أقل فى درجتـــه ، وقد كانت السلطة إذا تهيأت للمصلحين الذين انشقوا على الكنيسة الكاثوليكية الرومانية لوثت أيديهم بالدماء : وخضبت تاريخهم بأفظع الجرائم وأبشعها ، وليس أدل على هذا من مصرع « سرفيتوس » على يد كلفن الذى تمكن من إقامة حكومة فى جنيف ، جمع فيها السلطة الزمنية مع الروحية — على نحو ما ذكرنا عند الكلام على الحركة البروتستانتية فى الفصل الذى عقدناه على « حرية النظر العقلى » .

وبنفس هذه الروح قاومت انجلترا البروتستانتية الحركة العلمية الجديدة ، وتجلت المقاومة فى عدائها للجمعية الملكية والمجمع البريطانى لتقدم العلم Association for the Advancement of Science ، وكثيراً ما اتخذت المقاومة صورة التهجم وتوجيه الحملات إلى العلماء ، وقد شهر الدكتور « ساويث » South العظيم بالجمعية الملكية واتهم أعضاءها بالهرطقة . ولم تسمح حكومة اليصابات وجيمس الأول بأن تفوقها فى الاضطهاد محاكم التفتيش — فيما يقول بيورى — وقد أدانت إنجلترا مفكراً يعدل برونو فى سعة شهرته ، هو الشاعر « مارلو » Marlowe الذى عاصر شكسبير ، فطمس هذا ذكر عبقريته ، وبفضله قام الشعر المرسل فاتهمته بالإلحاد وقدمته للمحاكمة ، فمات أثناء ذلك فى شجار دنىء فى حانة عام ١٥٩٣ ، ونال العذاب أحد زملائه فى التهمة هو الروائى الدراماتست كيد Keyd ، وفى وقت كانت تقاضى فيه السير « والترالى » من جراء إلحاده ، ولكنه برىء على غير ما كان الحال عند المتهمين من أصحاب الحظ العاثر ، ففى النرويج أحرق فى عهد اليصابات — من جراء القول بنظريات لا تساير المسيحية — ثلاثة أو أربعة كان من بينهم فرنسيس كت الذى كان زميلا فى جماعة الاحتفال بضيافه المسيح Corrus Christi ، وفى عهد جيمس الأول ، اتهم « ليجيت » B. Legate باعتناق آراء هدامة مثيرة للفساد ، فاستدعاه الملك وكان حريصا على تحقيق

هذه الأمور بنفسه ، واستفسر منه عما إذا كان يقيم الصلاة ليسوع المسيح كل يوم ؟ فقال المتهم إنه كان يقيمها أيام جهله ! ومنذ سبع سنين تحرر من قيود هذه الجهالة والغفلة ، ولهذا كف منذ ذلك الحين عن إقامة الصلاة !! فركله الملك بقدمه ، وقال له : « أغرب عنى أيها الخسيس ، لن أسمح بأن يقال إن امرءاً قطع الصلاة للمسيح سبع سنوات ، وأتيح له دخول قصرى » وزج بالمتهم إلى السجن فترة من الزمن وأعلن بعدها زنديقاً لا يقبل صلاحاً ، وصدر الأمر بإحراقه ، ونفذ هذا عام ١٦١١ م . وبعد شهر واحد التهمت النار جسم زميله Lichfield بأمر من أسقف Covetry لاعتناقه آراء ملحدة لا تتمشى مع تعاليم الدين ، ولكن الرأى العام — فيما يظن — قد ضاق بمصرع هذين الرجلين ، إذ لا يعرف تاريخ الاضطهاد من أجل الالحاد فى انجلترا بعدهما شهيداً ، وإن كان البيوريتان قد أصدروا — مدفوعين بتعصبهم — أمراً فى عام ١٦٤٨ يقول إن من أنكر التثليث ورفض القول بألوهية المسيح وتنزيل الكتاب المقدس ، فقد عرض نفسه للاعدام ، وأن من اتهم بغير هذا من آراء إلحادية كان السجن مصيره ، ولكن هذا الأمر لم ينفذ بعد[1] .

هذا بعض ما نرى من مظاهر النزاع فى العالمين الكاثوليكى والبروتستانتى ، والراجح أن اختراع الطباعة فى القرن الرابع عشر قد يسر انتشار الآراء ، فنشط الأكليروس لمراقبة المطبوعات ، وأصدر البابا اسكندر الخامس أمراً بابوياً عام ١٥٠١ ينذر فيه بعقاب من يقدم على طبع شىء لم يصرح بطبعه ، وقرر الملك هنرى الثامن فى فرنسا عقوبة الإعدام جزاء الطبع من غير إذن رسمى ، وأدخلت ألمانيا الرقابة على المطبوعات منذ عام ١٥٢٩ وكانت الكتب لا تطبع فى انجلترا — فى عهد اليصابات من غير ترخيص ، ولا يرخص بوجود مطابع إلا فى لندن وأكسفورد وكمبردج ، وتتولى الإشراف على شئون

---

(١) بشأن مقاومة الجمعية الملكية فى انجلترا تقرأ White ج ١ ص ٤١ ، ٣٩٤ وما ذكر بعد هذا ملخص عن Bury ص ٨٥ — ٨٦ وقد أخذنا عنه وعن White فى الجزء الأول ولا سيما ص ٤١ ، ٣٩٣ الكثير مما كتبناه عن مقاومة الروح العلمى فى هذا العصر .

المطبوعات محكمة النجمة Star Chamber ، ولم تتخلص الطباعة من هذه القيود إلا فى القرن الماضى .

وقد وضع ملتون Milton عام ١٦٤٤ رسالة « أريوباجتيكا » عن حرية المطبوعات غير المرخص بها — دافع فيها عن حرية الصحافة دفاعا حاراً يصلح لتأييد حرية التفكير بوجه عام ، وفى هذه الرسالة يقول : إن الرقابة تفضى « إلى خنق التقدم العلمى ، وتعرقل نشاط العقل فى إقرار الحق ، وهى تخمد مواهبنا وتقصر نشاطها على معرفة ما سبق لنا أن عرفناه من قبل ، وتدفعها إلى الركود والتبلد — وهذا بالإضافة إلى أنها تعرقل وتعوق ما يحتمل أن نكشف عنه من حكمة الدين والدنيا ، لأن المعرفة تتقدم بالتعبير عن الآراء الجديدة ، والحق يتكشف من خلال البحث الحر من كل قيد ، وإذا قدر لنهر الحقيقة أن يتوقف عن التدفق المستمر ، فسرعان ما يتحول إلى بركة آسنة موحلة بالأفكار القديمة المتواترة ، إن الكتب التى يجيزها الرقباء تصلح — فيما يقول بيكون — أن تكون « مجرد تعبير عن المناسبات » وهى لا تساهم فى تقدم العلم بنصيب ، إن ما نعرفه من أمر الأمم ذات الرقابة الصارمة لا يشهد بأن الرقابة تهذب الأخلاق ؛ انظر إلى إيطاليا أو أسبانيا هل أصابت إحداهما شيئاً من الأمانة والعفة والحكمة منذ عرفت رقابة محاكم التفتيش على الكتب . ؟ وقد شاد « ملتون » بحرية الفكر ورفعها فوق الحرية المدنية فقال « أعطنى حرية العلم والتعبير والمناقشة وفاقا للضمير ، ذلك أسمى الحريات جميعاً .

مقاومة الإكليروس لنشأة الفلك الحديث (نظرية دوران الأرض) :

كانت الثورة العقلية التى استغرقت عصر النهضة ، بشيراً بمقدم العلم الحديث ونذيراً باضمحلال اللاهوت القديم[١] ، وقد سجل تاريخ الفكر مولد علم الفلك

(١) انظر فى الفصلين السادس والسابع « كيف كان النزاع بين اللاهوت والعلم ، بصدد طبيعة العالم — فى حجم الأرض وشكلها وعمرها وتكوينها وموضوعها وعلاقتها بغيرها من الكواكب ، وأثر رحلات كولمبس وماجلان ودى جاما . . . فقد أهملنا الحديث عن هذا الموضوع ، واكتفينا بما عرضناه هنا نموذجا للنزاع الذى نعنى بتصويره .

الحديث فى نفس العام الذى مات فيه أول رواده — كوپرنيكوس + ١٥٤٣ وذلك أن الكنيسة كانت فى نظرتها إلى مكان الأرض من سائر الكواكب، قد اعتنقت رأى أرسطو — رب العلم فى العصر المدرسى، اذ اعتمدت الكنيسة مذهبه منذ القرن الثالث عشر — وبطلميوس — رب الفلك طوال العصور الوسطى، إذ قرر الأول — منذ القرن الرابع قبل الميلاد أن الأرض من تراب، وأن هذا الاعتبار يستلزم سكونها فى مركز الكون، ثم جاء بطلميوس فى القرن الثانى لميلاد المسيح، ووضع كتابه المعروف « بالمجسطى » ودوّن فيه فروع علم الفلك فبقى المرجع الأساسى إلى القرن السادس عشر، وقرر سكون الأرض باعتبارها مركز الكون، ودوران الشمس وسائر الكواكب حولها، واعتنقت الكنيسة هذا الرأى، وأهملت الرأى المضاد الذى عرف عند قدماء الفيثاغورية، إذ افترض هؤلاء أن مركز الكون يتحتم أن يكون مضيئا بذاته، لأن النور يفضل الظلام، وساكنا لأن السكون يسمو على الحركة، وبهذا أبعدوا الأرض عن مركز الكون الذى اعتبروه ناراً غير مرئية حتى جاء أرسطارخوس فى القرن الثالث قبل الميلاد وأحل الشمس مكان النار، فأقر بهذا الافتراض الرأى المعتمد فى العصر الحديث، ولكن صوت أرسطو وبطلميوس قد خنق رأيه، فانطمس حتى انبعث فى القرن السادس عشر على يد كوپرنيكوس، الذى يقال إنه اطلع على الرأى القديم فى مؤلفات شيشرون .

أما رأى بطلميوس فقد كان المذهب الذى اعتنقته الكنيسة طوال العصر الوسيط، إذ أثبت كليمان الإسكندرى أنه يتفق مع ظاهر التوراة ويساير روحها، وسرعان ما اتصلت الفكرة بتعاليم الإنجيل وقواها أمثال توما الأكوينى فى مؤلفه العظيم « الخلاصة اللاهوتية » وروج له شاعر المسيحية « دانتى » وغيره ممن استغلوا الفكرة فى تبيان العلاقة بين الله والبشر، وسايرت النظرية موقف الكنيسة من الإنسان الذى كان تاج الخليفة وبطل الرواية الكونية — فيما يقول ولف — خلق لخدمة الله والاستجابة لأوامره . كما خلق

الكون لصالح هذا الإنسان ، فلا مناص من أن يكون مكانه من الكون مركزه ، لأن هذا يمكنه من خدمة الله وتسخير الكون كله لمصلحته ، كما يقول بطرس لمبارد الأستاذ فى جامعة باريس فى القرن الثانى عشر . وهذا بالإضافة إلى أن الفداء المسيحى قد تم على هذه الأرض التى يقيم الإنسان على أديمها ، وهكذا توطدت النظرية « الجيوسنترية » التى نسبت إلى بطلميوس ، وخفت صوت النظرية الهليوسنترية التى بدأ متأخرو الفيثاغورية التبشير بها منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، ولبثت مهملة حتى نزع إلى تأييدها « برونو » الذى استشهد محروقا ، ومكن لها رب الفلك الحديث « كوبرنيكوس » الذى أقر الأرض فى مكانها من الكون ، وأثبت بتجاربه الفجة وأدواته الفلكية الأولية أن الأرض تدور دورة مزدوجة حول نفسها ، وحول الشمس ، وأن الشمس — لا الأرض — هى مركز الكون ، والسيارات إنما تدور حولها على أبعاد متفاوتة ، فلما همّ بإذاعة رأيه تردد طويلا ، إذ كان من أساقفة الكنيسة التى اعتنقت مذهب بطلميوس ، واستعانت به على تأييد النصوص المقدسة ، فأعلن الفكرة الجديدة باعتبارها فرضا متناقضا فى ظاهره ، أكثر منها مذهباً علميا فى الطبيعة ! وبعد ثلاثين عاما تولى أحد تلامذته — Widmenstadt تفسيرها أمام كليمان السابع باعتبارها مجرد فرض يدفع إليه حب الاستطلاع ، ثم توارت بعد ذلك ... ولكن كوبرنيكوس قد واصل دراستها حتى تأيدت عنده حقيقة لا تقبل شكا ، ولكن إعلانها على هذا النحو فى روما ينذر بسوء المصير ، ولهذا ارتد إلى وطنه فى بولندة يائساً ، ولكنه أتم بعد ثلاثين عاما وضع كتابه « حركات الأجرام السماوية Revolutions of the heavenly bodies الذى كان حداً فاصلا بين العلم والإنجيل ، وأهداه إلى قداسة البابا ، ولكنه تردد فى نشر الكتاب ثلاثة عشر عاما ، نجحت بعدها مساعى أصحابه ومريديه ، فاعتزم طبعه وهو واجف القلب قلق النفس ، ثم تردد فى مكان طبعه ، لأن روما مقر الكثلكة ، و « وتنبرج » مهد البروتستانتية ، فهما معقل الرجعيين من أعداء كل جديد ، فلجأ إلى نورمبرج وعهد بكتابه إلى أوزياندر Osiander ؛ ولم يجرؤ هذا الناشر على إذاعة الكتاب من غير مقدمة ، كان وجه الطرافة فيها أنها تنكر

على صاحب الكتاب اكتشافه العلمى ، فتزعم أنه فرض خيالى لا مذهب علمى ، وأن من حق عالم الفلك أن يسترسل مع شطحات خياله ، وأن هذا هو شأن كوبرنيكوس فى كتابه ، وحققت المقدمة الغرض الذى وضعت من أجله ، ففى الرابع والعشرين من شهر مايو عام ١٥٤٣ تلقى كوبرنيكوس أول نسخة من كتابه وهو طريح الفراش يعانى متاعب الشيخوخة فى السبعين من عمره ، وأشفق الموت على شيخوخته فعجل باختطافه بعد بضع ساعات من وصول الكتاب إليه ! وحرصت الكنيسة سبعين عاما على ألا تثير الجدل فى أمر هذا الكشاف العلمى ، وقنعت بأن يخلو من الإشارة إليه الشاهد الذى ينصب على قبره ! وحسب الشاهد دعاء يلتمس فيه الغفران ! حتى انقضت على وفاته ثلاثون عاماً ، تمكن بعدها أحد أصدقائه من تسجيل النظرية على شاهد القبر . فلما أيد الرأى جاليليو — بما سنعرف أمره فى الفصل التالى — جزعت الكنيسة من هذا الشر الزاحف ، وأمرت بمصادرة الكتاب حتى تصحح آراؤه بحيث تتمشى مع الفكرة القديمة المألوفة ، وسارت البروتستانتية بمختلف فروعها ، من لوثرية وكلفنية وانجيلية فى هذا التيار نفسه ، فأطلقت غضبها وسلطت شرها على صاحب النظرية ومؤيديه . وأعلنت مستندة إلى النصوص المقدسة مروقهم من حظيرة الدين القديم ، وسارت الجامعات حتى أواخر القرن السادس عشر فى ركاب هؤلاء الرجعيين ، وصدرت الأوامر إلى أساتذتها بعدم الاشارة إلى مثل هذه النظريات ، على نحو ما أشرنا فى الفصل الذى عقدناه على « حرية النظر العقلى » .

وهكذا تكاتفت معسكرات الرجعيين على مقاومة هذه النظرية ومطاردة دعاتها ، ولكن آية الحق لا يطمسها مثل هذا التضييق ، وخصومه لا يستطيعون أن يطفئوا نوره ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

وإذا كان الموت قد أنقذ « كوبرنيكوس » من شر ما كان ينتظره ، فإن خصومه لم يتورعوا عن الانتقام منه ميتاً ، إذ بعد وفاته بنحو ثلاثة قرون من الزمان — مايو ١٨٢٩ — اجتمع فى وارسو حشد عظيم من الناس ، لإحياء

ذكراه ورفع الستار عن تمثال نحت من أجله ، وكان المنتظر وقد كان كوبرنيكوس قسيساً برىء معتقده الدينى من كل طعن ، وفاضت حياته ورعاً وصلاحاً وتقوى ، أن يؤدى رجال الدين واجبهم نحو ذكراه ، وتوقع منظمو الحفلة ذلك فسار الحشد إلى الكنيسة وانتظر رجال الكهنوت ، وطال الانتظار ساعة لم يظهر فيها أحد منهم ، ولم يكن هذا ببدع لأن كتابه لم يرفع من « فهرست الكتب المحرمة على المؤمنين » إلا بعد خمس سنوات من هذا التاريخ .. !

ولقد كان الرأى الجديد فى القرن السادس عشر مثاراً للغبن عند رجال الكهنوت ومن جرى فى ركابهم من دعاة العلم السلبى ، فان « كوبرنيكوس » كان من صفاء النفس أو دقة المنطق بحيث استطاع أن يحدس بانتصار الروح الجديد ، قال له ذات يوم بعض خصومه : إذا صح رأيك وجب أن تتكشف الزهرة عن وجه كأوجه القمر ، فلم يحر جوابا ، ولكنه — بإيمانه العميق — لاذ برحمة الله ، وقال إنه تعالى كفيل بتحقيق ما تقولون ، فلم ينقض على وفاته ثمانية وستون عاماً حتى أثبت مرقب « جاليليو » نبوءته [1] .

موقف الكنيسة من عمران الكرة الأرضية :

ولقصة دوران الأرض بقية تأتى فى الفصل التالى ، ولكن الحديث عن هذا الموضوع يتداعى مع موقف الكنيسة من عمران الأرض فى شتى جوانبها ، فقد كان الاعتقاد فى عمران الجانب المواجه لموطننا من الأرض مثار جدل أدى إلى التنكيل والاضطهاد :

انحدرت هذه الفكرة إلى العالم المسيحى عن اليونان والرومان ، أيدها

---

(١) أصول نظرية كوبرنيكوس فى الفيثاغورية القديمة موجودة فى كتاب : Flammarin Vie de Copernic, واقرأ Hoefer Hist. de l'astronomie 1873p p. 107seq واقرأ كذلك : Menzer's trans.ofCopernicus' works وبصدد بقاء كتاب كوبرنيكوس فى الفهرست ١ ، عام ١٨٣٥ وعن نبوءته الأخيرة فنقرأ Cantu, Histoireun Universelle ج ١٥ ص ٤٨٣ والمؤلف كاثوليكى رومانى مخلص وقد أحسن عرض تاريخ النظرية الدكتور A. D. White اندرو ديكسون وايت فى كتابه القيم A Hist. of the Warfare of Science with Theology in Christendom وعليه كان أكبر اعتمادنا .

أمثال شيشرون وبلينى ، وأنكرها أمثال أبيقور ولوكريتوس وبلوتارك ، وسرعان ما تسللت الفكرة إلى العالم المسيحى وتراوحت بين الإنكار والتأييد ، وذهب بعض القديسين إلى أن الخلاص غير مستحيل على من اعتنق هذا الرأى ، ولكن جمهرة الآباء كانوا على شك فى إمكان هذا الخلاص ، وبدا لمنكرى الفكرة أن من خطل الرأى أن يعتقد الإنسان بوجود أناس تعلو مواطئ أقدامهم على رءوسهم .. ! وبوجود نباتات وأشجار تنمو ضاربة إلى أسفل ، ومطر وجليد يصيب سطح الأرض من تحت إلى فوق ! أليس هذا مايترتب على الاعتقاد بأن الوجه المقابل لموطننا من الأرض معمور بالخلائق . ؟ ولو صح هذا الزعم لوجب أن يمضى المسيح إلى هؤلاء الناس ويقضى مصلوباً من أجل خلاصهم . ! إن التوراة فيما يرى القديس أوغسطين + ٤٣٠ لا تشير إلى مثل هذه السلالة الآدمية ، وكيف يأذن الله بوجودها فى هذه البقاع التى لا يتيسر لأهلها رؤية المسيح حين يعود فيهبط من السماء إلى الأرض ؟ إن التبشير بالإنجيل لم يبلغ هذه البقاع التى يزعم أنصار « الانتيبود » أنها معمورة ، لأن المزمور التاسع عشر يقول : « فى كل الأرض خرج منطقهم وإلى أقاصى المسكونة كلماتهم ؛ ومن هنا أعلن القديس بولص فى رسالته إلى الرومانيين أن المبشرين لم يبلغوا هذه الأرض التى زعموا أنها معمورة ، فهذا الزعم افتراء على القديس بولص والروح القدس ، وإذا قال هذا « أوغسطين » فقد أنصتت الكنيسة والعالم المسيحى من ورائها واعتنقت رأيه دينا ، فاستقر رأيه عشرة قرون من الزمان ، قل من تردد إبانها فى التسليم به ، وحتى الذين اعتقدوا فى كروية الأرض من أمثال أزيدور الأشبيلى — فى القرن السادس — قد جنحوا عن التسليم بفكرة عمران جوانب الأرض كلها ، ولكن المفكرين لم يكونوا جميعاً على الرأى اللاهوتى القديم ، وقد كان فى طليعة القائلين بعمران الجوانب كلها ألبير الكبير ، وإن أحاط حديثه بغموض أدى إلى اعتباره فى نظر البعض منكراً للفكرة ، ولكن الكنيسة قد اعتنقت رأى « أوغسطين » ولجأت إلى محاكم التفتيش وآلات التعذيب وسخرتها فى مطاردة خصومها عسى أن تتوارى عن الأذهان فكرتهم ، فهمت محكمة

التفتيش فى مطلع القرن الرابع عشر — ١٣١٦ م — بإعدام الطبيب بطرس البانو أو يونو كما جرت العادة بتسميته ، ولكن المنية عاجلته فأنقذته من براثنها ، وامتد الاضطهاد إلى محاربة أحرار الفكر فى أرزاقهم ، فاتهمت فى عام ١٣٢٧ العالم الفلكى الذائع الصيت تشيكو داسكولى Cecco d'Ascoli بالسحر وأقصته عن منصبه كأستاذ فى جامعة بولونيا ، ثم أحرقته حيا فى فلورنسا — وكان كلاهما يعتقد بأفكار من بينها عمران الجانب المواجه لموطننا من الأرض — وخلد هذه المأساة الفنان Oreagna فصور الشهيد والنار تأكل جسمه ، وعلقت الصورة على جدران Camp. Sants فى مدينة بيزا (١) .

واستغلت الفكرة اللاهوتية فى محاربة «كولمبس» والقضاء على مشروع رحلته فى كشاف أمريكا ، إذ لجأ — بعد أن أبى مجلس جنوه أن يزوده بالمال — إلى ملك البرتغال ، فأحاله إلى مجلس من العلماء رفض مطلبه . وحقر من شأنه أسقف Centa ولكن الملك يوحنا الثانى كان مشغوفا بكشاف المناطق المجهولة ، فأشار عليه أحد الأساقفة بإرسال بعثة دون علم من كولمبس ، ولبث هذا يلتمس تحقيق مشروعه حتى استجابت له ملكة قشتالة ، ولكن أحد رجال الدين قد توجس أول الأمر من هذا المشروع الذى قد يتضمن المروق من الدين ، ثم اقتنع بالمشروع وأعان صاحبه على الملك فردنند — زوج ايزابيلا — فأحاله هذا إلى مجلس من العلماء ألحموه بنصوص من المزامير وأقوال مستقاة من القديس بولص والقديس أوغسطين ومن إليهما من آباء الكنيسة ، وقيل إن الجدل قد استمر ثلاثة أعوام ثبت بعدها بطلان المشروع الجديد . . ! وهذا على الرغم من أنه — فيما يقول كتاب سيرته — مدين برحلته إلى الروح الدينى ، والتحمس

---

(١) انظر مأساة بطرس البانو : Naudé, Hist. des grands hommes soupçonnés de Magie وفى مأساة تشيكو داسكولى اقرأ Montucle, Hist. des Mathématiques 1,528 وكذلك Daunon, Études Historiques vol.VI.P.320 أما عن تصوير الفنان له وهو يحترق فى النار فاقرأ Renan, Averroes, et l'Averroisme, Paris 1867, P. 8

لإذاعة النصرانية فى البقاع التى يقدر لها اكتشافها ، وشاء الله أن تتحقق آمال كولمبس ، وأن يدحض أوهام خصومه ، ولكن الكنيسة برغم هذا قد أصرت على موقفها الذى أنكرت فيه كروية الأرض وأبت التسليم بأن يكون غير موطننا من الأرض معموراً بالخلائق . ! فلما استدعى البابا اسكندر السادس عام ١٤٥٣ للفصل فى الخلاف الذى نشأ بين أسبانيا والبرتغال من جراء ما تدعيه كل منهما من الحق فى احتلال الأراضى المكتشفة حديثا ، حسم الخلاف بينهما بجرة قلم ، إذ جر على خريطة العالم خطأ فصل به سطح الأرض من الشمال إلى الجنوب على بعد مائة فرسخ من جزر الأزورس Azores ، للبرتغال كل ما اكتشفت شرقيه ، ولأسبانيا ما اكتشفت غربيه . ! ولكن أحداث الخلاف لم تنقطع ، فاضطر البابا يوليوس الثانى عام ١٥٠٦ إلى أن يغير موضع خط التحديد ، فجعله على بعد ٣٧٠ فرسخا من جزر داس فيرد Verde — وإن أبقى الخط ممتدا من الشمال إلى الجنوب ، ولكن البرتغاليين قد أدركوا أنهم يستطيعون امتلاك البرازيل لو ساروا شرقا وواصلوا السير طويلا . . ! وعلى الرغم من أن « ماجلان » قد أثبت برحلته المشهورة — عام ١٥١٩ — كروية الأرض بالطواف حولها ، وشاهد مع رفقائه الناس الذين يسكنون الجانب المواجه لموطننا من الأرض ، فإن الكنيسة قد لبثت تقاوم هذا الرأى قرنين من الزمان ، حتى أكد صحة الرأى مبشرون طافوا حول الأرض للتبشير بالدين المسيحى ، وتثبتوا من صحة ما ادعاه خصوم الكنيسة ، فهدأت ثائرة النزاع بعد اثنى عشر قرنا من الزمان[١] .

---

(١) انظر فيما ذكرنا عن كولمبس Humboldt, Hist. de la Géographie du Nuveau Continent أما عن خط التحديد الذى رسمه البابا اسكندر الثالث فانظر Daunon, Études Historiques vol. II, p. 147. أما عن أثر رحلة ماجلان فاقرأ Henri Martin. Hist. de France vol. XIV p. 395 وكذلك Sr.Mortin. Hist. de la Géographie p. 369. ، وعرض لتاريخ « الانتبود » أى سكان الجزء المواجه لموطننا من الأرض وبيان النزاع بصدده White فى الجزء الأول ص ١٩٢ — ٢١٩ فى الفصل الثالث من الباب الثانى . وهو مترجم فى النسخة العربية .

فهرس الكتب المحرمة على المؤمنين :

كان اختراع المطبعة إيذاناً بانتشار الكتب وتيسير تداولها ، وشيوع النزعات الجامحة والآراء الهدامة ، وكان هذا كفيلا بإزعاج المعسكرات الدينية والدوائر المحافظة ، فنشطت الكنيسة فى مراقبة الكتب التى تهدد الإيمان وتهجم على العقائد ، وتدفع الناس إلى الاستخفاف بالسلطات الدينية والاستهانة بقواعد الآداب ومبادئ الأخلاق ، واضطلعت محكمة التفتيش بفرض رقابتها على المطبوعات ، وأنشأت من أجل هذا سجلا تدون فيه أسماء الكتب التى تحرم الكنيسة على المؤمنين قراءتها أو حيازتها ! وقد بدأت نواة هذه الرقابة منذ عصور المسيحية الأولى ، إذ نهضت الكنيسة بمقاومة كل ما من شأنه زعزعة الإيمان أو فساد الأخلاق ، وكان من هذا ظهور « Decretum Gelasianum libris recipiendis non recepiendis » ونزعت الكنيسة إلى إحراق الكتابات التى تنطوى على الإلحاد وتهدف إلى مخالفة تعاليمها ، وأصدرت من أجل هذا قراراً امبراطوريا ، وسرت هذه الروح طوال العصر الوسيط ، ثم أقرت جامعة كولونى — قبيل نهاية القرن الخامس عشر — الرقابة على الكتب وأوجبت إجراء فحصها قبل طبعها ، فاستحقت بذلك ثناء البابا سكتسوس الرابع وتهانيه ، وكانت موضع تقدير من البابا إنوسنت الثالث (نوفمبر ١٤٨٧ م) وفى عهد البابا الإسكندر السادس ذهب بهذا القرار إلى مداه مجلس لاتيرن Latern Council ، فقرر معاقبة كل ناشر يقدم على طبع كتاب من غير ترخيص من هيئة دينية خاصة بذلك ، وكانت العقوبات التى أقرها تتراوح بين الحرمان ودفع الغرامة ومصادرة الأملاك وإعدام الكتب . وقد قرر « مجلس ترانت » فى اجتماعه الرابع — ١٨ أبريل ١٥٤٦ م — حظر بيع أى كتاب دينى أو امتلاكه متى كان غفلا من اسم صاحبه ، أو غير معتمد من السلطة الدينية المنوطة بذلك . ثم أذيعت قوائم بالكتب التى ترى الكنيسة تحريم قراءتها وتولت طبعها الجامعات[1] . ثم أمر

---

(١) جامعة باريس فى عام ١٥٤٢ وجامعة لوفان Louvain فى عام ١٥٤٦ (ثم ١٥٥٠) وجامعة كولوني والبندقية فى عام ١٥٤٩ . . . الخ .

البابا بولص الرابع بجمع الديوان المقدس ، بإعداد ثبت بالكتب المحرمة . طبع أول مرة عام ١٥٥٧ وأعيد طبعه معدلا فى مستهل عام ١٥٥٩ ، وكان أول قائمة رومانية رسمية بالكتب المحرمة ، ونص فيها على تحريم هذه الكتب وقرار الحرمان لأهلها ، وقسمت إلى ثلاثة أبواب ، تضمن أولها أسماء المؤلفين الذين أدينت كتبهم ، وشمل ثانيها كتب هؤلاء المفكرين ، واحتوى ثالثها أسماء الكتب المحرمة التى صدرت غفلا من أسماء مؤلفيها . . . ثم طبع هذا الثبت معدلا فى يونيه من عام ١٥٦١ . . . وتوالى طبعه من حين إلى حين .

وبمرور الأيام وتغير الظروف الاجتماعية ، كفت السلطات عن تطبيق القواعد التى وضعها فى هذا الصدد « مجلس ترانت » والتمس الكثيرون من القساوسة إعادة النظر فى هذا الفهرس ، فلما اعتلى عرش البابوية ليو الثالث عشر اذاع فى الخامس والعشرين من يناير ١٨٩٧ قانونا من تسعة وأربعين بنداً ، عدل فيها النظام القديم وخفف العقوبات التى فرضت على أحرار الفكر من قبل ، وأذن بنشر الكتب التى لا تمس العقيدة الكاثوليكية ، وصرح بطبع الكتاب المقدس تيسيراً لتفهمه ودراسته ، وترجمة الإنجيل إلى اللغات الدارجة . . . إلى آخر ما ورد فى هذه القوانين الجديدة التى تساير روح العصر على قدر الاستطاعة[١] .

كلمة أخيرة :

على هذا كان النزاع بين اللاهوت القديم والفكر الجديد فى عصر النهضة ، وقد توج مصرع « برونو » عام ١٦٠٠ هذه المرحلة التى انقضت فى عرف مؤرخى التفكير فى نهاية القرن السادس عشر ، فأخذت حركة الاضطراب

---

(١) مصادر الفصل وردت فى هوامش الصفحات وصلب الكلام — واقرأ كتابنا قصة الاضطهاد الدينى — للتوسع فى موضوع فهرست الكتب المحرمة اقرأ مقال « بودنهون » A. Boudinhon بدائرة معارف الدين والأخلاق Encyc. of Religion & Ethics ثم كتابه La Nouvelle Legislation de Lindex (Paris 1899) وكتاب T. Hurley, Comment on the Present Index Legislation(Doblin 1908) ومادة Index فى دائرة المعارف البريطانية .

تتلاشى ، وتضاءل نفوذ المسيحية الرومانية ، فيما يقول دراپر Draper وبدأ الشك الهدام يتحول إلى يقين تجريبى فى ميدان العلم ، ونظر رياضى فى مجال الفلسفة ، وكف المفكرون عن إحياء التراث العقلى القديم ، ونزعوا إلى ابتكار تراث جديد ، وأخذ الاتزان يحل مكان الرعونة التى أصابت مرحلة الانتقال ، فكان هذا إيذاناً بمطلع العصر الحديث ، على أشلاء الذين استشهدوا فى سبيل الحقيقة ، والتمسوا من أخلافهم استيفاء الجهاد من أجلها حتى تقر ويتوطد أمرها ، وكان العقل قد مكن لنفوذه بين الناس ، فازداد إيمانهم به وإذعانهم لمنطقه ، وكان هذا نذيراً بامتداد النزاع أجيالا طوالا . . . وهذا ما نراه فى حديثنا التالى :

الفصل السادس

نمو النزعة العقلية فى العالم الكاثوليكى

فى القرنين السابع عشر والثامن عشر

إمكان الجمع بين التفلسف والتدين — سلطان العقل عند ديكارت — سلطان الوحى فى فلسفته — غلبة الوحى على العقل — علاقة ديكارت برجال اللاهوت — موقف رجال اللاهوت إزاءه — أثر ديكارت فى العصر الذى تلاه — حملة « بايل » المقنعة على المسيحية — تطور اتجاه الفلسفة فى القرن الثامن عشر — حملات فولتير الهدامة السافرة على المسيحية ورجالها — اضطهاد روسو من أجل حملاته على الدين — مقاومة الماديين ورجال الموسوعة للمسيحية — تعقيب — « سبينوزا » بين التفلسف والتدين — عداء السلطات الدينية اليهودية له — جاليليو ونظرية دوران الأرض — محنة جاليليو ومراحل اضطهاده — اضطهاد أتباعه بعد مماته .

إمكان الجمع بين التفلسف والتدين :

أوشكت حركة التحرير فى عصر النهضة أن تقوض سلطان الدين وتعصف بتقاليده وتجتاح نفوذ رجاله ، وما أشرق العصر الحديث — فى مطلع القرن السابع عشر — حتى انصرف المفكرون عن ابتعاث التراث القديم ونزعوا إلى الابتكار والإبداع ، وقدر لهذا العقل الجديد كل نجاح ، فأنشأ فلسفة عقلية جديدة — وإن تحدرت بعض عناصرها عن الماضى البعيد — ومهد لظهور العلم التجريبى الحديث ، وبهذا أقر يقين المعرفة — بعد أن دالت دولة الشك الهدام — على نظر عقلى رياضى يتدعم بنيانه ، واستقراء تجريبى تتوطد أركانه ، ومن هنا ظن الذين تخدعهم الظواهر وتستخفهم النظرة العاجلة فيسارعون إلى الحكم المبتسر ، أن العالم الأوربى قد أخفق فى إبداع فلسفة جديدة ، حتى تيسر له التحرر من سيطرة الدين ونفوذ تقاليده ! ولهذا الحكم دلالته عندهم على نهوض الاستقراء التاريخى شاهداً على قيام التعارض بين

التدين والتفلسف ، وتعذر الإنتاج العقلى الناضج ، مع الإيمان بالوحى الدينى ومقتضياته ، أى أن التفلسف يقتضى الإلحاد ، والإيمان يمنع الابتكار . ! كما قلنا فى مقدمة هذا الكتاب .

وهذه الفكرة المرَوِّعة مثار ضيق مُمِض وقلق مُلح عند الكثيرين ، ولو كانت صحيحة لأغفلنا أمرها وما حرصنا على تفنيدها وتحرينا القيام بدحضها ، ولكن فى فلسفة القرن الذى نقوم الآن بتأريخه خير معوان لنا على ما نريد .

ذكرنا فى الفصل الثانى من هذا الكتاب رأى سانتهلير ولفنجستون وغيرهما ممن ردوا أصالة Orginality الفلسفة اليونانية إلى استقلالها المطلق عن الدين فى كل صوره ، وهذا الرأى لا ينفى فيما يلوح لنا ، إمكان الجمع بين التدين الصادق والتفلسف المثمر ، من غير تعارض يستلزم القضاء على أحدهما .

كان روح النهضة على تنافر ملحوظ مع روح العصر الوسيط ، لأن حركة البعث قد أعلت صوت العقل الذى كان قد خبا وسار فى ركاب الوحى إبان العصر الوسيط — على ما عرفنا من قبل ، وبدت حركة التحرر من الدين عنيفة واضحة إبان عصر النهضة ، ومع هذا التحرر الذى أوغل فيه المفكرون إلى أقصى آماده ، لم يستطع مفكرو هذا العصر أن يبدعوا فلسفة جديدة مبتكرة ! وظل التفكير الفلسفى طوال هذا العصر نزاعا إلى إنشاء العلم الطبيعى ، ميالا إلى ابتعاث المذاهب الفلسفية القديمة ، أما الفلسفة المبتكرة حقاً فلم تولد إلا فى مطلع العصر الحديث — فى القرن السابع عشر — الذى اشتد فيه الإيمان بشريعة العقل مع الإبقاء على قدسية الدين وحرمة تعاليمه . . ! وكانت فرنسا أصدق مثال للتعبير عن هذه الظاهرة ، إذ جدّت فى إزالة التنافر الذى كان بين روح العصر الوسيط وروح النهضة ، وحاولت أن تقيم التوازن بين مقتضيات الطبيعة وأوضاع الإيمان الدينى ، وجمعت بين التسليم الملحوظ بسلطان العقل ، والإيمان العميق بوحى المسيحية — فيما يقول بارودى ، وكان هذا هو معقد الطرافة فى فلسفة هذا القرن ! ولم يكن تلاقى العقل الفلسفى

والإيمان الدينى عقيما مجدبا ، بل تكشف عن إبداع فلسفى خليق بكل إعجاب ، وحسبنا أن نذكر ديكارت ومالبرانش لنتبين مبلغ الصدق فيما نقول ، وفى هذا القرن قام نوع من التزاوج بين التدين والتفلسف عند مالبرانش فى فرنسا وسبينوزا فى هولندا ، وجون لوك فى انجلترا . . . . ومن هنا كان الجمع بين التفلسف وروح التدين .

وقد كان تلاقى العقل والإيمان خليقا بأن يصادف هوى من نفوس رجال اللاهوت ، ولكن بعض الفلاسفة الذين تمثلت فيهم هذه الظاهرة قد لاقوا من المعسكرات الدينية عنتاً شديداً ، وكان ديكارت من هؤلاء ، تمثل فيه انعدام التعارض بين الدين والفلسفة ، وتجلى عنده الإيمان بالدين والحرص على تَرَضّى رجاله ، وتجنب كل ما يثير مكامن الضيق فى نفوسهم ، عن وفاء لهم أو اتقاءاً لشرهم ، ومع هذا لم ينج فى حياته من اضطهادهم له وتجنيهم عليه ، ولم تسلم ذكراه بعد مماته من أذى يلحقونه بآثاره ، وهكذا طاردوه حياً وميتا . . . ! فلنعرض لبيان هذا على قدر ما يتسع المقام :

سلطان العقل عند ديكارت :

شاعت الفوضى وفشا الشك الهدام فى أوربا إبان القرن السادس عشر — على ما عرفنا من قبل — فطاحت سلطة الكنيسة والكتب المقدسة وتداعت سطوة الدين والإيمان ، وانهار نفوذ العلم وضاع سلطان أرسطو ، وانحلت وحدة أرووربا روحياً وعقلياً ودينياً وسياسياً فيما يشير أستاذنا A. Koyré وفى هذا الجو ظهر ديكارت ، أبو الفلسفة الحديثة ، فأخذ يحول شك « مونتانى » Montaigne إلى منهج يستند إلى منطق العقل وينتهى إلى يقين الحقيقة ، ليقيم فوق تلك الأنقاض فلسفة جديدة ، فأخذ يجهر باستبعاد كل سلطة غير سلطة العقل الذى يجعل الحدس Intuition المعيار الوحيد لكل حقيقة ، وقد أراد بالعقل القوة التى يتطلبها تمييز الحق من الباطل ، وضمنه مرحلتين هما الحدس والاستنباط Deduction والحدس عنده تصور ينشأ فى نفس سليمة عن نور

فطرى طبيعى يمكننا من أدراك الأفكار البسيطة ، ويكون فى الطبائع البسيطة غير المركبة ، ويليه الاستنباط العقلى وهو حركة فكرية يستنبط بها شيء من شيء آخر ، وقد أفضى تمسكه بالعقل ، بهذا المعنى ، إلى تداعى سلطة الكنيسة وانحلال النفوذ الذى تهيأ لأرسطو وبدا ديكارت — عند أمثال تشارلس آدم — ممثلا للمذهب العقلى فى الفلسفة الحديثة .

وقد أكد ديكارت نزوعه العقلى بقواعد منهجه الرياضى الذى وضعه لاكتشاف الحقيقة فى شتى العلوم ، إذ جعل قاعدة اليقين أولى قواعده ، وفيها أوجب على الباحث ألا يقبل حقيقة على أنها كذلك ، إلا إذا بدت أمام عقله الحر المستقل فى وضوح وتميز لا يدع للشك مجالا ، وبهذا انتفت الأحكام التى تحدرت عن السلف ، أو تكونت منذ أيام الطفولة ، واستبعدت الأفكار التى لم يصل العقل بشأنها إلى يقين كامل ، وامتنع التسرع الذى لا يسبقه النظر العقلى المستقل ، فأمن بهذا أوهام العلم الذى كان يدرسه ويشعر بما فيه من قصور ؛ نشأ عن كثرة بناته الذين تحدروا عن أجيال متعاقبة (القسم الثانى من المقال) ومن هنا اعتزم النهوض بتجديد العلم واستئناف الفلسفة وكأن أحداً قبله لم يفلسف . . ! بالتفكير الحر فى نفسه ، لأن الحقيقة تثوى فى نفوسنا كما تثوى النار فى الحجر الصوان ، وأولى مراحل هذا المشروع الضخم أن يطهر بالشك المنهجى الإرادى[1] عقله من كل ما حوى من أفكار وما تضمن من معتقدات ، ليعرضها على حكم العقل ، ولو مرة فى حياته ، ويستبعد منها كل ما لا يساير شريعته ، وبهذا لا يذعن العقل لغير الحقيقة التى يتكشف عنها جهده الحر ، ومن هنا كان شكه غير مطلوب لذاته ، بل ليسلم إلى يقين المعرفة وليمكن صاحبه من أن يترك الأرض الرخوة والرمل إلى الصخر أو الصلصال ، فيما يقول فى مقاله .

---

(١) Méthodique وهو الشك الذى يزاوله الإنسان بإرادته رغبة فى امتحان أفكاره وتخليصها من كل ما علق بها من أوهام وأخطاء ، فهو خطوة إلى اليقين ، وبهذا يتميز من الشك الحقيقى réel الذى يقع فيه صاحبه بغير إرادته فيبدأ شاكا وينتهى شاكا — انظر كتابنا أسس الفلسفة ص ١١٦ وما بعدها طبعة ثالثة .

وتتبع خطوات منهجه يكشف عن نزعته الرياضية التى هيمنت على فلسفته فى كل مراحلها وخطواتها ، ومن هنا كان أبا المذهب العقلى فى الفلسفة الحديثة ، وإليه يدين دعاة هذا المذهب فى القرنين التاليين .

هذه هى بعض آيات تمسكه بالعقل الذى رد إليه « سلطانه » بعد أن هدمه شك القرن السادس عشر ، وشاعت هذه النزعة العقلية عند مفكرى هذا القرن جميعاً .

فلنعرض موقفه من الدين ومن علاقة الوحى بالعقل فى فلسفته :

سلطان الوحى فى فلسفته :

ولكن ديكارت لم يذعن لثورته العقلية حتى نهايتها ، لأن هذا العقل الذى يعتز به هبة من الله شارك فيها الناس جميعاً ، بل إنه أعدل ما فى العالم قسمة بين البشر فيما يقول فى مطلع مقاله ، ولكن كيف نطمئن للعقل الذى يهبه الله بعد أن أخضعناه لشكنا على نحو ما أبنا من قبل .. ؟ فى الحق إن الإمعان فى الشك لايمكن صاحبه من أن يشك فى أنه يشك ، والشك محتاج إلى ذات تشك ، ومن هنا ثبت وجود النفس كذات تفكر ، وأضحى هذا أول مبدأ يقينى اهتدى إليه ديكارت بعد شكه المسرف ، فاعتبره مبدأ الفلسفة التى يتحرى إنشاءها ، وسر اليقين فيه وضوحه وتميزه أمام العقل ، ومن هنا كان كل مابدا على هذا النحو حقاً لاريب فيه ، كما يقول فى مقاله وفى تأملاته ، وأول مايلزم عن هذا المبدأ تميز النفس عن الجسم ، وخلودها أى عدم تعرضها للفناء ، وأدراك الإنسان لشكه يفضى إلى إدراك نقصه ، ونقصه هذا مقيس إلى تصور شىء تام الكمال ، ألقاه فى نفسه — تبعاً لمبدأ العلية عنده — كائن مطلق الكمال ، هو الله .

وإذا أثبت ديكارت وجود الله وأوضح صفاته التى تساير كماله المطلق ، علق على هذا كل يقين عقلى ، فربط بهذا بين الدين والفلسفة فى بداية فلسفته ، إذ أن الله عنده واجب الوجود الذى صدرت عنه أفكارنا ، وهو كامل مطلق الكمال ، وهذا يتنافى مع إضافة الخداع إليه ، لأن القدرة على خداع الناس

وإن كانت آية ذكاء ، إلا أن إرادة الخداع لاتصدر إلا عن خبث أو خوف أو ضعف ، وحاشا لمطلق الكمال أن يكون كذلك — كما يصرح فى كتابه « مبادىء الفلسفة » ، وإذا كانت أفكارنا قد صدرت عن الله المنزه عن كل خداع ، أمكن الاطمئنان إلى العقل وتصديق أحكامه فى كل ما يبدو أمامه واضحاً جلياً متميزاً . هكذا كان الله ضمان اليقين فى الاستدلالات والبراهين فى الرياضيات والطبيعيات على السواء ، وبغيره لايستقيم يقين عقلى ولاعقيدة دينية ، ومن هنا أصبح الله مركز التفلسف الديكارتى ، ولازمت فكرته الإنسان حتى ليجوز حد الإنسان بأنه الموجود الحاصل على فكرة الله . ولكن أدلة رجال اللاهوت على وجوده لاتصمد للنقد ، وأساليبهم فى الدفاع عن الدين متداعية ، لأنهم يعلقون الإيمان بالله على ماتعلمه الكتب المقدسة ، ثم يعلقون الإيمان بالكتب المقدسة على افتراض صدورها عن الله ، فيقعون بهذا فيما يسميه المناطقة بالدور — كما يقول فى خطاب صدر به تأملاته ، وهذا بالإضافة إلى فشو الشك والإلحاد بين الفرنسيين فى عصره ، إلى حد أن أحصى « مرسين » فى باريس وحدها خمسين ألف ملحد ! ، ويزيد من خطر هؤلاء إقبال القراء على آثارهم دون أن تجدى فى مقاومتهم جهود أهل السلطة من رجال اللاهوت والبرلمان ، ومن أجل هذا كله نهض ديكارت للدفاع عن العقيدة الدينية والتدليل على وجود الله بالبرهان العقلى .

وقد بدا الله فى فلسفة ديكارت متمشياً مع تصور الدين له ، فهو موجود كامل مطلق الكمال أزلى دائم لامتناه ، علة لذاته وليس معلولا لغيره ، أبدع الأشياء كلها وعنه صدرت الكمالات والحقائق جميعها . . . إلى آخر الصفات التى تتفق مع صفاته فى عرف الدين ، وإذا كانت فلسفته مع هذا كله ليست دينية تشبه فلسفة العصور الوسطى ، إذ اعتمد على الدين وأقام عليه بعض نواحيها ولكنه مضى بها بعد المراحل الأولى مستقلة عن الدين الذى اعتبره مخالفا لها فى طبيعته ، ولم يكن يسخر كل فلسفته لخدمة الدين وإقامة دعائمه بل لعل الأصح أنه اتخذ وجود الله وسيلة للتوصل إلى اليقين العقلى وليس

يعنينا البحث فى هذه النقطة ومناقشة آراء المؤرخين فيها ، وحسبنا أن نقول إنه ضم الطرفين اللذين كانا متنافرين — العقل والوحى — فى سمط واحد ، ولم يضحِّ بأحدهما فى سبيل الآخر .

ولكن إذا كان ديكارت قد اعتز بسلطان العقل وآمن بسلطان الوحى على نحو ما أبنَّا من قبل ، فماذا يكون الحال إن تعارض العقل مع الإيمان ؟ .

غلبة الوحى على العقل :

لقد فصل ديكارت فى هذه المشكلة فصلا لا يدع مجالا للشك ، فأعلى صوت الوحى على صوت العقل ، وإذا كان قد أمن بمنهجه الرياضى كل باطل سبق إلى علمه ، واستجاب بهذا لنداء العقل وحده ، فإنه قصر شكه عن تناول العقيدة الدينية ، فاستثنى من منهجه القائم على الحدس والاستنباط وحدهما كل حقائق التنزيل ، لأنه اعتبرها فوق متناول العقل ، وجعل الإيمان بها من أفعال الإرادة وليس من عمل الذهن ، وبهذا عدل عن الفلسفة العقلية إلى لاهوت العصور الوسطى — فيما لاحظت دائرة المعارف البريطانية — وأصبح ميدان العقل لا يتجاوز الحقائق الفلسفية ، أما الحقائق الدينية التى تهدى إلى الجنة — فيما يقول فى القسم الأول من مقاله — فإنها فوق متناول العقل ، وليس من الحكمة أن نسلمها إلى ضعف استدلالاتنا العقلية ، لأن البحث فيها لا يكون إلا بمدد غير عادى من السماء ، أى بوحى ينزله الله على من يصطفيه من عباده فيرتفع بهم دفعة واحدة إلى عقيدة معصومة من كل خطأ ، ولهذا لاحظ « جلسون » أن ديكارت وإن كان قد أعلى صوت العقل فى أولى قواعد منهجه فى المقال على ما عرفنا من قبل ، فإنه صرح فى « مبادىء الفلسفة » بأن كل ما أوحى به الله أوثق بكثير من كل ما عداه ، وبهذا شابه القديس توما الأكوينى ومن جرى مجراه من الفلاسفة الدينيين فى تصور العقل مستسلماً لسلطان الوحى .

ولم يكن هـذا غريباً على ديكارت الذى دان بتعاليم الدين وتقاليده منذ

صغره ، وحرص على تَرَضّى رجال الدين حرصاً عَابَهُ عند بعض مؤرخيه ، ومن مظاهر مجاراته للتقاليد الدينية أنه حين اكتشف « قواعد » علم جدير بالإعجاب فى ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ ، نذر الحج إلى أحب مكان عند الكاثوليك ، وهو كنيسة العذراء فى لوريت بإيطاليا ليقيم الصلاة لله وللعذراء شكراً على توفيقه فى اكتشافه ! أما مسلكه بوجه عام وإزاء رجال الدين بوجه خاص فيقتضى أن نقول فيه كلمة :

علاقة ديكارت برجال اللاهوت :

كان شعاره : عاش سعيداً من أحسن التخفى — كما كان يفعل أبيقور قديماً ، ومن هنا تحرى أن ينشر كتبه — كالمقال — غفلا من اسمه ، وتوخى أن يتجنب الكتابة فى الشئون السياسية وكل ما يفضى إلى إثارة القلاقل ، وهو يردّ حرصه على العيش فى جو من الهدوء والطمأنينة إلى الرغبة فى مواصلة البحث — كما يقول فى خطابه إلى صديقه « مرسين » وكان إلى جانب هذا يطمع فى أن تأخذ فلسفته مكان الفلسفة الأرسطاطاليسية فى مدارس العالم المسيحى ، ولن يكون هذا إلا إذا اعتمدها رجال الكنيسة ، وكان من بين هؤلاء من تربطه بهم صلات مودة وصداقة ، وهذا بالإضافة إلى خوفه من محاكم التفتيش التى كانت لا تزال تروّع العالم الأوربى فى عصره ، ولهذا كان يؤثر حبس آرائه على نشرها متى بدت مثاراً للشك ومدعاة للقلق ، فمن ذلك أن منهجه أداه إلى نفس النتائج التى انتهى إليها جاليليو بصدد دوران الأرض ، ولكن أنباء إدانة الفلكى الكبير قد ترامت إلى سمعه فأثارت فزعه ، حتى أعلن أن الشكوك قد ساورته فى أصول فلسفته ، لأن دوران الأرض إن صح بطلانه تداعت أصول فلسفته كلها ، ومع إيمانه بأن القول بدوران الأرض لا يتنافى مع الدين ، كاد يقدم على إحراق كتابه « العالم » الذى ضمنه هذا الرأى ، لأنه لا يريد أن تصدر عنه كلمة واحدة لا تعتمدها الكنيسة ! ويؤثر حبس الرأى على إظهاره مشوهاً — كما يقول فى خطاب إلى صديقه مرسين ، بل يؤكد هذا النزوع الوديع فى مقاله فيصرح بأن لرجال

محكمة التفتيش من السلطة على أعمـاله ما لعقله من السلطة على أفكاره . . !
ومن هنا جاء الغموض الذى أحاط به حديثه عندما عرض لتأييد دوران الأرض فى « مبادىء الفلسفة » بل أفضى به ترَضّى الكنيسة إلى أن يغمط جاليليو فضله عليه ، إذ يدين له ببعض ما انتهى إليه من أسس العلم والفلسفة ، بل من التزام مناهج علميـة فى تفـكيره فى سن مبكرة ، لأن من العسير أن نعتبر تطور عقله كما بدا فى المقال عام ١٧٣٧ مجرد سيرة لحياته — فيما يقول روبرتسون Robertson ، ويصرح هنرى مور H. More بأن طبيعياته قد أفسدها خوفه من الـكنيسة ، كما أثار سجن جاليليو جزعه وفزعه .

ومن دلالات حرصه على علاقاته برجال الـكهنوت سعيه لاعتماد مؤلفاته منهم ، وقد بدا هذا المسعى مع اليسوعيين فى « مبـادىء الفلسفة » عام ١٦٤٤ كما أعلن على غلاف التأملات فى طبعته الأولى إقرار رجال الدين له ! بل إن إسرافه فى الحرص على ترَضّى رجال الدين قد أفضى ببعض مؤرخيه من أمثال M. Lero إلى اتهامه بالنفاق والرياء وإثارة الشك فى صدق تدينه . . ! فما موقف رجال الدين منه ومن آثاره بعد هذا كله . . ؟

موقف رجال اللاهوت ازاءه :

ومن الغريب أن إخلاصه للـكثلـكة وإيمـانه العميق بالمسيحية فيما يقول بعض مؤرخيه : وجهوده الطيبة فى تأييد عقائدها ومسايرة تقاليدها واحترام رجالها وتجنب إثارتهم ، لم يتكفل بنجاته من اتهامهم له بالإلحاد . . . ! لم يتمكن من تحويلهم عن أرسطو ، أو اتقاء سوء تأويلهم لبعض نواحى فلسفته ، ومن أجل هذا تضافر الكاثوليك والبروتستانت على اضطهاده حيا وميتا . . ! وقد كان روح العصر بما تضمن من تمسك الـكنيسة بأرسطو مبررا لهذا الاضطهاد ، فقد عقد شبان العلماء اجتماعات فى باريس لنقد طبيعيات أرسطو والانتصار لنظرية الجوهر الفرد ، فصرح رجال الدين ببطلان هذا الرأى ومخالفته لعقيدة العشاء الربانى عند الكاثوليك ، وسرعان ما أصدرت الحـكومة

أمرها بإخلاء المكان بعد أن ضم نحو ألف مستمع ونفى منظميه خارج باريس! وأعلن البرلمان بطلان كل رأى لا يساير الآراء القديمة وأنذر بإعدام كل من خرج على أرسطو والكنيسة . . !

تتلمذ ديكارت على اليسوعيين ودان بمبادئهم ، وتأثر بالأفلاطونية المحدثة التى اعتنقها الأوراتور ، وقد رد بعض مؤرخيه إلى هذا اتفاق فلسفته مع أسرار الدين . ولكن اليسوعيين قد ضاقوا به لأنه هاجم الفلسفة المشائية التى كانوا يدينون بها فى مدارسهم ، وزاد فى ضيقهم أن أتباع الجانسينية (إحدى الطوائف الدينية التى عاشت فى فرنسا وتولت Les Jansénists العمل على تهذيب النشء) ، قد اعتنقوا مذهب ديكارت وهاجموا اليسوعيين ، فزاد هذا من غضب هؤلاء على ديكارت — وإن كان له أتباع من بينهم .

وكان من عوامل اتهامهم له بالهرطقة تنافى آرائه مع العشاء الربانى ؛ ولم يقنعهم دفاعه عن نفسه رغم أن أتباعه المتدينين قد حصلوا من الملكة كرستينا Christina على تصريح أعلنت فيه أن لديكارت فضلا عظيما فى ردها إلى العقيدة الكاثوليكية(١) .

وقد صادف « مقاله على المنهج » نجاحا هيمن على التفكير الفرنسى كله ، واجتذب إلى دراسته سيدات الطبقة المترفة فى فرنسا ، فيما يقول روبرتسون وغيره من المؤرخين(٢) ولكن أحد آباء اليسوعيين (Bourdin) قد حاول أن يحمل الأكليروس الفرنسى على المسارعة إلى إدانته فى غير تباطؤ ، بيد أن محاولته قد فشلت لأن فرنسا ، برغم كل ما أسلفناه عنها ، كانت أعظم بقاع العالم الأوربى نزوعا إلى حرية التفكير يومذاك — فيما يقول الكثيرون من المؤرخين .

---

(١) Bouillier, Hist. de la Philos. Gartésienne, 449—50 (عن روبرتسون ج ٢ ص ١٢١) .

(٢) مثل Bouillier ج ١ ص ٤١٠ وما بعدها و Lanson فى تاريخ الأدب الفرنسى و Brunatiere فى دراسات نقدية . . الخ ما ذكره روبرتسون ج ٢ ص ١٢١ .

أما عن موقف البروتستانت فى حياته فقد بدأ حين استقر فى هولندة ليكون بمنأى عن معارفه وأصدقائه ، عسى أن تمكنه عزلته من القيام بتجديد الفلسفة كما يشير فى مقاله ، وكانت هولندة على تسامح ملحوظ مكنها من طبع ما لا يتاح طبعه من الكتب فى غيرها من البلاد الأوربية ، ومع هذا ضاق به رجال الكهنوت وحاولوا أن يوقعوه تحت آلات التعذيب بتهمة الالحاد فيما يقول وايت A. D. White [1] وقد اهتمت بفلسفته جامعة أوترخت منذ نشأتها عام ١٦٣٤ ، فثارت بها مناظرة فيها تأييد لمذهبه وهجوم عليه ، وتولى الهجوم عميدها الذى رفع آخر الأمر قضية على ديكارت ! وأحس الفيلسوف بأنه مهدد بالنفى والغرامة وإعدام كتبه ، فطلب إلى سفير فرنسا أن يتدخل لحل هذا الاشكال ! وتكررت مثل هذه المناظرة فى ليدن ، ولكن السفير الفرنسى كان يتوسط لفضها حتى صدرت الأوامر إلى أساتذة ليدن بعدم التعرض للحديث عن ديكارت بخير أو شر !

هذا ما لقيه ديكارت من عنت رجال الدين أثناء حياته ، ولعل هذا كله هو الذى حمل « وايت » Wihte على أن يقول مبالغاً فى تصوير هذا العنت : إن جور رجال اللاهوت منذ عصر روجر بيكون — فى القرن الثالث عشر — لم ينل بالإذلال والامتهان أحداً كما نال ديكارت !

فلما مات ديكارت طارد خصومه ذكراه وتعقبوا آثاره ونجحوا بعد ثلاثة عشر عاماً من وفاته (عام ١٦٦٣) فى وضع مؤلفاته فى فهرست الكتب التى حرمت قراءتها على المؤمنين . . ! وفى سنة ١٦٨١ صدر أمر ملكى يحرم تدريس فلسفة ديكارت فى الجامعات الفرنسية كلها [2] . . ! واضطهد الأساتذة والقساوسة الديكارتيون وصدرت الأوامر بنفيهم أو إكراههم على إنكار فلسفته ، وكان من ضحايا هذا الاضطهاد الأب Lami عضو مجمع الأوراتورى (وكانت جماعة الأوراتور من بين الطوائف الدينية التى اعتنقت المذهب

Vol. I, p. 185 (١)

Bouilier P. 356 & Robertson Vol. 11, p. 124 (٢)

الديكارتى لما وجدته فيه من تشابه بمذهب القديس أوغسطين والأب Anddré اليسوعى[1] وأكره أعضاء الأوراتور Oratorains عام ١٦٧٨ على إنكار فلسفته، والتصريح بعدولهم عن أقوالهم الديكارتية السالفة واحتفاظهم بمبادئهم .

* * *

هذا ما لقيه فيلسوفنا من عنت حياً وميتاً ، برغم أنه استفرغ وسعه فى السير بالفلسفة العقلية — فى بدايتها — مع الوحى الدينى جنباً إلى جنب واستنفد جهده فى الإبقاء على الدين بعيداً عن نقد العقل ، وبرغم أنه كان حريصا على إظهار ولائه واحترامه لرجال الدين ، ولهذا يتساءل بعض مؤرخيه عما كان يريده منه هؤلاء حتى يرضوا عنه ويباركوا آثاره ..؟ قد لا يعدمون فى أقواله مالا يساير تصورهم الساذج للدين وتعاليمه ، ولكن ألا يكفى فى غفران مآخذه عندهم هذا الصرح الشامخ من الخلق العبقرى الممتاز الذى أقامه من لبنات من عقل ودين ، فى عصر فشا فيه الإلحاد وعز الإيمان ؟ إن فلسفته كنز ، هى ثروة للدين من حيث إن المطلع عليها يستخلص منها إمكان قيام الإنتاج العقلى الناضج مع الإيمان العميق بالعقيدة الدينية ، وهذه مأثرة ينبغى أن يكبر لها رجال كل دين فى كل زمان ومكان ، لأن فيها رداً على الاتهام الذى وجه إلى الأديان جميعا ، من حيث إنها تعوق النظر الحر وتعرقل قيام الإنتاج العقلى الناضج ، ولكن رجال الكهنوت — من بروتستانت وكاثوليك — قد كافئوا ديكارت على هذه المآثر باضطهاده ووضع آثاره فى الفهرست ليحرموا قراءتها على المؤمنين !

على أن من الإنصاف لرجال الدين أن نقول إنهم بحكم مهنتهم وانسياقاً مع وفائهم لعقيدتهم مطالبون بالدفاع عن كل ما يدخل فى تصورهم من تعاليم الدين وتقاليده ، ووقايته من كل شر يحتمل أن يتهدده .

---

(١) Bouillier, P. 460 sq, 11,393 sq.

أثر ديكارت فى العصر الذى تلاه :

قيل إن ديكارت قد قصد خيراً والتزم الحيطة فيما كتب ، وحد من طلاقة العقل وجموحه ، وأعلن ضرورة الاستسلام للدين وتقاليده ، ولكن ما قصده شيء ، ومنطق مذهبه ونتائج دعوته عند أتباعه شيء آخر . وقد شاعت فلسفته فى أوربا كلها واجتذبت إليها الكثيرين من أهل العقل والأدب والدين معاً ، وأضحت فلسفة العصر كله ، وإذا كانت فلسفة القرن السابع عشر فى فرنسا — كما تبدو عند مالبرانش قد ظلت مع تشيعها لمنطق العقل — على ولاء للدين ووحيه ، فان القرن الثامن عشر كان ويلا على الدين ورجاله ، لأن العقليين قد استخفهم منطق العقل ، فانطلقوا إلى الوحى والكتب المقدسة وانهالوا عليها طعناً وتهكما وتفنيداً ، وكان فى طليعة هؤلاء رجال الأنسيكلو بيديا من ديدرو وفولتير ممن سنعرض للحديث عنهم فيما بعد ، وما من شك فى أن لنزعة ديكارت العقلية وقواعد منهجه الرياضى أثرها فى هذا التطرف الذى حمل أصحابه إلى الآفاق التى حذر من ارتيادها ديكارت ، يقول Lévy Bruhl فى معرض حديثه عن تطرف بعض الفلاسفة فى مناهضة الدين ومعاداة تعاليمه ، ومقاومة النظم الاجتماعية القائمة إبان القرن الثامن عشر : إن مبادىء ديكارت تحمل نصيباً موفوراً فى تكوين فلسفة تختلف مع فلسفته اختلافا ملحوظا .

وما قيل عن فرنسا إبان القرن الثامن عشر يمكن إطلاقه بشيء من التجاوز عن غيرها من بلاد العالم الأوربى بعد ذلك ، ولهذا وجب أن تلين نظرتنا إلى موقف رجال الدين من ديكارت[1] .

---

(١) مصادر فى تصوير الجو العقلى والدينى عند ديكارت :

Descartes :

Discours de la Méthode (texte et commentaire par E. Gilson) =

حملة بايل المقنعة على المسيحية(١) :

لم يكن بد بعد عنت رجال اللاهوت من أن يتخفى أحرار الفكر فى كتاباتهم اتقاء اشر خصومهم ، ويمثل هذه التقية مفكر فرنسى بروتستانتى كان له نصيب موفور فى تقدم المذهب العقلى فى فرنسا ، هو « بايل » P. Bayle + ١٧٠٦ وقد أبعد عن فرنسا فلجأ إلى هولندة — كما لجأ ديكارت — وتصدى لمقاومة رجال اللاهوت الذين تحروا اضطهاد الأحرار استناداً إلى الآية الانجيلية التى تقول : أجبروهم على اعتناق دينكم ، واعتماداً على أقوال القديس أوغسطين فى هذا الصدد ؛ فكتب « بايل » دفاعه عن التسامح « تعليقات فلسفية على آية أجبروهم . . . » ونشر الكتاب عام ١٦٨٦ ، أى فى نفس الوقت الذى صدر فيه كتاب « جون لوك » Locke فى هذا الصدد ؛ وكان على اتفاق مع هذا الفيلسوف الانجليزى فى الكثير من اتجاهاته وأدلته ، منها تقوية النزعة العقلية بإلزام السلطة الدينية حدها ، ورفض السلطة الدينية مصدراً للحقائق ، وإن كان لوك رد الحقائق إلى التجربة ، وأرجعها بايل إلى الاستقصاء التاريخى .

= أى المقال فى المنهج ترجمه إلى الانجليزية Veitch = Discourse on Method وإلى العربية مع التقديم له زميلنا الأستاذ محمود الخضيرى ثم كتاب ولديكارت كذلك : وهو مترجم إلى الانجليزية Les Principes de Philosorhie .

واقرأ عن ديكارت :

Oeuvres de Descartes ed. by Ch. Adam & P. Tennery.

ديكارت : لزميلنا الدكتور عثمان أمين

A. Koyré. Trois Leçons sur Descartes.

ألقاها باسم كلية الآداب فى الجمعية الجغرافية بالقاهرة ونشرتها الكلية مع ترجمتها العربية للأستاذ يوسف كرم عام ٩٣٧ .

Ch. Adam,Vie et Oeuvres de Descartes, Etude Historique.

ملحق بآثار ديكارت التى نشرها آدم وتاناى .

Hamelin. La Système de Descartes.
Encyclopædia Britanica art. Descartes by : Abraham Wolf.
Kuno Fischer, Descartes & his school (Eng. tr. by N. Porter)
Haldane, Descartes, his life & times.

عن اضطهاد رجال الكهنوت له عدا ما ورد فى بعض المؤلفات السالفة :

Robertson, J. M. A Short History of Free-thought vol. II.
White, A. D., A Hist of the Warfare of Science with Theology vol I

(١) أنظر فى الجزء التالى « بيورى » و « بارودى » فى المصدرين اللذين أسلفنا ذكرهما .

وقد كان « بايل » يؤكد الشك فى قيمة القوة أداة لإقرار الحق ، إذ لو كان استخدام القوة فى قمع الخطأ مبدأ صحيحاً ، لما كان هناك حق بلغ من اليقين ما يبرر تطبيق هذا المبدأ .

وقد أصدر هذا اللاجئ « القاموس الفلسفى » الذى كتبه بأسلوب لاذع مُر تخفى خلاله وبقى وراء قناع دينى ستر حرية فكره وأخفاه عن عيون خصومه . وكان « بايل » كلفا بجمع الاعتراضات التى تَزوَّد بها الملحدون لاستخدامها فى تقويض العقائد المسيحية الرئيسية ، وقد عرض فى كتاباته آثام النبى « داود » ومظاهر وحشيته فى غير حيطة أو حذر — على غير ما عُرف عنه — وصرح بأن « حبيب الله » هذا رجل تستنكف أن تمد اليه يدك لمصافحته ! وقد أثارت هذه الصراحة الجافة مكامن الغضب عند الناس : فكان رد « بايل » على هذا ، إذعانه لاتجاه « مونتانى » و « بسكال » فى إبعاد العقل عن مجال العقيدة .

وكان من رأى « بايل » أن فضيلة الإيمان فى نظر اللاهوت هى الاعتقاد بحقائق الوحى اعتماداً مطلقا على الثقة بالله ، فاذا آمنت بخلود الروح لأسباب فلسفية كنت مسيحياً لا حظّ لك من الإيمان ، وقيمة الإيمان تعظم وتعلو بنسبة تفوق الحقائق المنزلة على قوى العقل ، وكلما كانت هذه الحقائق غير ممكنة الإدراك ومجافية لمنطق العقل ، كبرت تضحيتنا فى سبيل التسليم بها وعظم خضوعنا لله ، وبهذا يكون بسط الاعتراضات التى يثيرها العقل ضد العقائد الدينية الرئيسية مفيداً فى تعظيم قيمة الايمان !

ومن وجوه النقد التى وجهت إلى قاموسه الفلسفى أنه شاد بفضائل الذين كفروا بوجود الله ، ولكن « بايل » يعتذر عن هذا قائلا : إنه لو صادف ملحداً ساءت سيرته لسره أن يطيل الحديث عن رذائله ، ولكنه لم يصادف فى حياته مثل هذا الملحد ! بينما نصادف فى التاريخ مجرمين نرتعد لهول جرائمهم ، كانوا يؤمنون بوجود إله ... ! وهذه نتيجة طبيعية تفضى إليها الفكرة الدينية التى تقول : إن الشيطان — وهو الذى لا يستطيع أن ينكر وجود الله — هو الذى يغرى الناس بارتكاب الآثام ! ومن هذا نرى أن خبث الإنسان يشبه

خبث إبليس فى أن كليهما مؤمن بوجود الله . . . ! ثم ألا ترى الدليل على حكمة الله التى لا تحد قائما فى أن أكبر العصاة الآثمين ليسوا بملحدين ! وأن يكون أكثر الملحدين الذين ترامت إلينا أنباؤهم رجالا أشرافا ؟ بهذا استطاعت العناية الإلهية أن تقى الإنسان الفساد ، إذ لو اتحد الإلحاد والشر عند الإنسان الواحد لتعرضت الدنيا لطوفان مروع من المعاصى والآثام .

* * *

بمثل هذا كان يكتب « بايل » يتظاهر — أحيانا — بالدفاع عن العقيدة وخدمة تعاليمها وهو يقوض أركانها ويقرر تنافى مبادئها مع منطق العقل ، وبهذه الخطة المرسومة أفلت « بايل » من شر خصومه . وكان لكتابه الذى يمتاز بالاطلاع الخارق تأثير واسع المدى فى انجلترا وفرنسا على السواء ، وبه استعان أعداء المسيحية فى هذين البلدين ، وكان الطبيعيون Deists من مؤلهة الانجليز أول من قاد هذه الحملة فى عنف بالغ مرير — على نحو ما سنعرف بالتفصيل بعد ذلك .

تطور اتجاه الفلسفة فى القرن الثامن عشر :

فإذا انتقلنا إلى القرن الثامن عشر فى فرنسا لاحظنا تغيرا ملحوظا ، فان فلسفة ديكارت قد أثرت فى فرنسا بنوع خاص تأثيراً واسع المدى ، واجتذبت إليها العقل والأدب والدين معاً ، وقد قلنا إن موقفه من الدين قد برىء من العدوان والتجنى ، ولكن مقصده ونياته شىء ، ومنطق مذهبه ونتائج دعوته عند أتباعه شىء آخر . . ! إذ استغلت فلسفة القرن الثامن عشر مذهبه العقلى حتى فى المجال الدينى الذى نحاه عنه ديكارت ! بل انعكست الآية حين زعزع القرن الثامن عشر تأثير ديكارت يوم اعتنقت فلسفة هذا القرن المذهب التجريبى وعارضت ديكارت العقلى بفيلسوف انجلترا التجريبى « لوك » أى عارضت العقل بالتجربة فكان عصر كونديلاك Condillac ولامترى La Mettrie صاحب كتاب الإنسان الآلى ، وبفون Buffon صاحب كتاب التاريخ الطبيعى ، وريمور Reaumur ولابلاس Laplece وغيرهما ممن نشأ عن آرائهم ما سمى

بفلسفة النور ، وبهذا نشأ نوع من الاحتقار للفلسفة الميتافيزيقية التى احتلت المكان الأول فى فلسفة القرن السابع عشر فى فرنسا ، فأصبح العقل — مع استمراره رائد القرن الثامن عشر وهاديه — واقعيا تجريبيا بعد أن كان فى القرن السابع عشر يقينيا ميتافيزيقيا — كما يقول بارودى — هذا ما كان من أمره إجمالا لا تفصيلا .

ومن هنا قيل إن فلسفة القرن الثامن عشر قد استندت إلى المذهب العقلى الذى بشر به ديكارت ، وغالت فى التمسك به حتى أطاحت بالدين الذى أبقى عليه ديكارت من قبل ، وقامت بحملاتها المرة الساخرة سافرة لا يسترها حجاب ، بل ظهرت الحملة حتى فى الشعر الهجائى والجدول والمسرح والقصة ، فلنقف قليلا لبيان هذا الاتجاه الجديد :

حملات فولتير السافرة على المسيحية ورجالها :

يتجلى هذا الاتجاه فى مهاجمة الدين المنزل وحماته من غير حيطة ولا حذر ، عند رجال الأنسيكلوبيديا يتقدمهم « فولتير » و « ديدرو » ، وقد كان فولتير طبيعيا مؤلها Deist ، آمن بوجود إله هدت إليه طبيعة العقل البشرى ورأى أن ذلك من صالح المجتمع ، ولهذا يقول : « إذا لم يكن الله موجودا لوجب اختراعه ! » أو « يجب أن نؤمن بالله حتى تكون زوجتى أكثر وفاء لى وخادمى أقل لصوصية ! » ، فاستغنى بهذا عن الوحى والكتب المقدسة وأطلق على المسيحية لفظ الكائن الوضيع ، وحارب الكنيسة ورجالها وكان فى كل حملاته صارما تنضح صراحته سخرية مرة وتهكما ، وقد بذل أقصى جهوده ليظهر للناس ما تنطوى عليه المعتقدات المسيحية من تخريف وحماقة ، وليبين عن استغلال رجال الدين فى جميع الديانات لسذاجة الناس .

وقد هداه التأمل فى مشاهد الكون إلى أنه مصنوع بيد مهندس مريد درّاك ، والإيمان بوجود إله ضرورةٌ يقتضيها قيام الأخلاق ، ومن هنا قاوم فولتير « الإلحاد » فى غير رفق ولا هوادة ، وإن لم يمنعه هذا من مقاومة

التعصب ومهاجمة الخرافات ومناهضة الاضطهاد والتبشير بالتسامح الدينى ، ومواقفه فى الدفاع فى قضايا الاضطهاد الآثم تحتل أبرز مكان فى تاريخ الدفاع عن حرية الاعتقاد[1] وقد تأثر فولتير فى حملاته على التعصب والخرافات بمفكرى الإنجليز من أمثال « لوك » و « بولنجبروك » Bolingbroke السياسى الذى أخفى إلحاده مدى حياته إلا عن خاصة أصدقائه ، فلم تنشر مقالاته النزاعة إلى تمكين العقل إلا بعد عام ١٧٥٤ — أى بعد مماته .

أخذ « فولتير » فى مهاجمة المسيحية بعد منتصف القرن الثامن عشر : عندما أصبحت مزاولة الخرافة والاضطهادات الدينية معرة العصر ، فانقضّ على الكنيسة يهاجمها فى كل ميدان من ميادينها ساخراً متهكما ، وكان أولى حملاته كتيب أسماه « مقبرة التعصب » وضعه عام ١٧٣٦ ولم ينشره إلا عام ١٧٦٧ ! وقال فى مطلعه إن من يعتنق دينه من غير تفكير — شأن السواد الأعظم من الناس — كالثور الذى يستسلم للنير ويحمله راضيا ! ومضى بعد هذا إلى ما تضمنته الأناجيل من وجوه الخلاف والإبانة عن نشأة المسيحية وتاريخ الكنيسة — هذا التاريخ الذى يقول إن كل رجل عاقل لا يملك إلا أن يفرق فزعا من اعتناق المسيحية ! إن الأعمى هو الذى يؤثر على الدين الطبيعى الذى يمتاز بالبساطة ويشارك فى الإيمان به جميع الناس ، عقيدةً متناقضة سفاكة للدماء ينتصر لها الجلادون وتحيط بها عصبة من الأشرار الوصوليين ، عقيدة لا يذعن لها إلا الذين أفادوا منها سطوة وثراء ، عقيدة خاصة لم يعتنقها إلا عدد قليل من سكان هذا العالم . . !

وإذا كان فولتير قد تأثر بكتابات « بايل » ونقاد الإنجليز فإن رقة أسلوبه ومرارة سخريته ميزة تبدو بوجه خاص فى « موعظة الخمسين » و « أسئلة زاباتا » وغيرهما ، ومن دلالات ذلك تعليقه على الأخطاء الجغرافية التى وردت فى « العهد القديم » أى التوراة بقوله : من الواضح أن الله لم يكن قويا فى الجغرافيا ! وعلى الجريمة القبيحة التى ارتكبتها زوجة سيدنا لوط ، عندما تلفتت إلى الوراء

(١) ترى تفصيل هذا فى كتابنا « قصة الاضطهاد الدينى » .

ومسخت عامودا من الملح إذ يتمنى تعليقاً على هذه القصة — لو كانت قصص الكتاب المقدس أقدر من هذا على تهذيب الناس وترقية نفوسهم ، ما دامت لا تنفع في إضاءة العقول ! وقد كان من أحب الأساليب إليه أن يتناول العقائد المسيحية وكأنه يسمع عن وجود المسيحيين واليهود لأول مرة في حياته !

لعل العالم المسيحى لم يعرف كاتباً أثار من البغضاء أكثر مما أثار فولتير ، وقد كان يعتبر عدواً للمسيح وكان هذا أمراً طبيعياً ، لأن حملاته كانت بالغة التأثير فى ذلك الوقت ، ولكن البعض قد آخذوه على أنه كان هداما لا بنَّاء ، ولكن من الإنصاف أن نقول مع بيورى رداً على هذا إننا إذا وجدنا رجلا ينشر فى مدينة وباءاً وجب المبادرة إلى استئصال هذا الشر وعدم انتظار اختراع مصل مضاد ، وربما كان من العدل أن يقال إن الدين الذى اعتنقته فرنسا فى عصر فولتير كان مصدر بلاء عظيم ، والواقع أن المعرفة — ومن ثم المدنية — تتقدم بالنقد الهدام كما تتقدم بالبناء والاختراع ، ومتى أوتى الانسان المقدرة على أن يهاجم الباطل والتغرض والخداع ، أصبح من واجبه — إن كان ثمة واجب اجتماعى — أن يستغل قدرته ومواهبه فى هذا الهجوم .

اضطهاد روسو من أجل حملاته على الدين :

على أن النزوع للبناء ، قد عرف عند « جان جاك روسو » — أحد زعيمى الفكر الفرنسى فى ذلك الوقت — فقد ساهم فى إنماء الحرية بطريقة أخرى ، لقد كان من الطبيعيين الإلهيين ، وإن كان على عكس « فولتير » من حيث إنه متدين عاطفى ، فى نظرته للمسيحية شك يحوطه الوقار والاتزان ، وفى تفكيره ثورة وتمرد ونزوع إلى التنفير من التمسك بالدين ، فأثر هذا فى زعزعة « السلطة » فى كل ميدان . وكان تأثيره فى هذا الصدد مروعا ، واستطاع بأسلوبه الحار أن يستبد بهوى قرائه حتى خافه الأكليروس أكثر مما خاف « فولتير » الساخر !

وإذا كان « منتسكيو » وفولتير ورجال دائرة المعارف يتحرون الاهتمام بالعلم والحضارة الحديثة وتقدم الانسان فى (دنياه) دون اكتراث بالمشاكل

الميتافيزيقية ، فإن « روسو » يحرص على الاهتمام بمسألة الدين والأخلاق ، وعنه صدرت الحركة الرومانتية التي ارتبطت في القرن التاسع عشر بتجديد ديني صوفي عام ؛ ولهذا هاجم الحضارة وعارض بين العقل والشعور تصريحاً وتلميحاً ، وزعم أن التفكير يتلف إحساس القلب الفطري ، وآثر الحياة البدائية على حياة التفلسف والنظر العقلي ، فالانسان عنده خيّر بفطرته ، يفسده التفكير وتتلفه الحياة الاجتماعية ، وأزال بهذا ظن القرن السابع عشر — بوجه خاص — في أن الفضيلة تقوم في سيطرة العقل على جميع الشهوات .

وقد تأثر روسو بنشأته في سويسرا الكلفنية ، فاقترح حكومة مثالية لم تكن خيراً من الحكومات الاستبدادية الدينية ، ودينا مدنياً هو في صميمه « مسيحية سمحاء » ولكنه رأى أن تفرض على جميع المواطنين بعض العقائد التي بدت أساسية في نظره ، ومن أبى الإذعان لها كان النفي مصيره ، ومن هذه المبادئ وجود الله ، وجزاء الخير وعقاب الشر في الدار الأخرى ، والتسامح مع كل من سلم بمبادئ الدين ، وإن كان قد رأى أن تفرض الدولة معتقدات لا مفر منها فكان هذا قضاء على مبدأ التسامح .

وقد هدته نزعاته السالفة الذكر إلى تصور دين طبيعي يقوم على أساس أن في طبيعة غرائزنا ما يدل على أن علة غائية تسيطر على مصيرنا ، وكانت موجودة قبل أن يدركها الفساد الاجتماعي ، وهذا الدين الطبيعي عند روسو يقوم على غير معتقدات وإن كان يستوحي الشعور المسيحي ، وقد كان هذا من غير شك رد فعل للمذهب المادي الذي بشر به رجال دائرة المعارف ، وخلاصة الدين الذي ارتآه روسو : الاعتقاد في وجود الله وفي روحانية الروح وخلودها ، وقد شاركه في هذا فولتير وإن كنا نجد بين نغمة كل منهما خلافا ملحوظا .

وقد لبث « روسو » حينا من الدهر وهو يهيم على وجهه في بقاع الأرض شريداً ، إذ نشر عام ١٧٦٢ كتاب « إميل » الذي ساهم به في نظريات التربية وضمّنه صفحات طيبة في الدين الطبيعي ، وإنكار الوحي واللاهوت إنكارا جازماً ، فأحرق الكتاب في باريس علنا ، وصدر أمر باعتقال مؤلفه فاغراه

بعض أصدقائه بالفرار من باريس ، فلما هَمّ بالعودة إلى جنيف — مسقط رأسه — كانت حكومتها قد سلكت مسلك باريس فى النظر إلى آرائه ، وقررت منعه من العودة إليها ، فلجأ إلى مقاطعة « بيرن » ولكنه أمر بمغادرتها فى الحال ، فلاذ بولاية « نيفشاتل » من أعمال بروسيا حيث يقيم الحاكم الوحيد المتسامح فى ذلك العصر « فردريك الأكبر » ، فبسط عليه جناح رحمته ، ولكنه لم يسلم من مضايقات رجال اللاهوت هناك ، فاتهموه بالإلحاد وكادوا ينجحون فى طرده لولا حماية فردريك له ، فانطلق إلى انجلترا وقضى فيها بضعة أشهر (عام ١٧٦٦) ثم حط به المطاف فى فرنسا مرة أخرى وعاش بها آمنا حتى قضى نحبه .

على أن آراءه الدينية ليست شيئا مذكورا فى مجال تفكيره الإلحادى الجرىء فى ميادين الاجتماع والسياسة ، وقد أحرق فى جنيف كتابه « العقد الاجتماعى » الذى ضمنه نظرياته فى هذا الصدد ، وهى على ضعفها قد أضرمت نارا فى غلاة المتعصبين .

إن المذهب الطبيعى — سواء أكان نصف مسيحى كما بدا عند روسو ، أم مجافياً للمسيحية كما بدا عن فولتير — كان بناء شيد على رمال ، وكان من الميسور على خصومه فى فرنسا وانجلترا وألمانيا أن يقوضوا أسسه ، وقد بدا فى فرنسا وكأنه « استراحة » فى منتصف الطريق الموصل إلى الإلحاد !

مقاومة الماديين ورجال الموسوعة للمسيحية :

وما أقبل عام ١٧٧٠ حتى فزع الفرنسيون لظهور كتاب البارون هولباخ Holbach « نظام الطبيعة » إذ عرض فى شطره الأول فلسفته المادية المحضة ، وعقب على هذا بدحض الأديان عامة والمسيحية بوجه خاص ، وحاول أن يجتث فيه الاعتقاد بوجود الله وخلود النفس ، معلناً أن العالم ليس إلا مادة تتحرك من تلقاء ذاتها ، منكراً كل نظرية تبشر بوجود وراء العالم الطبيعى وفوقه ، مؤكدا اتصال هذه الموجودات المحسوسة اتصالا

آلياً ميكانيكياً محضاً ، مقراً بأن العقل ليس شيئاً إلا الجسم « منظوراً إليه من ناحية بعض وظائفه » !!

وهذه المادية الموغلة فى الغلو — إلى حد إنكار الدين الطبيعى نفسه — قد بدت عند أحد أصدقاء « هولباخ » وهو « ديدرو » D. Diderot فى دائرة المعارف « الانسيكلوبيديا » التى كان يشرف على تحريرها ويقوم بإصدارها مستعيناً بكتاب بارزين يتقدمهم روسو وفولتير ؛ فلم تكن مجرد مرجع علمى ، بل وجدت فيها الأفكار التى تهدد بالتمرد على الكنيسة والثورة على رجالها مكاناً فسيحاً ، وكانت معرضا للحركات الهدامة التى اضطلع بهـــا أعداء الدين ، وكان الغرض من وضعها أن تصرف الناس عن المسيحية بما فيها من خطيئة آدم وحواء ، وتهيئهم إلى تصور العالم تصوراً جديداً تبدو فيه الحياة مريحة ناعمة ، ولا يعزى فيه الشر إلى نقص أصيل فى الطبيعة البشرية ، بل يرد إلى فساد النظم الاجتماعية ونقص أساليب التربية .

وقد كانت حملة ديدرو تنطوى على صرامة ، مع أن « لبريتون » كان يعرض لما يكتبه بالحذف والتعديل والتحوير والتعديل ، وهى سياسة تجارية تخضع الحقيقة للجو الذى تقال فيه . . ! وقد أثار هذا ضيق فولتير ، لأنه كل يميل إلى افتراس خصومه وتمزيق أجسادهم ، من غير أن يعنيه ما تفضى إليه حملاته بعد ذلك من نتائج قد يكون أولهـا : توقف الانسيكلوبيديا عن الظهور . وقد بلغ من صرامة فولتير فى هذا الصدد أن هاجم بعض زملائه فى تحرير الأنسيكلوبيديا واتهمهم بأنهم يجـاهدون لإبطال التعصب ، ليحلوا الرياء والنفاق مكانه ! وضاق « ديدرو » بحذر « لبريتون » حتى انهال عليه — حين كشف ما فعله بكتاباته من حذف وتحوير — سباً وطعناً ، لأنه أفسد بهذا جهود عشرين مفكراً ممتازاً ، وشوه عملا جليلا تضافرت على إنشائه المتاعب والأخطار وعصارة الأفكار النيرة ، قضى عليه هذا الأحمق بجبنه ونذالته ، ولو كانت زوجه مكانه لتورعت عن ارتكاب فعلته ! ولكن خصومه تمكنوا بعد صدور الجزء الثانى من حمل الحكومة على إيقافه عن مواصلة

العمل ، ثم عادت الحكومة فأذنت له فى إتمام مشروعه ، وخشى هذا مغبة نزاعه مع خصومه فالتزم جانب الحيطة فيما يكتب معنيا بالكشف عما يراه حقاً ، متجنبا إثارة النزاع من جديد ، وإن لم يخل حديثه من تهكم وسخرية فى بعض الأحايين ، على أن اللورد مورلى — يزعم فى ترجمة «ديدرو» أن هذه الأنسيكلوبيديا التى أثارت مكامن الضيق عند رجال الدين ومن إليهم من خصوم منشئيها لا تتضمن ما يستوجب إثارة الناس فى أيامه ، لأنها خلو من التعطيل والتهجم الصريح على عقائد الدين الرئيسية !! إلا أن منهج كتابها فى النقد لم يكن مألوفا لرجال السلطة فى أيامهم ، ومن أجل هذا أثارت ثائرتهم ، وفى الأنسيكلوبيديا بعد هذا إكبار من شأن العلوم والفنون ومطالبة بحرية الاعتقاد وحرية البحث الفلسفى . . وغير هذا مما كان يضيق به رجال السلطة فى ذلك العصر .

قلنا إن الغرض من وضع هذه الأنسيكلوبيديا تحويل الناس عن اعتناق المسيحية إلى فهم الحياة فهما جديداً ، وقد جاهد «ديدرو» و «روسو» — كل بطريقته — لصرف الناس عن العقائد الدينية إلى إصلاح المجتمع ، وإقناع العالم بأن سعادة الإنسان لا تتوقف على الوحى بل تقوم على التحول الاجتماعى ، ولقد كان لجهودهما فى هذا الصدد أثرها البين حتى فى المؤمنين الذين لم يتخلوا عن دينهم ، بل قد أثرت فى روح الكنيسة نفسها ، ومن وازن بين الكنيسة الكاثوليكية فى القرن الثامن عشر وبينها فى القرن الغابر ، أدرك الأثر البالغ الذى خلفته فى مجال الإصلاح تعاليم روسو وفولتير وديدرو وأقرانهم من المجاهدين ، وفى ذلك يقول اللورد مورلى : قد تمثلت الكنائس المسيحية — فى سرعة وبمقدار ما يسمح تكوينها — العلم الجديد والأفكار الخلقية السمحة والروحانية السامية التى بشر بها قوم هجروا جميع الكنائس ، واتهموا بأنهم أعداء البشرية[١] .

---

(١) انظر فيما سلف كتاب بيورى Hist of Freedom of Thought : واقرأ كتاب روبرتسون Robertson السالف ج ٢ فصل ١٧ .

تعقيب :

هذا ما كان من أمر النزاع فى فرنسا إبان القرن السابع عشر والثامن عشر ، وقد بدت الفلسفة والدين فى أولهما على وئام ، تديّن الفلاسفة أو تظاهروا بالتدين واحترام رجال اللاهوت على أقل تقدير ، وبدت الفلسفة فى ثانى القرنين سافرة الإلحاد لا يسترها حجاب ، تهاجم الدين فى صرامة وقد آمنت بالعقل أو كفرت بشريعته على السواء ! وقد جدت الكنيسة فى اضطهاد الفلاسفة إبان القرنين ولكن اضطهادها للمتدينين فى القرن الأول كان أعظم صرامة من اضطهادها للملحدين من هؤلاء المفكرين فى القرن الثانى ، ومرد هذا — فيما يلوح — إلى تضاؤل نفوذها الذى كان لها أولا ، ولو تهيأت لها بسطة من السلطان لأصلتهم نارها وجرعتهم عذابها صنوفا وألوانا .

* * *

سبينوزا بين التفلسف والتدين :

على النحو الذى أسلفناه عند الحديث عن ديكارت تطور التنافر الملحوظ من التزمت الصوفى الزاهد فى العصر الوسيط والثورة الجامحة والتمرد الصارخ على أوضاع الدين وتقاليده فى عصر النهضة ، فأصبح — هذا التنافر فى فرنسا إبان القرن السابع عشر — اتساقا وتوازنا بين الروحين المتنافرين ، إذ تم الجمع بين العقل والإيمان من غير تضحية بأحدهما فى سبيل الآخر .

وقد تسلل هذا الروح إلى هولندة ، وبدا عند فيلسوفها الأكبر « سبينوزا » Spinoza إذ كان يصدر عن عقل رياضى وإيمان صوفى ، ولكن نزعاته العقلية قد طوحت به إلى آفاق لا تتمشى مع عقائد الدين ولا ترضى رجاله .

جمع سبينوزا بين النزعة العقلية التى يستخفها التعليل ويستهويها التفسير والتحليل ، والنزعة الروحية الصوفية التى يستوعبها نور الإيمان ويستغرقها الشعور العميق بالله ، وكان مردها إلى نشأته الدينية الإسرائيلية وقد استغرق الله فلسفته ، فاعتبره والطبيعة شيئاً واحداً ، وعدّه الموجود الحق الأزلى

والجوهر اللانهائى الذى يقوم بنفسه ولا يحتاج إلى علة لوجوده ، من أعراضه اللانهائية التفكير وأحواله النفوس البشرية ، والامتداد العقلى وأحواله الأجسام المحسوسة ، فقضى على فكرة الخلق التى أقرتها الأديان جميعاً ، ورأى أن الظواهر الكونية كلها تصدر عن الله ، وعلى هذا استقر مذهب وحدة الوجود pantheism فى فلسفته . كما بدا فى كتاب الأخلاق ، الذى منع من نشره أثناء حياته ، ولم ينشر إلا عام ١٦٧٧ بعد مماته ، إذ اعتبرت وحدة الوجود مرادفة للإلحاد وقيل إن اسمها الصحيح هو الواحدية الإلحادية ، ثم عاد سبينوزا فى رسالته اللاهوتية السياسية إلى تصوير الله فى صورة تساير المألوف عنه فى الكتب المقدسة ، فصوره حاكما مطلقا يسن الشرائع التى ينبغى أن يخضع لها الناس وإن جهلوا سرها ، وبهذا تأدى إلى التوفيق بين الفلسفة والدين ، فوحد بين غرضهما فى تحقيق السعادة للفرد والمجتمع ، وانتهى بهما إلى يقين واحد ، يبدو فى الفلسفة عقلياً رياضياً ، وفى الدين نقلياً أخلاقياً ، وقد أثرت محاولته فى التوفيق بين الدين والفلسفة على ما سنعرف فى انجلترا ، وتجلت عند « جون لوك » فى كتابه «مقال عن العقل البشرى» إذ ظهر كتاب سبينوزا قبل كتاب لوك وترجم إلى الانجليزية فى نفس العام الذى نشر فيه المقال ، ولم يكن « لوك » ليجهله ، وإن كان قد صرح بأنه لم يطلع على مؤلفات سبينوزا إلا لماما ، وقرر إيثار العقل على الوحى عند التعارض .

كان سبينوزا يصدر فى مذهبه العقلى الرياضى عن إيمان دينى صوفى عميق ولكن منطق مذهبه فى وحدة الوجود قد أداه إلى إنكار أبسط ما تقرره قواعد الأديان ، فإنه وإن آمن بمسيح تاريخى ، قد أنكر العناية الإلهية وكفر بالبعث والأرواح والملائكة ورفض العلل الغائية واستبعد حرية الله واختياره ، ونبذ ظاهر الكتب المقدسة لأنه عجز عن أن يعرف منها شيئا كصفات الله أو نحوها ، فقاوم على ما يقول ولف A. Wolf مذهبين سادا فى العصر الوسيط ، هما مذهب الظاهر الذى يقضى بالوقوف عند حرفية النصوص المقدسة ، ومذهب القول بالمعجزات وخوارق العادات ، فلنقف عند رأيه فى هذين المذهبين وقفة قصيرة :

اعتز سبينوزا بالعقل وكفل له التحرر من كل سطلة ، وأخضع لحكمه ومنطقه كل شيء حتى الكتب المقدسة إذ اعتبرها شبيهة بالوثائق التاريخية ، فأوجب تأويلها في ضوء المنطق لأن لغتها مليئة بالاستعارات والمجازات ، موجهة إلى إثارة الخيال عند الناس باستخدام الصور الجذابة ، ولم يكن من الحكمة أن تعدل عن هذا الأسلوب إلى مخاطبة العقل ومحاولة إقناعه ، لأن هذا يفضى إلى إضعاف تأثيرها عند المؤمنين ، ولو أن النصوص المقدسة قد تجردت من سحرها البيانى وفتنة صورها الخيالية الرمزية لتبدت بعد التأويل العقلى مسايرة لمنطق العقل وبرئت من وجوه التناقض .

ولم يكن هذا النزوع إلى التأويل جديداً ، لأن النزعة العقلية التى أثارها ديكارت قد فشت فى العالم الأوربى كله ، وتجلت فى النصف الثانى من القرن السابع عشر فى هولندة ، وكان من مظاهرها انصراف بعض المفكرين عن الوقوف عند حرفية النصوص المقدسة ، وميلهم إلى تأويلها فى ضوء العقل ، ففى سنة ١٦٦٦ نشر « ماير Louis Meyer» ، وهو طبيب من أمستردام ، كتاباً (Philosophia sacrae scripturae interpres) ذكر فيه أن الكتاب المقدس كلمة الله ، وأوجب تأويلها فى ضوء العقل البشرى ، ونحّى كل المعانى التى لا تتمشى مع منطقه وردها إلى الاستعارات والمجازات والكنايات ، وكان « ماير » هذا صديقاً لاسبينوزا ، حضر وفاته وساعد على نشر كتبه بعد مماته ، وقد ظهر كتابه السالف الذكر قبل كتاب سبينوزا Tractatus بأربع سنوات ، ومن هنا رجح الظن بأنه أثر فى سبينوزا وإن كان سبينوزا قد طمس بشهرته اسمه .

وقد أبان سبينوزا فى كتاب له أن موسى لا يمكن أن يكون مؤلف أسفار موسى الخمسة فى صورتها التى تبدو عليها ، ورآها على غير ما ينبغى أن تكون بصدد الطبيعيات بل اللاهوت كذلك .

وقد آمن سبينوزا بشريعة العقل على ما ذكرنا ، واعتبر مهمته الكشف عن الروابط المنظمة بين الأشياء ، فأداه هذا إلى إنكار الخوارق والمعجزات ،

لأن هذه تقوم على تمزيق العلاقات المنظمة بين الأحداث الطبيعية ، بل إن مذهبه فى التوحيد بين الله والكون لا يستقيم مع قيام هذه الخوارق ، لأنها ليست إلا تناقضا بين سير الطبيعة وعمل الله ، ولهذا خطأ الدهماء فى ظنهم الواهم بأن الخوارق تؤيد عظمة الله وجلاله .

عداء السلطات الدينية له :

لم يكن من المعقول بعد هذا كله أن تغفل عنه عين الكنيسة ، وأن يطمئن إليه الرأى الدينى العام ، وإن رفعه المعجبون به إلى مرتبة التقديس ، كما يسمه بذلك « شلير ماخر » ، وقال عنه Novalis إنه « رجل أسكره حبه لله » ، ويقول « وايت » A. D. White إن خصومه لا يجدون فى حياته أو فلسفته دليلا يبرر القول بأنه عمد إلى التخلص من اليهودية ، ولكنه اتهم بالهرطقة عند اليهود والمسيحيين على السواء ، وهو لفظ أسيء استعماله فى القرن السابع عشر والثامن عشر فيما يقول بيورى ، فكان يطلق على أحرار الفكر ويوجَّه إلى أتباع المذهب الطبيعى الإلهى ، الذين تأثروا برأيه فى تأويل النصوص المقدسة فى ضوء العقل .

ضاق الأكليروس اليهودى باسبينوزا منذ صغره ، فقدمه للمحاكمة ولما يناهز الرابعة والعشرين من عمره ، وصدر حكم بتكفيره وحرمانه بعد أن عز عليهم إسكانه بالرشوة ، وأرسلت السلطات اليهودية هذا الحكم إلى السلطات المدنية — للتخلص من تبعة العقاب — فطارده الرأى الدينى العام ، حتى عاش وحيداً طريداً يثقله الضنك وتجرحه الفاقة وتطارده الكآبة ، بل لقد همَّ أحد المتحمسين من المتدينين باغتياله فطعنه بمدية أصابت عنقه ، ولكن الفيلسوف أفلت بحياته ، وأخذ يتنقل من بلد إلى بلد حتى بلغ « لاهاى » ، ولبث بها حتى مات فى الرابعة والأربعين من عمره ، واضطر أثناء ذلك أن يغير اسمه فراراً من تهمة الإلحاد ، والاشتغال بصناعة عدسات النظارات حتى يتيسر له أن يعيش ! وأدان كتابه Tractatus بعد طبعته الأولى عام ١٦٧٠ مجمع دينى فى هولندة ، مع « التنين » الذى وضعه « هوبز » وعرض فيه لنقد النصوص المقدسة ، وما فوق الطبيعة فى كل لغة عرفت .

كان أحرار الفكر فى هولنده أسعد حظاً من زملائهم فى أى بلد أوربى آخر ، وقد يسرت الحرية المبسوطة فيها نشر الكثير من الكتب التى عز طبعها فى غيرها من البلاد ، ومع هذا فقد كان من العسير فى بعض الحالات أن يكشف المؤلف أو الناشر الحر عن اسمه ويظهر سافراً أمام القراء .

٭ ٭ ٭

وقد كانت السلطات الدينية لا تغفل عن المتهمين بالإلحاد ، فقد فر اليهودى كوستا Gabriel de costa (أو Vriel Acosta + ١٦٤٠) من البرتغال إلى امستردام وأنكر خلود النفس والطقوس اليهودية لأن الانجيل لا يؤيدها ، فأصدرت ضده السلطات اليهودية قرار الحرمان حتى أنكر مذهبه جهاراً ، ولكنه اتهم بالهرطقة مرة أخرى وصدر ضده قرار بالحرمان ، واضطرته السلطات الدينية إلى إعلان الإقلاع عن رأيه مرة ثانية بشروط مذلة مهينة ، فانتحر خلاصا من هذا الجو الخانق ..اوحدث مثل هذا ليهودى من مفكرى أمستردام هو Daniel de prade + ١٦٦٣ لأنه عارض القول بالقوى الخارقة فوق الطبيعية والاعتقاد فى التقاليد ، وفشت نظرته بين الشبان فحاولت بعض المجامع الدينية عام ١٦٥٦ أن ترده عن غيه ، وأن تغريه بالرشوة لكى يهاجر ، ولكن محاولاتها ذهبت عبثاً فأصدرت ضده قرار الحرمان عام ١٦٥٧ ، ومثل هذا الاتهام هو الذى وجه إلى سبينوزا على نحو ما عرفنا من قبل .

وقد أعيد طبع رسالة سبينوزا اللاهوتية السياسية عام ١٦٧٤ وهى تحمل اسم ناشر وهمى وتغفل الإشارة إلى مكان الطبع ، وعند ظهور هذا الكتاب سارعت السلطات إلى مصادرته ، فلما عرف الناشرون كلف القراء به وإقبالهم على الاطلاع عليه ، أعادوا نشره تحت عناوين مضللة ، ولما أتم سبينوزا أعظم آثاره الفلسفية « الأخلاق » لم يجرؤ على نشره ، فأوصى به أحد أصدقائه ليتولى إذاعته بعد مماته .

على أن سخط المعسكرات الدينية على الفيلسوف لم يقف عند مماته ، واستمرت آثاره مثار الضيق إلى عهد قريب ، فقد اقترح — حول عام ١٨٨٠ م

— أن يقام له تمثال فى أمستردام ، فضاق الأكليروس بهذا الاقتراح ونهض لمقاومته ، وحملت الكنائس والمجامع اليهودية على المشروع وكثرت فيها الخطب التى تنبأ أصحابها بأن يحيق بالمدينة غضب الله وسخطه إن تم هذا العمل الآثم ، فلما استقام التمثال وكل إلى رجال الشرطة حمايته ووقاية العلماء البارزين الذين أزاحوا عنه الستار . . . !(١)

جاليليو ونظرية دوران الأرض :

كانت إيطاليا مقراً للكنيسة الكاثوليكية الرومانية التى كانت لا تزال تهيمن على العالم الأوربى بما توافر لها من سلطان ؛ ومن هنا كان اللاهوت المتعسف فيها أقوى نفوذاً وأعز جنداً ؛ وبدا أهل الفكر الجديد أمامه أقل جرأة وأعظم تخاذلا ، وكان منهج أصحاب هذا اللاهوت يقضى باعتبار النصوص المقدسة مصدر الحقائق جميعاً ، وتفسيرها حقاً مقصوراً على الكنيسة ورجالها ، واتجه العلم الجديد إلى الاعتماد على التجربة فى استقاء الحقائق ؛ والتسليم بما ينتهى إليه هذا النهج الجديد من آراء ولو بدت على خلاف المألوف من حقائق اللاهوت ، ومن هنا كان النزاع . . .

وقد كان جاليليو أحد السباقين إلى هذا المنهج العلمى الجديد ، وقد أفضى به إلى تأييد الرأى الذى انتهى إليه كوبرنيكوس على النحو الذى أبنا عنه فى الفصل السالف ، واهتدى إلى غيره من آراء لا تجرى على النسق الذى ترتضيه الكنيسة ، فقد اعتمدت القول — المنسوب إلى بطليموس — من أن الأرض ثابتة وأنها مركز السكون ، وأن الشمس وسائر الكواكب تدور حولها ، وأيدت هذا الاتجاه بنصوص من الكتاب المقدس ، ولكن جاليليو

(١) أهم المصادر :

F. bollack, Spinoza; his life and philosobhy
J' Martineau, A Study of Spinoza
J. Caird; Spinoza
A. Wolf, Spinoza ; his life and treatment on God and man
» » art. Spinoza (Encycl. Britanica)
J. M. Robertson, A Short Hist. of Free-Thought (vol. 2. Ch. XV)

قد عكس الآية وصرح بأن الشمس — لا الأرض — مركز الكون ، وأنها تدور حول محـــورها وليس حول الأرض ، وأن الأرض تدور دورة مزدوجة ؛ حول نفسها — كل أربع وعشرين ساعة — وحول محورها فى الوقت نفسه — كل عام مرة — فأثار ضيق الكنيسة وتضافر خصومه على إخفات صوته والتنكيل به إن أقام على ضلاله . . !

اخترع جاليليو المرقب (التلسكوب) الذى يدنى البعيد فتراه وكأنه على كثب منك ، وبه كشف أقمار المشترى عام ١٦١٠ — فرفض خصومه النظر إليه بحجة أن استخدامه يوقع فى الكفر ، وأن ما يبدو خلاله ليس إلا أوهاماً يوسوس بها الشيطان الخناس ، فمضى جاليليو فى تجاربه حتى أيد رأى « برونو » Bruno فى أن القمر كعالم الأرض من حيث انطواؤه على جبال ووديان وردّ نوره إلى انعكاس الشمس على أديمه ، فقال خصومه : إن سفر التكوين لا يؤيد هذا الزعم ، وأن وجه القمر أجمل من أن يحتمل حفر الوهاد وإقامة الجبال ! إن هذا اضلال مبين ! فلما كشف عن كلف الشمس واستند إلى تنقل هذه البقع على سطحها ، وقرر دورانها حول محورها — وليس حول الأرض كما يزعم أهل الكهنوت — تميزت الكنيسة غيظاً وأوحت إلى الجامعات التى كانت معقلا للرجعية ومباءة للعلم السلبى أن تهمل تلقين هذه الضلالات لطلابها ، وقال له أحد خصومه : لقد اطلعت على كتب أرسطو — وكان لا يزال رب العلم فى مدارس العالم المسيحى والمعتمد من الكنيسة — فلم أجد فيها مايؤيد مزاعمك ، فلاشك أن هذه النقط موجودة على عينيك أنت لا على وجه الشمس . . . !

محنة جاليليو ومراحل اضطهاده :

وكان جاليليو قد عمـد إلى تأييد مباحثه الطبيعية بالنصوص المقدسة ، فأخذ يعمل على تأويلها ويتخطى حرفية ألفاظها ، مستشفا ما وراء ظاهرها من معان تساير منطقه وتتمشى مع اتجاهه ، فتميزت الكنيسة غيظاً ووطنت

العزم على أن توقف هذا الشر الزاحف ، وتلقى جاليليو إنذاراً نصف رسمى يحذره من إقحام الكتب المقدسة فى مباحث الطبيعة ، ولكنه أغفل أمره وواصل أبحاثه ، ولم يعبأ بإصرار خصومه على أن المزامير تشبه شروق الشمس بخروج « العروس من خدرها » وقول الإصحاح الأول من سفر الجامعة « الأرض قائمة إلى الأبد ، والشمس تشرق والشمس تغرب ، وتسرع إلى موضعها حيث تشرق » ، وأن الأرض من أجل هذا كانت مركز الكون الذى قام عليها العشاء الربانى ، وسخرت من أجله كل الظواهر الكونية .

فاتفق البابا بولس الخامس مع رئيس أساقفة بيزا وبللارمن Bellarmin — وقد كان لاهوتياً ملحوظ المكانة فى تاريخ عصره — على الانتقام من هذا الملحد الضال ، فإن آراءه تقوض فكرة الخلاص فى المسيحية وتثير الشك فى تجسد الأقنوم الثانى (المسيح عليه السلام) وتنكر نص الكتاب المقدس على أن الشمس قد وقفت ليوشع ، بالإضافة إلى أن مزاعمه فى عمران السيارات الأخرى تستتبع القول بأن سكانها لا ينحدرون عن آدم ولا يرجعون إلى سفينة نوح . . !

وحاول رئيس أساقفة بيزا أن يستخدم الحيل الخبيثة فى الاستيلاء على خطابين قد كتبهما جاليليو ليؤيد فيهما مباحثه الطبيعية بنصوص من الكتاب المقدس أولها التأويل الذى يرتضيه ولا تحتمله الكنيسة ، فلما أخفق فى محاولاته المستورة أبدى خصومته سافرة ، وسرعان ما استدعى جاليليو عام ١٦١٥ للدفاع عن نفسه أمام محكمة التفتيش ، وتولى رجالها النظر فى اتهامين انطوت عليهما كتاباته ، وكان قرارهم بعد شهر قضوه فى بحثهما ما يلى :

إن القول بأن الشمس مركز الكون وأنها لاتدور حول الأرض ، قضية طائشة خرقاء ، ومتناقضة وباطلة فى عرف اللاهوت ، وتنطوى على إلحاد بيّن لأنها تناقض نصوص الكتاب المقدس تناقضا صريحاً ، كما أن القول بأن الأرض ليست مركز الكون ، وأنها تدور حول الشمس ، رأىٌ متهافت لا تقره الفلسفة ولا يتمشى — من وجهة نظر اللاهوت — مع الإيمان

الصحيح — وعندئذ استدعى البابا بولس الخامس المتهم وطالبه على لسان « بللارمن » بالتخلى عن رأيه ، وأمره : « باسم قداسة البابا ، وباسم مجامع الديوان المقدس ، أن يتخلى عن الرأى القائل بأن الشمس مركز الكون وأنها لا تدور — حول الأرض — وأن الأرض تدور ، وأن يتعهد بألا يعلّم هذا الرأى لأحد من الناس ، أو يدافع عنه كتابة أو مشافهة » . ! وأذعن جاليليو لهذا كارها[1] .

كان هذا عام ١٦١٦م ، وبعد أسبوعين أصدر مجمع الفهرست بياناً أعلن فيه بطلان المذهب القائل بحركة الأرض حركة مزدوجة — حول محورها وحول الشمس — ومناقضتها للكتاب المقدس « وحرم نشره أو تأييده » . وصرح بإدانة كل ما كتب كوبرنيكوس وغيره ممن يؤيدون دوران الأرض من أمثال جاليليو وكبلر ، واعتمد البابا - المعصوم من الخطأ — هذا البيان .

ولبث جاليليو مقيما فى روما يلقى من الرأى العام عنتاً شديداً ، ثم غادرها إلى فلورنسا ولزم وعده ، حتى اعتلى عرش البابوية إربان الثامن فخدعته صلته الطيبة به ، وأضله ما أشيع عنه من انتصار لحرية الرأى ، فعاد جاليليو المخدوع إلى إعلان آرائه والترويج لها بين الناس ، فأثار بهذا خصومه وفقد مرتبه كأستاذ فى جامعة بيزا ، وأعلن الأب Melchior Inchofer أن ثبات الأرض أمر مقدس ثلاثاً thrice saered ، وأن التدليل على فناء النفس وإنكار الله وعدم تجسده يمكن أن يلقى تسامحاً قبل أن يظفر بهذا التسامح التدليل على أن الأرض تدور . . . !

ولكن جاليليو لم يزعجه الوعيد فوضع محاورة ضمنها نظرية بطلميوس القديمة ونظرية كوبرنيكوس الجديدة تأييداً ودحضاً ، فلم يأذن رجال الكهنوت بنشرها إلا بعد ثمانية أعوام ١٦٣٢ — بعد مقدمة وضعها رئيس

---

(١) أنكر Gebler و Wohlwill تعهد جاليليو بعدم تلقين النظرية لأحد من الناس ، وقيل إن هذا التعهد دسه رجال الكنيسة ليبرروا محاكمة جاليليو لثانى مرة عام ١٦٣٢ ، ١٦٣٣ ، ولكن وايت لا يرى هذا الرأى مستنداً إلى وثائقه (انظر ص ١٣٧ جـ ١ هامش فى كتابه السالف) .

القصر المقدس وأعلن فيها أن الرأى الجديد عبث وخيال ، وليس متنافياً مع نظرية بطلميوس الذى أثبتت محكمة التفتيش صحتها عام ١٦١٦ م ، ووضع جاليليو إمضاءه فى ذيل هذه المقدمة . . . !

ولكن البابا قد اقتنع بأن أدلته التى حاول أن يرد بها جاليلو عن رأيه ، قد جرت على لسان أحد الأفراد فى هذه المحاورة فأثار هذا حنقه ، وسرعان ما صودر الكتاب ، ولكن بعد انتشاره فى أوربا كلها ، فاستدعى جاليليو إلى محكمة التفتيش مرة أخرى وزج به إلى السجن ، وعانى الضيق حتى أكره على أن يجهر بارتداده عن رأيه وهو راكع على قدميه قائلا :

« أنا جاليليو وقد بلغت السبعين من عمرى ، سجين راكع أمام فخامتك ، والكتاب المقدس أمامى ألمسه بيدى ، أرفض وألعن وأحتقر القول الخاطئ الإلحادى بدوران الأرض » . . . ! وتعهد مع هذا بتبليغ محكمة التفتيش عن كل ملحد يوسوس له الشيطان بتأييد هذا الزعم المضلل[1] . . . !

وأقام جاليليو بعد هذا فى منفاه مريض النفس والجسم معاً ، ولبث فى سجنه حتى كف بصره فقيل : مات كفيفاً ذلك الذى مدّ أبصار الناس إلى عجائب السموات ! . وترامت إليه أنباء الاضطهادات التى نزلت بأصدقائه وأتباع مذهبه ، وكان بينهم رجال دين . فأقصى — بأمر من البابا إربان الثامن — رئيس البلاط المقدس الذى وضع مقدمة المحاورة ، ووُجه اللوم إلى من أذن بطبعه من أعضاء محكمة التفتيش ، وسارت الجامعات فى ركاب هذا التيار الجارف .

وفى شهر يونيه من عام ١٦٣٣ أمر المجمع المقدس — بعد استئذان البابا — بإرسال الحكم السالف مع إقلاع جاليليو عن رأيه إلى المعسكرات الدينية فى أنحاء العالم الأوربى ، وطلب إليها إعلانه على القساوسة وإذاعته فى أساتذة الفلسفة والرياضيات جميعاً ، وحرم على أعضاء محكمة التفتيش أن يأذنوا بطبع بحث لجاليليو أو لمن جرى على نهجه ، وتوج الفهرست هذه الجهود

(١) قيل إن جاليليو حين نهض واقفا ركل الأرض بقدمة قائلا : ومع ذلك فهى تدور . . ! !

بتحريم كل كتاب يؤيد دوران الأرض ! وخفت بهذا كله صوت النظرية الجديدة وعلا صوت خصومها بالطعن والسباب حيناً وبالتدليل المتهافت حيناً آخر ، فمن ذلك أنهم أثاروا ما عرف عن جاليليو من شذوذ خلق أيام صباه .. ! وحاولوا أن يدحضوا بالمنطق رأيه ، فقالوا لو صح زعمه فى دوران الأرض ما استقام عليها بناء ! ولاحتاج الناس لكى يثبتوا على أديمها إلى مخالب أقوى من مخالب القطط ! ولتحتم إذا أطلقت سهماً رأسياً فى الهواء أن يهبط بعيداً عن المكان الذى انطلق منه ! ثم إن لجميع الأحياء المتحركة أطرافا تمكنها من التحرك وليس للأرض مثلها ، فكيف يتيسر لها أن تتحرك ما لم تفترض وجود شيطان خبيث يتولى تحريكها .. ! إلى آخر هذه المزاعم التى أضافوها إلى ظاهر النصوص المقدسة التى تسند دعاويهم ، يؤيدها جميعاً سيل من الطعن والسباب .

فلما قضى جاليليو نحبه رفضت الكنيسة التصريح بدفن جثته فى مقابر أسرته ، ومانعت فى إقامة شاهد تذكارى على قبره ، وصرح البابا إربان الثامن بأن السماح بتكريم رجل أدانته محكمة التفتيش أسوأ مثل يعطى للناس ، ولم ينتصب الشاهد على قبره إلا بعد أربعين عاماً ، ولم تنقل رفاته إلى مقابر أسرته إلا بعـــد مائة عام ، ثم أقيم عليها نصب أجازت نصه مراقبة المطبوعات فى محكمة التفتيش !

وقد أشرنا فى الفصل الذى عقدناه عن «حرية النظر العقلى والقوى المعادية لها» ، إلى تضافر الشيع البروتستانتية — من لوثريه وكالفنية وإنجيلية فى هذا النزاع ، وإذا كانت حملاتها لم تتجاوز السباب والتشهير إلى الانتقام المادى فإن مردّ هذا إلى افتقارها إلى السلطة والنفوذ الدنيوى .

اضطهاد أتباعه بعد مماته :

وكان طبيعياً بعد هذا كله أن يلقى أتباع هذا الرأى الجديد عنتاً شديداً ، وقد كتب كامبانيلا Campanella دفاعاً عن جاليليو Apology for Galileo فكان هذا من أسباب تعذيبه واضطهاده ، وأتم كبلر مباحث كوبرنيكوس وأكملها ،

لحذره المجمع الاكليروسي البرتستانتي في سنتجارت Protestant Consistory of Santgart من بث الاضطراب في كيان العالم المسيحي ، وطولب بالتوفيق بين مزاعمه والكتاب المقدس ، وأضاف الفهرست عام ١٦٦٤ إلى كتب جاليليو كل الكتابات التي تعلم دوران الأرض وثبات الشمس ! .

واستمر الجدل قائماً في العالم الأوربي بشأن نظرية جاليليو حتى تولى البابا بندكت الرابع عشر ١٦٥٧م بحث هذا الموضوع بنفسه ، وقرر مجمع الفهرست بعده أن الكنيسة تبيح نشر تعاليم كوبرنيكوس والإذن بدراستها ، ومع هذا لم يوفق الفلكي لالاند بعد هذا بثمانية أعوام في حمل الكنيسة على رفع كتب جاليليو من الفهرست ، وفي سنة ١٨٢٠ رفضت مراقبة المطبوعات أن تأذن بطبع بحث للأستاذ Settela أستاذ الفلك بجامعة روما لأنه سلم بصحة المذهب الجديد في كتابه وطلبت إليه أن يعالجه باعتباره فرضا خياليا لا مذهبا علميا ؛ فلما لجأ إلى البابا بيوس السابع Pius VII أحال الأمر إلى مجمع الديوان المقدس Holy Office Congregation فقرر المجمع السماح له بتدريس النظرية الجديدة ، وأيد البابا هذا القرار : وسرت العدوى إلى كردينالات محكمة التفتيش فقرروا في سبتمبر عام ١٨٢٣ — في روما — السماح بنشر الكتب التي تؤيد دوران الأرض وثبات الشمس ، واعتمد بيوس السابع هذا القرار؛ فلما أعيد طبع الفهرست عام ١٨٣٥ رفعت منه أسماء الكتب التي تعرض لتأييد هذا الرأي(١) .

(١) لا يسلم بعض المؤرخين بهذا التاريخ ويرون أن محاورة جاليليو قد طبعت عام ١٧١٤ في بادوا ، ويرى دعاة هذا الرأي أن القرار الاكليركي قد ألغاه بيوس السابع عام ١٨٤٨ م ويسلم ويويل Whewell بذلك ولكن Cantu وهو من أنصار الكنيسة يقرر أن كتاب كوبرنكوس بقي في الفهرست إلى عام ١٨٣١ (أنظر كتابه Histoire universelle vol ص ٤٨٣ ويسلم بهذا Th. Martin وغيره ويؤيدهم وايت في كتابه السالف الذكر (هامش ١٥٧ ج ١) .

تقهقر السلطات الدينية بعد انتصار النظرية الجديدة :

على أن المعسكرات الدينية التي خاصمت النظرية الجديدة قد هال أتباعها سُخفُ موقفها بعد أن وضح الرأى الجديد ، فحاول رجال الكهنوت أن يلتمسوا الأعذار للكنيسة ومن جرى فى ركابها من أتباعها تبريراً لموقفها الشائن ، فالتمسوا الكثير من التعللات : منها قولهم أن اتهام جاليليو واضطهاده مرده إلى إقحامه الكتاب المقدس فى تأييد آرائه ، أو تهجمه على البابا وعدم التزام الأدب معه وإظهار الولاء له ، أو أن البابوات لم يحرموا رأيه إلا بصفتهم الشخصية ، أو أن مسألة النزاع كله مردها إلى ضيق الأرسطاطاليسيين فى ذلك العصر برجال العلم التجريبى الحديث ، ولكن الوثائق التى طبعت أخيراً — بعد محاولة إخفائها — تكشف عن بطلان هذه المزاعم ، ونلاحظ أن الموقر روبرتس Rev. Mr. Roberts — وهو من أتباع المذهب الكاثوليكى المخلصين — قد قرر فى كتابه The pontifical Decre against the earth's Movement أن البابا بولس الخامس قد تولى رآسة المحكمة التى أعلنت تحريم القول بدوران الأرض عام ١٦١٦ ، وأن البابا إربان الثامن قد استفرغ جهده فى تهيئة الجو لاتهام جاليليو أمام محكمة التفتيش فى عام ١٦٣٣ ، وأن البابا اسكندر السابع قد استغل الاعتقاد فى عصمته لتحريم الكتابات التى تؤيد دوران الأرض فى أمر تضمنه الفهرست .

على أن بعض رجال الكهنوت قد قاموا بالمحاولة التى يعالجونها كلما تداعى موقفهم فى نزاعهم مع أهل الفكر الجديد ، فأخذوا على عاتقهم أن يوفقوا بين الرأى الجديد والنصوص المقدسة ، وبذلك يستغلون ما يتكشف عنه النظر العقلى الحر فى تأييد العقيدة الدينية والتمكين لتعاليمها ، وتجلت آثار هذه المحاولات فى القرن الماضى[1] وسنرى بعض مظاهرها فى فصل قادم .

---

(١) أهم المصادر :

A. D. white فى كتابه السالف الذكر ، وقد تناول هذا الموضوع فى ستة فصول قيمة فى الجزء الأول منها أربعة عن جاليليو وموقف الكنيسة منه : ومن المفيد أن تقرأ : كتابنا أسس الفلسفة و :

=

وبعد ، فهذه هى أظهر معالم النزاع بين رجال اللاهوت ورواد الفكر الحديث فى العالم الكاثوليكى إبان ذلك العصر ، وهى آثار تخلفت عن العقل حين تحتويه الجهالة والإيمان المتعسف حين يستعين بهوى صاحبه فيحيل سماحة قلبه تزمتاً بغيضاً وتعصباً عقوتاً ، ويرد حبه للناس إحناً تحك فى صدره وأحقاداً تضطرم فى باطن نفسه ، وظماً لا يرويه الا إهراق الدماء وإزهاق النفوس . . . ومن عجب أن ترتكب هذه الآثام الدامية باسم دين أخص ميزاته الدعوة إلى الحب والسلام والصفاء . . . !

= Th. Martin, Vie de Galilèe
Gebler, Galileo Galilèe (النسخة الإنجليزية)
Bertrand, Fondateurs de L'astronomie modern e
Flammarion. Vie de Copernic ch IX.
Libri, Histoire des sciences mathémathiques en Italie
Charles Singer, Religion and Science (considered in their historical relations)
Draper, J.W, The Hist. of the Conflict between Religion & Science

الفصل السابع

مظاهر النزاع فى انجلترا البروتستانتية

فى القرن السابع عشر والثامن عشر

مظاهر النزاع فى هذا العصر — مقاومة بيكون للسلطة — العقل والوحى عند جون لوك — حرية الاعتقاد بين هوبز وجون لوك — اضطهاد نيوتن — المذهب الطبيعى الإلهى ومقاومته للدين التقليدى — مواضع الخلاف بين الطبيعيين ورجال اللاهوت — مناقشة المعجزات والخوارق — نقد الوحى المسيحى عند تندال — الخطر فى قيام المسيحية على العقل عند ددويل — هجوم شافتسبرى على الكتاب المقدس — تداعى الدفاع بالعقل عن المسيحية — موقف دافيد هيوم من وجود الله وخوارق العادات — حملة جيبون على المسيحية — دفاع « باليه » عن المسيحية — مقاومة حملات « بين » على المسيحية — كلمة أخيرة .

مظاهر النزاع فى هذا العصر :

استجاب رواد الفكر الحديث فى عصر النهضة لنداء العقل ، وقضوا ثلاثة قرون وهم يحطمون فى بطء واطراد ماورد فى المسيحية من أساطير ، وما تردد بصدد الوحى الإلهى من مزاعم ، ولما أقبل العصر الحديث استحالت هذه النزعة إلى مذهب عقلى تكفل أصحابه بالدفاع عن المنطق واستخدامه فى تفسير كل ما يعرض لهم من ظواهر ولو كان فى صميم العقيدة الدينية ، ومن اطراد التقدم فى النظر والقول بكفاية العقل فى بحث كافة الظواهر بمرحلتين ، نشأ فى أولاهما المذهب العقلى ولبث قرنين من الزمان وهو يجاهد خصومه ويمكّن لنفسه على حسابهم ، فيعرض عن اللاهوت المسيحى ويأبى الإذعان للكتاب المقدس مصدراً للحقائق ، يشد أزره فى جهاده مارآه أهله فى الكتاب من بطلان وتناقض ومجافاة للمنطق ، وما تكشف عنه هذه المرحلة من حقائق علمية أثارت الشك فى قيمة الوحى ، وإن كان المعروف عن مفكرى هذه المرحلة أنهم لم يستعينوا بالأدلة القائمة على العلم إلا قليلا .

فأما الدور الثانى لتقدم المذهب العقلى فقد شغل القرن الغابر ، وفيه كانت المكتشفات العلمية ويلا على هذا البناء الذى شادته السذاجة وأقامه الجهل ، وتكفل النقد التاريخى بتقويض السلطة التى تهيأت للكتب المقدسة ، فكان جحيما على هذه الكتب وشراً مستطيراً على القائمين بأمرها .

كانت النزعة القائمة عند قادة الفكر الأوربى فى مطلع العصر الحديث ، ترمى إلى التسامى بالعقل وتمجيده على حساب السلطة الدينية ، وقد امتدت هذه النزعة إلى القرن الثامن عشر ، واتصل أثرها برجال اللاهوت الذين كانوا يخاصمون العقل خصاماً شديداً ، فاعتصموا بمنطقه وحاربوا بسلاحه خصومهم ، وبدا هذا أوضح ما يكون فى انجلترا إبان القرن الثامن عشر ، إذ لم يجرؤ أحد هؤلاء اللاهوتيين على أن يدعى أن العقيدة الدينية فوق متناول البحث العقلى . ! اعتصم رجال الدين بمنطق العقل وحاربوا به خصومهم من أهل العقل ، فانزلق الكثيرون منهم إلى مهاوى الإلحاد ... !

وقد كان أكبر ما يميز القرن السابع عشر ، من حيث النزاع بين العقل والسلطة أن القائلين بكفاية العقل — مع استثناء مفكرى فرنسا فى القرن الثامن عشر — كانوا فى حملاتهم على اللاهوت يتظاهرون [1] فى العادة بالاعتقاد فى صدق الأفكار التى يتحرّون مهاجمتها ، ويزعمون أن تأملاتهم النظرية لا تسىء إلى العقيدة الدينية ، وأن فى استطاعتهم أن يفصلوا بين ميدان العقل ومجال الإيمان وأن يبرهنوا على أن الوحى زيادة طارئة لا قيمة لها من غير أن يعرضوه للأذى ..! لقد كانوا يتغنون بالثناء على الدين فى نفس الوقت الذى يضعون فيه آراء لا تجرى على وفاق مع تعاليمه ، وقد زجوا إلى ميدان اللاهوت بالكثير من المغالطات بعد أن ألبسوها ثوب الحقائق .

والمعروف عن الانجليز أن طابعهم الغالب عليهم واقعى محض ، وهذا

---

(١) هذا المميز يذكره بيورى على هذا النحو ، ويلوح لنا أن تعبيره بالتظاهر أخص مما ينبغى ، وكان بين فلاسفة فرنسا — كديكارت ومالبرانش بوجه خاص — من لم يتظاهر بالإيمان وربما كان النص أصدق حين يكون للدلالة على جمهرة فلاسفة انجلترا ومفكريها فى هذين القرنين .

الطابع يتمثل فى شتى مظاهر تفكيرهم ، ما كان منها دينياً أو فلسفياً أو سياسياً أو أخلاقياً ، وسنرى فى العصر الذى نؤرخه أن دعاة الدين الطبيعى قد أنكروا السمعيات والمعجزات وخوارق العادات ، وهاجموا القسس وأدلتهم النقلية فى غير رفق ولا هوادة ، ولجأوا فى إثباتهم وجود الله إلى الآيات الكونية والمشاهد الإنسانية .

مقاومة فرنسيس بيكون للسلطة :

وبدت هذه النزعة الواقعية فى أول أمرها عند فرنسيس بيكون +١٦٢٦ الذى حارب السلطة فى مختلف صورها مصدراً للحقيقة ، واعتبر التجربة مصدرها الصادق ومعينها الذى لا يغيض ، وأبعد سلطان « النقل » عن مجال البحث العلمى ، ولم يمنعه من هذا تدينه وإيمانه بوجود الله ، ذلك الذى جعله يذود عن اتحاد التفلسف والتدين فى قوله : إن القليل من الفلسفة يميل بصاحبه إلى الإلحاد ولكن التعمق فى دراستها ينتهى بالعقل إلى الإيمان . وفى كلمته عن الإلحاد يقرر وجود عقل فى الكون ، ويلح فى إقرار وجود الله لأن إنكاره إهدار لكرامة الإنسان ، لأن الإنسان يقرب من الحيوان بجسمه فإذا لم يقترب من الله بروحه كان مخلوقاً خسيساً دنيئاً ، بل إن إنكار الله يقضى على مروءة الإنسان وسمو طبعه وشرف نفسه . . . إلخ .

كان البحث فى العصر الوسيط إجمالا لا يرمى إلى اكتشاف جديد وارتياد مجهول ، لأن الحقيقة معروفة نزل بها الوحى الإلهى ، والسابقون من أهل الفكر الدينى الذين اعتمدتهم الكنيسة لم يبقوا مجالا لمجدد ! فحسب الباحث أن يستخدم عقله فى بحث الحقائق المنزلة كما اعتمدتها الكنيسة ورجالها ، فإن تكشف البحث عن جديد وجب رده إلى النصوص المقدسة وإدخاله فى نطاقها ، فإن تعذر ذلك لقى صاحبه عنتاً شديداً ! ولكن رواد الفكر الحديث قد ضاقوا بهذا منهجاً للبحث ، فنزعوا فى مطلع العصر الحديث إلى وضع مناهج لاكتشاف الحقيقة ، وكان أكبرهم شأناً فى هذا الصدد ،

ديكارت فى مقاله عن المنهج ، وقد عرضنا له من قبل ، وفرنسيس بيكون فى أداته الجديدة Novum Organum الذى عارض بها منطق أرسطو الذى بسط نفوذه على المفكرين ، فوضع به أساس المنهج التجريبى الحديث ، وفيه استهجن تسخير العلم لخدمة الدين ، واعتبر هدف النظر العقلى فهم الطبيعة لاستغلالها والإفادة منها فى دنيانا الحاضرة ، عن طريق دراستها دراسة قائمة على المشاهدة والاستقراء التجريبى ، وبذلك انفصل العلم عن الدين وابتعد عن ثرثرة الجدل الأرسطاطاليسى فى العصر المدرسى ، وتجنب الأدب اللفظى الذى استغرق عصر النهضة ، وأصبحت الحقيقة لا تجىء بإملاء الكنيسة ولا تستقى من الكتب القديمة ، وكان خلاص العقل من قيود العقيدة الدينية واستعباد الفلسفة اليونانية وفتنة الروح الأدبية وتيه التأملات العقلية التى يكلف بها دعاة البحث الميتافيزيقى ، والضلال الذى يوقع فيه تجنب المشاهدة والتجربة ، فأدى هذا كله إلى تمكين العقل من تحقيق الغاية التى يهدف إليها البحث العلمى ، من حيث السيطرة على الطبيعة لصالح الإنسان فى دنياه ، وبهذا تنصرف الجهود إلى العمل لا إلى مجرد التأمل والنظر ، لأن الإنسان فاعل قبل أن يكون مفكراً ، ومدبر للطبيعة وليس معبراً عنها . وقد وضع بيكون خطة هذا المنهج وفصل مراحله ، وانتهى هذا إلى فصل العلم عن الدين لأن الحقيقة فى الأول وليدة التجربة وفى الثانى وليدة الوحى ، وإلى رفض السلطة العلمية مصدراً للحقيقة ، وإلى استهجان التسليم برأى لأن الكنيسة اعتمدته أو قالت به .

وبهذا المنهج توج بيكون جهود أسلافه ومعاصريه من دعاة التجربة وخصوم السلطة ، سار مع الركب ولكنه سرعان ما تولى قيادته وانتزع رياسته ، وإذا المنهج الذى كان صدى بيئته يطبع أوربا بطابعه ، ويتجلى فى سلسلة من الجمعيات العلمية نشأت للبحث التجريبى وقامت على رفض السلطة مصدراً للحقيقة ، وكان من أظهر هذه الجمعيات مدرسة الطبيعيين الفلورنسيين (عام ١٦٥٧) والجمعية الملكية (فى لندن ١٦٤٥) — وسميت فى عهد تشارلس

الثانى عام ١٦٦٢ بالجمعية الملكية لتقدم العلوم ثم سقط عجز الاسم بعد ذلك وكان من رجالها بويل ونيوتن — وتلتها أكاديمية العلوم فى فرنسا عام ١٦٦٦، ثم الأكاديميا دل شمنتو Academia del Cemento فى إيطاليا ، وشاع إنشاء مثل هذه الجمعيات فى أوربا كلها ، وعلى نمطها نشأت مراصد باريس عام ١٦٦٧ وجرينتش عام ١٦٧٧ ... إلخ . وكانت هذه كلها — بمناهج البحث عندها — معسكرات معادية للكنيسة ، ولو لم تعلن أو تضمر عداء . . !(١)

العقل والوحى عند جون لوك :

وضح هذا التيار — فى ناحيته الدينية بوجه خاص — على يد جون لوك J. Locke + ١٧٠٤ ، وهو الفيلسوف الذى استبدت بهوى الناس فلسفته وهو لا يزال على قيد الحياة ، وتأثر بها رجال عصره أعمق تأثر ؛ وقد اعتنق « لوك » مبادئ الكنيسة الانجيلية وأبلى فى الدفاع عن العقل بلاءاً حسناً ، ليقيه طغيان « السلطة » ويبعد عنه سلطان « النقل » ، وقد وضع عام ١٦٩٠ أعظم مؤلفاته الفلسفية « مقال فى العقل البشرى » Essay on the Human Understanding أقام فيه الدليل على أن التجربة مصدر كل معرفة ، فالإحساس وحده هو الذى يزودنا بالصور الخارجية ، والتأمل العقلى وحده هو الذى يزودنا بالصور الذهنية ، وبذلك انتزع المعرفة من مجال السلطة وحرر الحقيقة من قيوده الدين وأخضع الإيمان لسلطان العقل ؛ ومع ايمانه بالوحى المسيحى صرح بأن الوحى إن بدا على تناقض مع العقل وجب رفضه وعدم الإذعان لأمره ، لأن هذا الوحى لا يستطيع أن يقدم إلينا معرفة تبلغ من اليقين ما تبلغه المعرفة التى يأتينا بها العقل ، « ومن استبعد العقل ليفسح للوحى مجالا فقد أطفأ نور كليهما ، وكان مثله كمثل من يقنع إنساناً بأن يفقأ عينيه ويستعيض عنهما بنور خافت يتلقاه بواسطة المرقب من نجم سحيق ! » .

---

(١) انظر كتابنا أسس الفلسفة فى الفصل الثانى من الباب الأول ولا سيما ص ١٣٣ وما بعدها (طبعة ثالثة) .

وإذا كان لوك قد شارك ديكارت فى رفض السلطة مصدراً للحقيقة ، فإنه لم يقنع بمخالفته فى المصدر الذى تُستقى منه الحقيقة بردّها إلى التجربة ، بل آثر التجربة على الوحى الدينى مصدراً للحقائق ، وكان ديكارت على عكسه يؤثر الوحى على العقل على ما عرفنا من قبل . .

وقد وضع لوك كتاباً دلل فيه على أن الوحى لا يتنافى مع العقل ، وأن التوفيق بين الدين والفلسفة أمر ميسور ، وأسماه « مسايرة المسيحية للعقل » The Reasonableness of Christianity وكان له صداه فى الخلافات الدينية التى ثارت فى القرن الذى تلاه .

ومن الطريف أن المتزمتين من رجال الدين كانوا على اتفاق مع خصومهم من العقليين فى القول بأن مسايرة التعاليم الدينية لشريعة العقل هى المقياس الوحيد لصحة الدين المنزل !

وقد أثرت فلسفة لوك تأثيراً مباشراً فى « تولند » الإيرلندى الذى تحول عن مذهب الكنيسة الكاثوليكية إلى المذهب البروتستانتى ، فوضع كتاباً مثيراً للعواطف أسماه « المسيحية غير الغامضة » Christianity Not Mysterious عام ١٦٩٦ ، وفيه يرى أن المسيحية حق وأنها بريئة من الأسرار الخفية ، وهى العقائد التى يتعذر فهمها فى ضوء المنطق العقلى ، لأن مثل هذا الخفاء لا تقبله شريعة العقل ، وإذا نزل وحى من إله مُذعن لشريعة المنطق وجب أن تكون غايته التنوير . لا إثارة الحيرة والاضطراب فى نفوس الناس — والكتاب بهذا امتداد طبيعى لفلسفة « لوك » ، وقد كان حظه من الرواج موفورا .

حرية الاعتقاد بين هوبز وجون لوك :

ذهب توماس هوبز Hobbes + ١٦٧٩ إلى جمع السلطة التشريعية والتنفيذية والدينية فى يد الحاكم بحجة أن الإنسان أنانى بفطرته يؤثر مصلحته على كل اعتبار ، وقد أساء رجال الدين استغلال السلطان الذى تهيأ لهم ولهذا وجب أن يسحب منهم ويركز فى يد الحاكم المستبد ، وباستبداده العادل ترتفع الموضوعات الدينية عما تستهدف له من وجوه الجدل ، وبهذا يكون من حقه

أن يفرض على رعاياه الدين الذى يراه — وإن كان هوبز قد اضطر إلى العدول عن هذا الرأى لأن أكثر الانجليز بروتستانت يحكمهم فى ذلك الوقت كاثوليك — بهذا يكون هوبز قد أقر الاضطهاد الدينى ، ولكنه نقله من يد الكنيسة إلى يد الحاكم المطلق[١] ، أما « لوك » فقد انطلق — على عكس هوبز — يبشر بالحرية الدينية وينادى بتحرير العقيدة من الكنيسة والدولة معا ، ويهدم النزعة الاستبدادية ويستبدل بها الحرية المطلقة والتسامح المحمود ، ويطالب بفصل الكنيسة عن الدولة ليكفل تحقيق هذه الآمال الباسمة .

وقد وضع « لوك » عام ١٦٨٩ رسالة عن التسامح الدينى أردفها بثلاث رسائل يتم فيها البحث فى هذا الموضوع ، أثبت فيها أن مهمة الحكومة تختلف كل الاختلاف عن مهمة الدين ، فالحكومة وظيفتها المحافظة على مصالح رعاياها المدنية والعمل على رقيها ، وليس عالم الروح من اختصاصها لأن الحاكم لا يملك إلا القوة المادية ولا شأن لمثل هذه القوة بالدين ، إذ أن التدين يقوم على اقتناع العقل اقتناعاً باطنياً ، وقد صيغ العقل بحيث إن القوة لا تستطيع قهره وإكراهه على الإيمان ، ومن أجل هذا كان من خطل الرأى أن تعمد الدولة إلى إصدار قوانين تفرض بها ديناً من الأديان ، لأن القوانين لا تستقيم بغير عقوبات تفرض على من يعصى أمرها ، وليس فى وسع العقوبة أن تُيسّرَ سبل الإقناع أمام الناس .

طالب « لوك » بتحرير العقيدة من سلطان الدولة وطغيان الكنيسة معاً ، لأن الكنيسة فى رأيه ليست إلا هيئة « مختارة حرة » ولو كان من الضرورى أن تفرض المسيحية على من كفر بها عنوة واقتداراً ، لكان من الأيسر على الله أن يهدى هؤلاء الضالين بفيالق من كتائبه فى السماء ، بدلا من أن يحقق هذه الهداية أحد من أتباع الكنيسة — بالغة ما بلغت قوته ! وهذا يذكرنا بقول الامبراطور تباريوس : إذا كانت المعتقدات الإلهية إساءة إلى الآلهة فعلى الآلهة أن يقتصوا لأنفسهم . . . !

---

(١) انظر كتابنا : مذهب المنفعة العامة فى فلسفة الأخلاق ص ٦٠ وما بعدها .

وإن كان من الحق إن يقال إن « لوك » لم يتخلص من أوهام عصره وأحكامه المبتسرة ، فقد ناقض مبدأه فى حرية الاعتقاد واستثنى من مبدأ التسامح الروم الكاثوليك والهراطقة ، لأن هؤلاء الذين لا يؤمنون بوجود الله لا يقيمون وزناً لعهد ولا قسم ولا ميثاق وبغيرها لا يستقيم المجتمع الإنسانى ، ثم إنهم بتقويضهم الأديان كلها لا يملكون الادعاء بأن لهم ديناً يعطيهم الحق فى طلب التسامح . . !

اضطهاد نيوتن :

ومن الخير أن نقول كلمة خاطفة عن حملة رجال اللاهوت على إسحاق نيوتن : ولد فى العام الذى مات فيه جاليليو (١٦٤٢) ، وتمكن بدقة ملاحظته ونفاذ بصيرته ووقدة ذكائه من أن يكتشف أسرار الجاذبية بين الأجرام السماوية — بعد سقوط التفاحة أمامه فيما يقال — فانتهى إلى أن « الأجسام يجذب بعضها بعضاً بنسبة أحجامها طرداً وبنسبة مربع المسافة بينها عكساً » ، فأثار اكتشافه غضب رجال اللاهوت ، وقيل عن هذا القانون إنه يستبدل بعناية الله قوة الجاذبية ! وأنه أنزل رب الخلق عن عرشه وسلبه عمله المباشر فى خلق الكون على نحو ما تقرر الكتب المقدسة ! واتهمه أوين J. Owen البيوريتانى بالمروق لأنه ناقض صريح النصوص المقدسة ! وزعم جون هاتشنسون فى كتابه « مبادىء موسى » الذى نشره عام ١٧٢٤ ، أن مبادىء نيوتن تفضى بمن اعتنقها إلى إنكار وجود الله ! ومن طريف المفارقات أن يشترك فى هذه الحملة الفيلسوف الألمانى « ليبنتز » Leibnitz وفى سنة ١٧٤٨ نشر اثنان من مشاهير الرياضيين فى فرنسا كتاب نيوتن « المبادىء » ، وكانت مقدمتهما للكتاب شاهداً على مدى خوفهما من اضطهاد السلطات الكنسية لرواد الفكر الجديد ! وقد انتهت هذه الحملات بإثارة الشك فى قيمة نيوتن وعلمه ، حتى قلّ أتباعه وانصرف عن محاضراته تلامذته ، فمات بعد صدور هذا الكتاب المجيد بنحو أربعين عاما ، ولم يكن له إذ ذاك أكثر من عشرين

تابعاً — فيما يقول ڤولتير ! هذه هى نهاية الرجل المتدين الذى قيل فيه : إن الطبيعة كانت فى ظلام دامس فقال الله ليكن نيوتن ، فشاع النور فى كل جوانبها !

المذهب الطبيعى ومقاومته للدين التقليدى :

إذا كانت فلسفة « لوك » قد مكنت للنزعة العقلية بحصر السلطة وإلزامها الوقوف عند حدها وعدم تجاوز ميدانها ، والقول بأن التجربة وحدها مصدر المعرفة اليقينية ، فقد قوى « بايل » من هذه النزعة ومكن لها ، وأثر فى انجلترا وفرنسا تأثيراً واسع المدى ، إذ أمد أعداء المسيحية بأسلحة تشد من أزر قضيتهم ، وكانت أول حملة بدت فى مقاومة الكنيسة وسلطتها هى حملة الطبيعيين الإلهيين من الإنجليز Deists أولئك الذين آمنوا بوجود إله وأنكروا الوحى والرسل ، والمعجزات ، وأصلوا رجال الكهنوت نار حملاتهم ، وطالبوا بإثبات وجود الله عن طريق الظواهر الكونية والمشاهد الإنسانية ، وإذا كانت كتاباتهم على حرارتها لا تقرأ اليوم إلا قليلا ، فإن حملتهم على سلطة الدين المنزل خليقة بأن نقف عندها تقديراً لها واعترافاً بقوتها ، فإن دعاتها يشغلون مكاناً بارزاً فى تاريخ المذهب العقلى فى انجلترا ، وقد خلفوا — مع بايل — تراثاً فكرياً مجيداً ، استبد بهوى الطبقات المثقفة فى فرنسا وأثر فى جمهرة الكتاب فى أوربا :

بدا المذهب الطبيعى(١) على يد هربرت تشيربرى Herbart of Churbery + ١٦٤٨ إذ حاول الاهتداء إلى دين طبيعى تفضى إليه طبيعة العقل البشرى ، معارضاً بذلك الدين التقليدى الذى يقوم على السلطة ؛ ومن رأيه أن الدين لا يكون دينا إلا إذا اتفق الناس على التسليم به والإذعان لتعاليمه ، والقدر المشترك الذى تتفق فيه الأديان على اختلاف صورها هو المقياس الذى يقاس به ما فيها من حق ، وما تصدق فيه الأديان صدقا مطلقا يبدو فى مبادئ

---

(١) أنظر كتاب Introduction to philosohy لمؤلفه O. Külpe وقد نقله إلى العربية وعلق عليه الدكتور أبو العلا عفيفى أستاذ الفلسفة بجامعة الاسكندرية .

أهمها القول بوجود الله ووجوب عبادته ، والاعتراف بقيام ثواب وعقاب فى حياة أخرى ، والتسليم بالتوبة والجزاء . . الخ . وقد واصل البحث فى الدين الطبيعى بعد هذا جون لوك ، فسلم بوجوب إله رأى أن الإنسان كون فكرته عنه من جميع ما فى نفسه من صفات كاملة وتكبيرها وإضافتها إلى الله ، ولكنه أنكر وجود اتفاق عام بين الناس على فكرة الله وعبادته ، لأنه كان ينكر وجود أفكار فطرية يشترك فيها الناس جميعا ، ولا تجىء عن طريق التجربة — فيما كان يقول ديكارت — ثم جاء « تولند » Toland + ١٧٢١ و ١٧٢٢ ، وتندال وغيرهما ممن حاولوا أن يقيموا الدين على أساس جديد ، وتوصلوا إلى هذا بنقد المسيحية وبعض تعاليم الكنيسة وإنكار الوحى والأديان المنزلة ، وتفسير العالم تفسيراً آليا ميكانيكيا ، واستبعاد القول بأن الله يدير العالم ويقرر مصيره ، حتى انهدم بهذا أساس الدين الطبيعى بمعناه الأصلى .

والملحوظ أن المذهب الطبيعى يشابه مذهب الإلحاد ، لأن كليهما يعطل الإرادة الإلهية ويستبعد تأثيرها فى العالم ويضيف الألوهية صفات تقديس لا معنى لها ، وينكر المعجزات وخوارق العادات ، ثم يفترض هذا المذهب وجود إله ليس له من عمل إلا أنه العلة الغائية للكون . . ! ولا يملك الإنسان إزاءه إلا مجرد التقديس ، وهو فوق هذا كله يرى أن العالم تسوده الفوضى ، وأن الله يتجرد عن الكمال إذا هيمنت عنايته الدائمة على تدبير العالم وتحقيق ما هو صالح له .

مواضع الخلاف بين الطبيعيين ورجال اللاهوت :

أما موضوع الخلاف الذى كان مثار الجدل بين الطبيعيين وخصومهم من رجال اللاهوت ، فهو إمكان التوحيد بين إله الدين الذى نزل به الوحى المسيحى وإله الدين الطبيعى الذى تمكن العقل وحده — دون الاستعانة بالوحى المنزل — من أن يقيم الدليل على وجوده — فيما يقول هؤلاء الطبيعيون . وقد بدا هذا التوحيد فى نظر الطبيعيين مستحيلا ، لأن طبيعة

الوحى الذى يقول به خصومهم تبدو على غير اتساق مع طبيعة الله الذى اهتدى إليه العقل البشرى بطبيعته . ولكن المدافعين عن الوحى — أو أكثرهم على أقل تقدير — كانوا على اتفاق مع الطبيعيين فى الاستجابة لنداء العقل وجعل كلمته هى العليا ومنحه السلطة على الوحى ! وبهذا الاعتماد على شريعة العقل انحدر بعض اللاهوتيين إلى مزالق الهرطقة ! أى أن سلاح خصومهم قد أضر بهم حين تقلدوه واستعانوا به فى تقوية مركزهم ! ولم يكن هذا غريبا لأن الأصل فى الدين أنه غيبى يقوم على الإيمان بما فوق العقل ، فالاعتصام بالعقل لتوطيد دعائمه ومسايرة المحاجة إلى أقصى آمادها تفضى لا محالة إلى تداعى الدين وانهياره .

أما الباعث الرئيسى على ذلك الجدل السالف بين الطائفتين فقد كان الاهتمام بالأخلاق ، إذ رأى رجال اللاهوت أن عقيدة الثواب والعقاب فى الحياة الأخرى لازمة لصيانة الأخلاق ، ورأى خصومهم من الطبيعيين أن الأخلاق لا تقوم إلا على العقل وحده ، وأن الوحى قد جاء بالكثير مما يتنافى مع المثل العليا فى الأخلاق كما أقرها العقل !

لقد وضع « سبينوزا » Spinoza المبدأ الذى أوجب تأويل الكتاب المقدس على نحو ما يؤول غيره من الكتب (١٦٧٠) وضمن هذا المبدأ كتابه « رسالة لاهوتية سياسية » Theological political Treatise وترجمت هذه الرسالة إلى الإنجليزية عام ١٦٨٩ ، فاعتنق الطبيعيون هذا المبدأ واعتصموا به ، ولكنهم خافوا اضطهاد السلطة فدفعوا آراءهم إلى الناس مقنعة يخفيها ستار رقيق . . ! ولم يكن هذا الفزع الذى يساورهم من اضطهاد خصومهم أمراً بدعا ، فإن قانون الرقابة على المطبوعات (١٦٦٢ م) قد حرم على الناس حتى القرن الثامن عشر نشر الآراء التى تناهض الدين ، حتى اننا لا نعرف مدى شيوع النزعة العقلية فى هذا العصر إلا من كثرة الكتب الدينية التى وضعها أصحابها للتشهير بالملحدين وهجو آرائهم الخبيثة ! وما أهمل العمل بقانون المطبوعات عام ١٦٩٥ حتى أخذت مؤلفات الطبيعيين فى الانتشار ، ولكن

الاتهام قد ظل قائماً تزكيه قوانين التجديف[1] Blasphemy Laws . التى وضعت لكبح الذين يهاجمون المسيحية ، وقد عرفت انجلترا ثلاث قوى تستخدمها ضد من هاجموا المسيحية وهى :

(١) المحاكم الإكليركية ، وقد كانت ولا تزال بها سلطة تخولها حق الأمر بالسجن مدة لا تزيد على ستة شهور فى حالة الإلحاد والتجديف والهرطقة ، وإعلان الآراء التى تجلب اللعنة على أصحابها .

(٢) القانون العام كما فسره قاضى القضاة « هيل » Hale عام ١٦٧٦ حين اتهم رجل بأنه زعم أن الدين غش وخداع وأنه أساء إلى المسيح ، فأدين وغُرم وشُـد إلى وتد التشهير ، وصرح القاضى بأن تلك القضية تدخل فى اختصاص المحاكم الأهلية ما دامت ألفاظ التجديف وأمثالها تعتبر إهانة موجهة إلى الدولة وقانونها ، والتعريض بالمسيحية تحريض على عصيان القانون ، لأن المسيحية هى « جماع القوانين الإنجليزية » .

(٣) قانون عام ١٦٩٨ الذى ينص على أن كل مسيحى ينكر — عن طريق الكتابة أو القول الشفوى أو الطبع أو المحاضرة ألوهية أحد فى الثالوث الأقدس — الآب والابن وروح القدس فى عقيدة التثليث — أو يؤكد أو يواصل القول بوجود أكثر من إله واحد ، أو ينكر أن تكون المسيحية ديناً حقاً صادقاً ؛ أو يرفض القول بأن الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد صادر عن الله ، من يقع فى هذا يدان ويحق عليه العقاب ، وهو فى أول مرة يعاقب بحرمانه من الوظائف والمهن العامة ، فإن عاود الخطأ فقدَ حقوقه المدنية وزج به فى السجن ثلاث سنوات ! وقد قيل فى تفسير هذا القانون : إن الباعث على وضعه أن الكثيرين جهروا فى السنوات الأخيرة أو نشروا كثيراً من آراء التجديف والإلحاد التى تتنافى مع عقيدة الديانة المسيحية وأصولها .

---

(١) يراد بالتجديف فى عرف الإنجليز إنكار وجود الله أو عنايته أو الطعن فى المسيح أو قذف الكتاب المقدس أو محاولة السخرية منه .

والواقع أن أكثر المحاكات التى جرت من أجل التجديف فى القرن السابع عشر والثامن عشر قد وقعت تحت طائلة البند الثانى ، ولكن القانون الأخير كان مثار الفزع ومدعاة التستر والتخفى عند الملحدين ، ومن مظاهر هذا التخفى النزوع إلى تأويل الكتاب المقدس وعدم التقيد بحرفية نصوصه ، لأن مثل هذا التقيد — فيما رأى الطبيعيون — يكشف عن وجوه من التناقض والعبث تتنافى مع حكمة الله وعدالته ، ومن أجل هذا طالبوا بتأويل النصوص فى ضوء العقل ، وكان مقصدهم من وراء هذا أن يسيئوا إلى الوحى ويثيروا الشك فى أمره عند الناس .

مناقشة المعجزات والخوارق :

وقد استخدم رجال اللاهوت المعجزات والتنبؤات التى وردت فى « العهد الجديد » شاهداً على صحة الوحى وصدقه ، وأبى خصوم الوحى من الطبيعيين أن يقروا هذا الشاهد . وفى الحق أن الاعتراض على المعجزات وخوارق العادات يؤدى إلى هدم الأديان جميعاً ، لأن الأصل فى الدين أنه يدعو إلى الإيمان الغيبى بما فوق العقل ، والاعتراض على هذا مع محاولة إخضاع الدين إلى منطق العقل وامتحان التجربة والمشاهدة كفيل بهدم الدين من أساسه — وإن كان الدين فى النهاية يساير منطق العقل — والتسليم به يفضى إلى التسليم بخوارق العادات ، لأن الأصل فى العلم أنه يقوم على تلازم الأسباب والمسببات أو عدم تلازمها ضرورة ، ولزوم السبب للمسبب يبطل المعجزات وخوارق العادات فضلا عن إبطال الوحى كله والمعتقدات الأصلية فى الأديان ، لأن هذا يستلزم القول بأن الفاعل الذى يؤثر فى الأشياء والموجودات يكون من داخل لا من خارج ، وفى الإمكان تأييد ذلك المبدأ بالمشاهدة والتجربة ، أما المؤمنون بالدين فيرون أن الفاعل من خارج وليس من داخل ، وبذلك يصبح قائماً وراء الفعل .. وقد ثارت هذه المسألة فى الإسلام وأيد الفلاسفة المبدأ العقلى السالف ، وأنكره المتكلمون واحتالوا على تأويله . فلما ثارت

المشكلة فى أوربا لم يقف الموافقون على الدين فى انجلترا موقف المتكلمين فى الإسلام ، بل اعتصموا بالعقل وحاولوا تبرير المعجزات بمنطقه ، فخانهم سلاحهم المستعار لأنه لا يصلح فى مثل هذا الميدان . . ! ومن هنا كانت هزيمة رجال اللاهوت — فيما يقول صاحب الجامعة .

وقد نشر « أنتونى كولنز A. Collins تلميذ « لوك » عام ١٧٣٣ كتابه « تمهيد فى أصول المسيحية وأسبابها » كشف فيه عن ضعف الأدلة على تحقق النبوءات ، تلك التى تستند إلى تأويلات مجازية متكلفة ؛ وكتب قبل هذا بعشرين عاما « رسالة فى التفكير الحر » ضمنها المطالبة بحرية البحث وإرجاع الأمور الدينية كلها إلى شرعة العقل ، وأعلن فيها شكواه من التعصب الذى استشرى داؤه — ولعل من الإنصاف أن نقول إن الدلالات التى تشهد بقيام التعصب تنهض دليلا على شيوع الإلحاد واستفحال أمره .

وإذا كان « كولنز » قد أفلت من اضطهاد خصومه ، فإن « توماس ولستون Th. Woolston بجامعة كمبردج ، قد دفع ثمن جرءته وتهوره الذى بدا فى ست مقالات عنيفة أسماها « مقالات فى معجزات مخلصنا » (١٧٢٧ — ٣٠) إذ حرم من طلب العلم وقدم للمحاكمة بتهمة القذف ، وأدين بغرامة قدرها مائة جنيه وزج فى السجن عاماً — وقد عجز عن دفع الغرامة ومات سجيناً ! وهو لا يحاول البرهنة على استحالة المعجزات أو مجافاتها للصدق : بل يتناول بالبحث أهم المعجزات التى وردت فى الأناجيل ويحاول فى مهارة ونفاذ أن يكشف عن تناقضها وعدم جدارتها بمن قام بها !

على أن « ولستون » كان يؤمن بأن الكتاب المقدس من وحى الله ، وكان يضيق بتفسير المعجزات تفسيراً حرفياً ويراها مجرد رموز لأعمال خفية أثر بها المسيح فى نفس الإنسان ، وقد اعتمد فى تأويلها على أقوال أثرت عن أب مسيحى غير متعصب هو « أوريجان Origen » فيقتبس منه ويستشهد به ويملأ انتقاداته بفحش الكلام البذىء ، ومن أجل هذا أغفل البعض الاهتمام بها ولقيت عند الناس رواجا ملحوظا ، ومن دلالات شهرته السيئة أن فتاة مرحة لقيته ذات مرة فقالت له على غير معرفة به : ألا تزال حياً لم تشنق

بعد أيها الماكر الخبيث ؟ فقال لها : أى خطأ ارتكبته معك أيتها السيدة المهذبة التى لا تربطنى بك معرفة ؟ فقالت له : إنك تهاجم فى كتاباتك مخلصى المسيح فمن لنفسى المثقلة بالذنوب إذا لم يشفع لها مخلصى الحبيب ؟

نقد الوحى المسيحى عند تندال :

وفى الوقت الذى عانت فيه المعجزات حملات ولستون تلقى الوحى هجمات ماتيدو تندال M. Tidndal من وجهة نظر أعم ، لم يهاجم بها المعجزات باعتبارها شاهداً على صدق الوحى — كما فعل ولستون — بل واجه الوحى كله وجدّ فى اجتثاثه من جذوره ، فوضع فى عام ١٧٣٠ كتابه « المسيحية قديمة قدم الخليقة » وقرر فيه أن الإنجيل باعتباره كتاباً منزلا لاقيمة له ، لأنه لا يضيف شيئا للدين الطبيعى الذى كشفه الله للانسان منذ بدء الخليقة بنور العقل وحده ؛ والذين يتوسلون إلى الدفاع عن الدين المنزل بالتوفيق بينه وبين الدين الطبيعى الذى تكشّف عنه النظر العقلى ومن ثم يقيمون سلطتين للعقل والنقل ، يقعون فى الكفر بين هاتين السلطتين . وإنه لخلط غريب — فيما يقول هو نفسه — أن يبرهن على صدق كتاب بصدق المبادئ التى يحويها ، ثم يقرر فى نفس الوقت صدق هذه المبادئ لمجرد وجودها فى هذا الكتاب ..! هذا دور فيما يسميه المناطقة .

ثم يمضى « تندال » بعد هذا إلى نقد الإنجيل فى إسهاب ، فيقول إنك إن أردت التمسك بعصمة الإنجيل دون أن تسىء إلى العقل الذى تدين به ، فعليك أن تتناول الآيات التى تتنافى مع حكم المنطق السليم بالتأويل والتحوير حتى تبعد بها عن معناها الحرفى ، فيستقيم أمرها مع منطق العقل ، ألا ترى أن المسلم الذى يفعل هذا فى كتابه المقدس لا يصبح من أتباع هذا الكتاب ؟ ألا يقصر كتابه المنزل عن التسامى إلى مؤلفات شيشرون التى لم ينزل بها وحى والتى لا يتطلب فهمها البعد عن حرفية معناها ؟

والإنجيل فيما يقول خصومه قد تضمن من الأخطاء الطبيعية والتاريخية

ما يهدم عصمته من الوقوع فى الزلل ، ولكن أحد رجال الكهنوت قد قال — وقوله الحق — إن الله يخاطب الناس فى كتابه المقدس حسب مداركهم وعلى قدر تصوراتهم فى ذلك الحين ، وليس من عمل الوحى أن يقوّم آراء الناس ويصحح أخطاءهم فى الموضوعات التى يعرض لها ، ولكن « تندال » يقول فى رده على هذا : إن هذا يفضى بنا إلى القول بأن الله يتوقف عن إصلاح الخاطىء فى آراء الناس ، ثم يؤيد هــذه الآراء الباطلة باتباعها فى حديثه ، ويأبى أن يقوم المنطق الفاسد عند عباده ، ثم يزاول التفكير فى ضوء أحكامه الباطلة بالتزامه فى كلامه ! فهل يئست حكمة الله اللامتناهية من اكتساب عواطف الناس والاحتفاظ بها ، دون الاستعانة بمثل هذه الأمور التافهة ؟

ثم يعرض بعد هذا إلى غرابة « عقيدة الخلاص » بنقد مر فيقول عن المسيح عليه السلام : إن أبواب السماء كانت مفتوحة أمام الناس فأقبل عليهم من أغلق هذه الأبواب المفتحة ، حتى إذا تم له ما أراد أهاب بالناس أن ينتظروا على يديه الخلاص ! كيف يمكن فى حكم العقل أن يقال عن هذا إنه مخلص البشر ومنقذهم من أعباء المعاصى والآثام ؟ ثم يكشف « تندال » عن التناقض بين ما ندركه بنور الفطرة وحده من خيرية الله العادلة الشاملة ، وبين الأعمال التى تعزى إلى الله ورسله فى التوراة ، ويستشهد بالحالات التى خولف فيها نظام الطبيعة ليتيسر عقاب الناس على آثام لا يد لهم فى وقوعها . ! وإذا كان الله قد عبث بنظام مملكته ليأخذ البرىء بجريرة المذنب ، إذا كان هذا مسلكه فى حياتنا الدنيا فأى ضمان لنا فى أن يغير الله هذا المسلك الجائر فى حياتنا الأخرى ؟ وإذا كانت قواعد العدالة الأبدية قد أهملت مرة فكيف للعقل أن يتصور الكف عن العبث بها بعد ؟ فى الحق إن المثل العليا للعدالة والقداسة فى « العهد القديم » تثير الدهشة ، لأن أصحاب هذه المثل يتمثلون فى هذا الكتاب وقد كلفوا بالقسوة وعكفوا على قذف الناس والطعن فيهم ! أليس غريباً أن نرى النبى « إليسع » Elisha يلعن باسم الله صغار الأطفال

لأنهم دعوه بأملط الرأس ! وأليس أدعى إلى الدهشة أن تبتلع دبتان فى الحال اثنين وأربعين طفلا من هؤلاء الصغار !

الخطر فى قيام المسيحية على العقل (عند ددويل)

قلنا فيما أسلفنا إن رجال اللاهوت كانوا فى هذا العصر بوجه عام يقيمون المسيحية على شريعة العقل لا على أساس الإيمان، وهذا الاتجاه لا يسلم من معارضين أظهرهم « هنرى ددويل » H. Dodwell (الضغير) الذى وضع عام ١٧٤١ كتيباً شائقاً عن «المسيحية لا تقوم على الحجة» وأظهره فى صورة خطاب موجه إلى صديق فى اكسفورد وأشار فيه إلى الأخطار التى تنجم عن هذا الاعتماد على منطق العقل واستدلالاته ، ومن سخرية الأقدار أن تكون هذه الرسالة نتيجة مبدأ « بايل » الذى يفترض أن أصول المسيحية تتنافى مع العقل ولا تساير بالضرورة أحكام المنطق ! إن قيام الاعتقاد فى صحة وحيها على أساس المنطق العقلى ينذر بكل سوء ، إن من نزعت نفسه إلى الإيمان قادة العقل إلى الهداية ، وأن غرس الإيمان وغرس العقل ينتهيان إلى نتائج متناقضة ، والفيلسوف بتغلغله فى مجاهل الحكمة الدنيوية لا يصلح لتلقى الأوامر الإلهية ، والأناجيل لا تلقى سرها إلا لمن يتلقاها بقلبه الخاضع ونفسه الصافية — صفاء الطفل الذى تجرد عن كل ميل إلا ميله إلى حفظ درسه ! والمسيح لم يعرض عقيدته لتكون موضعاً للبحث والجدل ، ولم يقدم لحوارييه البراهين الدالة على صدق رسالته ، ولم يدع لهم الوقت الذى يتطلبه بحثهم لها ، والحرية التى يستلزمها التفكير فى تعاليمها ، حتى ينتهوا من هذا بإعلان مايقرره عقلهم بصددها ، ولم يكن الحواريون أهلا لأداء هذه المهمة ، لأنهم كانوا أعظم أهل عصرهم سلامة قلب وصفاء نفس ، وأبعدهم عن الدرس والتعلم . . !

ويستطرد « ددويل » من هذا إلى موقف البروتستانت ، ويبين عن تداعيه لأن من الخطر أن تعطى كل إنسان حق الحكم لنفسه ، ثم تتوقع بعد

هذا أن يحرص على الدين حرص التقى المتمسك بتعاليمه ، وإذا كان رجال الإصلاح الدينى قد هاجموا ادعاء البابا العصمة فإن فى موقفهم من الحكم الفردى ادعاء ملحوظا .

هجوم شافتسبرى على الكتاب المقدس :

ونلاحظ مما أسلفناه أن معظم الملحدين فى هذه الفترة قد جنحوا إلى نقد الدين التقليدى المنزل ، والتعلق بالدين الطبيعى الذى اهتدى إليه العقل بفطرته ، وفكرة هذا الدين على ما عرفناها من قبل قد انحدرت من الفلسفة القديمة وجدد فى إحيائها اللورد هربرت تشيربرى فى بحث وضعه باللاتينية «عن الحق » فى حكم جيمس الأول ، وكان الطبيعيون يلحون فى اعتبار هذا الدين الطبيعى أساساً كافياً للأخلاق ، ويقولون إن إغراء المسيحية للناس على اتباع السلوك الخير لاقيمة له إطلاقاً ، فقد عرض للبحث فى هذا الموضوع شافتسبرى Shaftesbury فى كتابه « بحث عن الفضيلة » وضعه عام ١٦٩٩ ، وقرز فيه أن الإغراء على اتباع السلوك الخير بالأمل فى نعيم الجنة المقيم ، والتخويف من عذاب النار الأليم مفسدة للأخلاق ، وحسب الإنسان باعثاً على فعل الخير جمال الفضيلة فى ذاته ، بل إن افتراض وجود الله غير ضرورى عند وضع القانون الخلق ، ثم إن آراء الملحدين لاتهدم الأخلاق ، ولكن الإيمان بوجود حاكم خير يهيمن على هذا الكون ، عون عظيم على مزاولة الفضيلة ، وشافتسبرى من غلاة المتفائلين الذين يرضون كل الرضا عما يرونه فى الكون من تلاؤم معجز بين الوسائل وغاياتها يصبح بمقتضاه بعض الحيوانات طعاماً لبعضها الآخر ، وهو لا يحاول التوفيق بين وحشية الطبيعة ورحمة خالقها القادر ، ولو سئل الملحد عن رأيه فى ذلك ، لقال إنه يؤثر أن يكون تحت رحمة المصادفة العمياء على أن يكون فى يد حاكم مستبد قاهر يخلق الذباب لكى يبتلعه العنكبوت — ولكن هذه النظرة لم تكن مثار الاهتمام عند مفكرى القرن الثامن عشر ، فإذا مررنا بها ، لاح لنا شافتسبرى نافراً

من « الإله » كما بدا فى التوراة ! وهو يهاجم — تلميحاً وتصريحاً — ذلك الكتاب المقدس ويشير تلميحاً إلى أنه لو كان هناك إله لكان أقل ضيقا بالملحدين منه بأولئك الذين آمنوا بوجوده فى صورة « يهوذا » ، وكان يقول ماقاله بلوتارك : أحب إلى أن يقال عنى بعد : لم يوجد فى الماضى ولا يوجد فى الحاضر رجل اسمه بلوتارك ، من أن يقال : وجد بلوتارك وكان رجلا خليعاً ماجناً سريع التقلب أخاذاً للثأر ! ونظرية شافتسبرى فى الأخلاق على ضحالتها قد أثرت فى مفكرى فرنسا وألمانيا فى القرن الثامن عشر تأثيراً واسع المدى .

تداعى الدفاع بالعقل عن المسيحية :

كان العقل ملاذ الطبيعيين من المؤلهة وخصومهم البارزين من رجال اللاهوت على السواء كما أشرنا من قبل ، إذ اعتصم به المعسكران فى نصرة قضيتهما والتمكين لها ، ووجه الطرافة فى موقف رجال اللاهوت أنهم حين لجأوا إلى العقل واستشهدوا بمنطقه ، ساهموا كثيراً فى تقويض سلطة النقل وهدم قضيتهم ! وفى موقف مؤيدى المسيحية فى هذه الفترة ما يشهد بما نقول .

صادفت المسيحية تأييداً من رجل يظن أنه أقدر الفلاسفة الطبيعيين وأعلمهم على وجه التحقيق ، هو الموقر « ك . مدلتون » Conyers Middleton الذى بقى فى حظيرة الكنيسة ولم ينسلخ عنها ، وقد أقام انتصاره للمسيحية على أساس نفعى بحت ، فقـــال : إن العمل على هدمها مع افتراض أنها أكذوبة ضلال مبين ، لأنها تقوم على القانون ، ووراءها ماض طويل من التقاليد ، والعمل على تقويض المسيحية لإحلال العقل مكانها جهد لا يرجى من ورائه خير ، على أن الأدلة التى ساقها لتأييد قضيته قد أفضت بقارئها إلى هدم الوحى وتقويض المسيحية . . ! « فبحثه الحر فى المعجزات المسيحية » (١٧٤٨) يلقى ضوءاً جديداً على موضوع كان مثار الجدل منذ القدم وهو : متى عجزت الكنيسة عن إتيان المعجزات ؟ وسنرى بعد قليل كيف نهض « جيبون » فى حملته على الدين بتطبيق المنهج الذى وضعه مدلتون .

وإلى مثل هذا الاتجاه العقلي سار الأسقف « بطلر » وهو أكبر المدافعين عن الدين ، فنشر كتابه Analogy عام ١٧٣٦ ، فاتهم هذا الدفاع الحار بأنه كان أكثر إثارة للشكوك فى عقل القارئ منه تسكينالها ! . (١) كان هذا أثره فى « وليم بت الصغير » وقد انتهى بالفيلسوف النفعى « جيمس ميل » J. Mill إلى الكفر . . !

وقد برهن الطبيعيون من المؤمنين على أن إله الطبيعة الذى اهتدوا إليه بمنطق عقولهم لا يمكن أن يكون هو ذلك الإله الذى تصفه التوراة والأناجيل بالقسوة والظلم ، فأشار بطلر إلى الطبيعة قائلا ، إنها مليئة بالقسوة والظلم ! فكان فى هذه الإشارة اعتراف صريح بنتيجة كان يخشاها ، وهى أن الإله العادل الرحيم الفعال للخير لا وجود له ! فاضطر بطلر إزاء هذا إلى أن يلتجئ إلى الأدلة الشكية القديمة التى تقول إن علمنا الضيق يحول دون إدراكنا لهذا الإله ، وأن كل شىء ممكن الوجود حتى نار الجحيم المخلدة ، وعلى هذا يكون آمن الطرق وأسلمها اعتناق الدين المسيحى المنزل ! . . وهذا دفاع ينسحب على الأديان جميعا ولا يخص ديناً دون دين .

والواقع أن « بطلر » قد أحيا بهذا دليل « بسكال » فيلسوف الرهان الذى يقول : إذا كان هناك احتمال واحد فى أن تكون المسيحية صحيحة صادقة كان من مصلحة الإنسان اعتناقها ، لأنه لن يخسر إن ثبت بعد هذا بطلانها ، إلا بما ضحى به فى حياته من لذات تافهة ، ولكنه يربح ربحاً طائلا لا محالة إن تحقق احتماله ! ولقد أفرغ بطلر وسعه فى ترجيح هذا الاحتمال ، ولكن محاولته تعادل فى قيمتها الفعلية والخلقية ما كان لدليل بسكال !

هذا بعض ماجرى من نزاع عقلى بين الطبيعيين من المؤلهة وخصومهم من رجال اللاهوت إبان هذا العصر ، فلنتتبع هذا النزاع عند داقيد هيوم :

---

(١) أنظر مذهبه الأخلاقى فى الضمير فيما كتبناه عنه فى مشكلة الالزام الخلقى فى كتابنا « مسائل فلسفية » .

موقف هيوم من وجود الله وخوارق العادات :

لاحظ « هيوم » + ١٧٧٦ أكبر فلاسفة الانجليز فى القرن الثامن عشر أن فكرة « الدين الطبيعى » ألصق بتاريخ الكنيسة منها بتاريخ الفلسفة ، لأن الأصل فى هذه الديانة أن بعض رجال الدين قد قاوموا سلطة الكنيسة طمعا فى أن يزداد على حساب ضعفها نفوذهم ، فلما ضعف نفوذهم اعتصموا بالعقل واستندوا إلى نورة الفطرى فى التبشير بالدين الطبيعى .

ومن الخير — قبل أن نتحدث عن هيوم — أن نشير إلى باركلى + ١٧٥٣ الذى كان مؤمناً كامل الإيمان فساءته موجة الإلحاد والإباحة واللادينية التى فشت فى عصره ، فرد هذه الحركة الجارفة إلى المادية التى كان يبشر بها الفلاسفة ، وحاول أن يجتث الشر من جذوره فرد الحقائق كلها إلى الفكر ، وقرر أن الأجسام فى شتى صورها ليست إلا ظواهر لا حقيقة لها ، وإذا انتهى إلى هذه اللامادية Jmmaterialism التى قضى بها على العالم المادى ، وأقر مكانه العالم الروحى ، واصل دفاعه عن الوحى المسيحى ومهاجمته لدعاة الإباحة فى كتابه « ألسفرون Alciphron أو الفيلسوف الصغير » ولكن هذا الإسراف فى التفكير الروحى إذا كان قد أودى بالعالم المادى ، فإنه انتهى عند خليفته « هيوم » إلى إنكار العالم الروحى . . !

قرر هيوم فى كتابه « محاورات فى الدين الطبيعى — وقد نشر بعد مماته بثلاث سنوات — أن أدلة الطبيعيين على إثبات وجود الله متهافتة متداعية ، وعرض لمناقشة « برهان الغائية » الذى استند إليه المسيحيون والطبيعيون معا ، وخلاصته : أن العالم محتاج إلى صانع ممتاز بالخبرة والذكاء ، إن فيه آيات تشهد بوجود مدبر للكون ، إن بين الوسائل وغاياتها تلاؤما معجزاً لا يمكن رده إلى غير خطة مقصودة وضعها عقل قوى قادر . ويعترض هيوم على هذا الدليل فيقول إنه لا يُرضى الصوفية لأنه يتضمن تشبيها ماديا ، ولا يعجب أهل الجدل لأنه يسمح بوجود أكثر من إله ، إنه لا يبرهن إلا على وجود إله قد يسمو على الإنسان ، ولكن سلطته محدودة وصناعته يعوزها الإتقان

لا محالة ، لأن الكون عند الطامحين المثاليين ملىء بالأخطاء ، أن دنيانا الحاضرة تبدو وكأنها أول محاولة فجة لإله طفل : فلما اتسعت خبرته ونمت مداركه تخلى عنها وندم عليها وأخجله نقص صناعته !! أو كأنها من صنع إله يباشر التمرين ويزاوله ، وهى تثير عند أستاذه السخرية ! أو كأنه من صنع إله طاعن فى السن متقاعد مات وخلف مخلوقه يحيا مستهتراً ، خير للمسيحيين والطبيعيين معا ألا يكون لهذه النظرية وجود ! ولكن هيوم قد قبل بعاطفته أكثر المبادىء الدينية التى أخضعها للشك بعقله ، فالشك حالة طارئة سرعان ما تزول ليأخذ اليقين مكانها .

وقد عرض هيوم فى مقاله « عن المعجزات » وفى كتابه الفلسفى « بحث فى العقل البشرى » (١٧٤٨) إلى مناقشة موضوع المعجزات ، وكان البحث فيها إلى عهد هيوم غير مستقل عن المزاعم اللاهوتية ، فرأى هيوم أن من الضرورى أن يوجد مقياس عام موحد يجرى على كل حادث خارق للعادة ، وتصديق المعجزات لغرابتها يتطلب من الشواهد أكثر مما يتطلبه الحادث العادى ، فوضع قاعدة عامة هى « لا تكفى البينة لإثبات المعجزة ، إلا متى كانت بحيث يكون كذبها معجزة أكبر من الحقيقة التى تحاول إثباتها » ، ولكن الملحوظ أن ليس ثمة بينة يمكن اعتبار بطلانها معجزة ، وليس فى وسعنا أن نجد بين صفحات التاريخ معجزة واحدة أثبت صدقها عدد كبير من الناس امتازوا بدقة الإدراك الذى يرتفع فوق كل شك ، وتربية قويمة وعلم يقيهم احتمال الغفلة ، ونزاهة ترفعهم عن سوء الظن وتنأى بهم عن تضليل الناس ، وسمعة طيبة تخيفهم من سقوط اسمهم إن عرف عنهم زور أو بهتان ، يدرسون هذه الحقائق ويفحصونها على ملأ من الناس حتى تكون شهادتهم بصدق المعجزة صحيحة لا يأتيها الباطل فى حكم أو رأى .

حملة جيبون على المسيحية :

كانت فلسفة هيوم الشكية أقل تأثيراً فى الرأى العام من كتاب « جيبون » Gibbon « اضمحلال الأمبراطورية الرومانية وسقوطها » ، وربما كان — من بين المؤلفات الكثيرة التى نشرها أحرار الفكر فى انجلترا إبان القرن الثانى عشر — الكتاب الوحيد الذى أصاب بين القراء رواجا واسع المدى ، وقد عالج فى الفصلين الخامس عشر والثامن عشر منه « أسباب قيام المسيحية ونجاحها » باعتبارها مجرد ظاهرة تاريخية ، وكان على « جيبون » أن يسلك مسلك معاصريه فى التظاهر باحترام العقيدة الدينية حتى يفلت من اضطهاد رجالها ، وقد أثنى على هذه العقيدة ثناء ملؤه السخرية ، فصرح بأن انتصار المسيحية مرده إلى ما تضمنته من قوة التدليل والإحكام فى تدبير مبدعها العظيم ، ثم استطرد إلى تتبع تاريخ هذه العقيدة إلى أيام قسطنطين بطريقة توحى إليك أنك أمام حركة بشرية محضة قد تجردت عن كل أثر لتدخل العناية الإلهية !

ويعرض « جيبون » إلى المعجزات من وجهة النظر التاريخية وهو يدين بالكثير فى هذا الصدد إلى مدلتون ، فيقول إن المؤمنين جميعاً يؤمنون بخوارق العادات ويعتقد كل عاقل أنها لا تقع فى هذه الأيام وقد شهدت العصور الغابرة بوقوعها فمتى توقفت هذه المعجزات . . ؟ كيف التبس الأمر على آخر جيل شهد آخر معجزة فلم يستطع أن يميز بينها وبين الدجل ؟ فى الحق إن ما عرف عن المؤمنين السابقين من سذاجة أو سلامة نية خير معوان لقضية الدين .

ولكتاب « جيبون » قيمة باعتباره أكبر سجل لتاريخ العصر الوسيط ، ولا يملك قارئه بالغاً ما بلغ تدينه أن ينجو من سمومه !

دفاع باليه عن المسيحية :

كان تطابق الدين المنزل وتلاؤمه مع الدين الطبيعي مثار الجدل الديني في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وقد استنفد الطبيعيون حملاتهم في هذا الصدد في منتصف هذا القرن ، وخيل إلى رجال اللاهوت أنهم قد انتصروا بإقناع خصومهم ، ولكن صمت الطبيعيين لا يكفي حجة تنهض على أن الدين المنزل حق لا ريب فيه ، إذ كان من الضروري أن يدللوا على أنه صحيح يقوم على أسس تاريخية مكينة ، وهذه هي المسألة التي أثارها نقد هيوم ومدلتون للمعجزات ، وكان أبرع جواب هو الذي قدمه « باليه » paley في « أدلة المسيحية » ١٧٩٤ ، وهو — من بين ما كتب في هذا العصر — الدفاع الوحيد الذي لا يزال مقروءاً وإن فقد اليوم قيمته .

وتصور لنا كتابات « باليه » اللاهوتية ، كيف تتلون الآراء الدينية عن غير وعي بروح العصر الذي تقال فيه ، فهو يحاول في كتابه « اللاهوت الطبيعي » أن يثبت وجود الله مستندا إلى فكرة الدليل الغائي الذي أسلفنا الإشارة إليه دون اكتراث بنقد هيوم لهذا الدليل ، فيقول إن وجود الله يستنبط من مشاهد الطبيعة كما يستنبط وجود صانع الساعات من الساعة التي صنعها ، ويصور الله في صورة صانع ذكي يكيّف مادة عنيدة غير طيّعة . وقد لاحظ « لسلي ستفن » L. Stephen أن إله « باليه » قد تمدين بتمدين الإنسان وبدا في صورة عالم لوذعي . . إنه أعظم من « وات » و « برستلي » في المخترعات الميكانيكية والكيميائية . . ! فهو إله خليق بعصر يعيش فيه مثل هؤلاء الأعلام . . !

ومتى استقام أمر الإله على هذا النحو هان خطب « المعجزات » وقد اهتم « باليه » بالمعجزات وجعلها محور للدفاع عن المسيحية ، وكانت حجته في صدقها أن الحواريين قد رأوها بعيونهم وآمنوا بصدقها ، ومن أجل هذا جاهدوا واحتملوا العذاب من أجل دينهم الجديد — إن دفاع « باليه » —

فيما يقول بيورى — ليؤهله لأن يكون « مستشاراً قانونياً » بارعاً للإله القادر على كل شيء . . . !

مقاومة حملات « بين » على المسيحية :

أشرنا فى الفصل الخامس عند الحديث على موقف العقل الجديد من المسيحية فى عصر النهضة[1] إلى أن المذهب الإنسانى الذى نبت فى ذلك العصر قد أعلى من كرامة العقل وكفل استقلاله عن السلطة الكنسية ، مع الإبقاء على طقوس العقيدة الدينية ؛ ولكن أتباع هذا المذهب قد قاوموا طغيان السلطة وحاربوا الجمود ، وحطموا القيود التى كبلت حرية الأدب والفن واللاهوت ، وما من شك فى أن المضى فى هذا التيار حتى نهايته يُفضى لا محالة إلى القضاء على الدين نفسه ، وهذا نفسه هو ما وقع فعلا ، إذ نبتت فى أوربا وأمريكا حركة التنوير التى أعلت من شأن العقل وردت إليه وحده القدرة على حل جميع المشكلات ، إذ كان العقل منذ عصر النهضة ومطلع العصر الحديث قد وفق إلى ارتياد الكثير من مجاهل الطبيعة وكشف الكثير من أسرارها ؛ وظهر من دعاة التنوير من استهواه العلم واستبد بهواه العقل فطالب بتحرير الإنسان من كل قيد يعوق حريته الفكرية والدينية والاستغناء عن الكنيسة اكتفاء بمنطق العقل ! وكان فى طليعة أعلام التنوير « توماس بين » Th' paine الذى طمس اسمه شهرة أسلافه وقام بدور له خطره فى تاريخ الدفاع عن حرية التفكير ومحاربة الاستبداد فكابد من أجل هذا عنتا شديدا .

راقه العلم الذى أخذ يكشف أسرار الطبيعة بدراسة ظواهرها وتفسير اطرادها ، لمعرفة عللها وأسبابها ، استمسك بهذه النزعة العلمية فأفضت به إلى رفض المعجزات وخوارق العادات لأنها لاتجرى على النهج الذى يرتضيه العلم ويسيغه منطق العقل .

وقد أدان القضاء الإنجليزى « بين » وأهدر دمه من أجل كتابه « حقوق

---

(١) ص ١٤٢ من هذا الكتاب .

الأنسان » وهو الذى حارب فيه الاستبداد السياسى ، ولكن هذا قد عاد فنشر كتابه « عصر العقل » The Age of Reason (١٧٩٤ — ٩٦) كان قد شرع فى وضعه وهو فى سجن باريس الذى ألقاه فيه روبسبير — وميزة هذا الكتاب أنه أول كتاب قيّم ينشر بالإنجليزية فى مهاجمة عقيدة الخلاص و تفنيد الكتاب المقدس فى أسلوب واضح لا يلجأ فيه صاحبه إلى التخفى والتستر ولا يلوذ بالحيطة والحذر ، ثم هو قد كتب بلغة سلسة تُيسّر انتشاره بين الجماهير ، ثم يمتاز مع هذا بأن صاحبه ينفرد دون نقاد الإنجليز الذين التزموا منهج الطبيعيين الأول بأن أوضح التناقض الملحوظ بين الإنجيل وعلم الفلك فى تصور الكون ، فقال : إن المسيحية لم تنص صراحة على أن دنيانا هى وحدها العالم المعمور ، ولكنها أشارت تلميحاً إلى ذلك فى قصة العهد القديم ! وقصة حواء والتفاحة وما يقابلها من موت ابن الله ، ولو قلنا إن الله قد خلق كثرة من العوالم لا تقل عما نسميه نجوما ، لأصبحت المعتقدات المسيحية ضئيلة ومثيرة للضحك ! إن الفكرة المسيحية والفكرة الفلكية فى هذا الصدد لا يمكن أن تقوما فى عقل واحد ، ومن ظن أنه يعتقد فى كليهما معاً دلّ بهذا على أنه يجهلهما معا !

ويعرض «بين» — وهو الطبيعى المتحمس — للطبيعة ومشاهدها ، ويقرر أنها وحى الله ومظهر قدرته ، ويشير إلى قصص وردت بشأنها فى « العهد القديم » ثم يقول : إننا حين نمعن النظر فى جلال هذا الكائن الذى يدبر ويحكم هذا « الكل » الذى تقصر العقول عن إدراكه ، ولا يستطيع أنفذ نظر إنسانى أن يحيط بغير طرف ضئيل منه : عندما نتأمل ذلك يساورنا الخجل من تسمية هذه القصص التافهة «كلمة الله ! » .

وقد نهض للرد على هذا الكتاب الكاهن « وطسون » Watson وهو أحد الممتازين من أساقفة القرن الثامن عشر الذين سلموا بحق الفرد فى الحكم على الأشياء كما تبدو له وطالبوا بمقارعة الحجة بالحجة ، وأنكروا مقابلة الرأى بالقوة ، وجعل عنوان كتابه « اعتذار عن الإنجيل ! » وقد قال الملك جورج

الثالث إنه لم يكن يدرى قبل هذا الكتاب أن الإنجيل فى حاجة إلى من يعتذر عنه ! وكان دفاع هذا الكتاب عن الإنجيل دفاعا متهافتا ، وفيه إذعان وتسليم بالكثير من وجوه النقد التى وجهها إلى الإنجيل « بين » ، وبهذا حطم عصمة الإنجيل . . . !

وقد ذاع كتاب « بين » ذيوعا رحب المدى ، فتولت « جماعة قمع الرذيلة » إقامة الدعوى على ناشر الكتاب وكان الإلحاد شائعا بين الطبقة الحاكمة ، ولكن هذا لم يمنع من اعتبار الدين ضروريا لعامة الناس ، والميل إلى قمع كل حركة ترمى إلى بث الكفر بين الطبقات الدنيا ، إن الدين أداة ناجحة فى حفظ الأمن بين الدهماء . ولعلنا لاحظنا مما أسلفناه عن العقليين الأول — مع استثناء قضية ولستون Woolston — أن الوحيد الذى عوقب من بينهم هو « بطرس أنيت » Peter Annet وهو مدرس حاول أن يشيع الفكر الحر بين الناس ، فحوكم بتهمة العمل على ترويج آراء شيطانية ، وحكم عليه بالأشغال الشاقة مع ربطه فى وتد التشهير (عام ١٨٦٣) — وهى آلة كان يدخل فيها المجرم رأسه ويديه للتشهير به ! وكان من رأى « بين » أن من حق جمهرة الشعب أن تكون على علم بالأفكار الجديدة ، وفى ضوء هذا الرأى كتب فى أسلوب يمكن الجماهير من معرفة آرائه ومن ثم وجب أن يصادر كتابه ! وعند ما تقدم للمحاكمة عام ١٧٩٧ م أقام القاضى العراقيل فى وجه الدفاع ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ثم أصدر حكمه بسجن الناشر عاما !

ولم تكن هذه آخر محاكمات « بين » إذ نشر فى عام ١٨١١ الجزء الثالث من « عصر العقل » فأدين الناشر « إيتون » وصدر حكم بحبسه ثمانية عشر شهرا ، وبربطه فى المشهر مرة فى كل شهر ، وجاء فى حيثيات الحكم « أن إنكار حقائق الكتاب المقدس ، وهو أساس عقيدتنا ، لم يكن فى يوم من الأيام مباحا لأحد من الناس ، فوجه الشاعر « شيلى » خطابا لاذعا إلى القاضى الذى قرر ذلك ، جاء فيه :

« أتظن أنك تهدى المستر إيتون إلى دينك بتنغيص حياته وتكدير عيشه ؟

قد يكون فى وسعك أن تضطره بوسائل القهر والتعذيب إلى التظاهر باعتناق معتقداتك ، ولكنه لا يملك الإيمان بها إيمانا صادقا إلا إذا حاولت أنت أن تجعلها ممكنة التصديق ، وهذا شىء ربما كان فوق طاقتك ! وهل تظن أنك ترضى الله بهذه الغيرة التى تبديها على هذا النحو ؟ إن صح هذا كان إبليس الذى تقدم له بعض الشعوب قرابين بشرية أقل همجية من إله هذا المجتمع المتمدين . . ! .

وفى عام ١٨١٩ أعاد ريشارد كارليزل R. Carlisle نشر كتاب « عصر العقل » فقدم للمحاكمة وصدر حكم يقضى بأن يدفع غرامة باهظة ويحبس ثلاثة أعوام ، ولما عجز عن دفع الغرامة بقى فى سجنه ثلاثة أخر ! وكانت زوجه وأخته قد واصلتا بيع الكتاب فصدر حكم يلزمهما بدفع غرامة ، وألقى بهما مع عدد كبير من باعة الكتب فى المكتبات إلى السجن .

كابد الناشرون العذاب فى انجلترا ، أما « بين » مؤلف الكتاب فقد كان فى « أمريكا » يعانى اضطهاد بعض المتعصبين الذين جاهدوا لتنغيصه بقية حياته مع أنه لم يحارب المسيحية فى ذاتها . وإنما حارب المسيحية التى شوهها رجال الكنيسة وأدخلوا فيها الخرافة . فطالب بتطهيرها وردها إلى منطق العقل ، وفى ذلك يقول : « إن عقلى هو كنيستى » فتكفل هذا بإثارة الكنيسة واتهامه بالمروق وعانى من ذلك عنتا شديدا[1] .

---

(١) كان أكبر اعتمادنا فى تصوير هذا النزاع على كتاب بيورى السالف الذكر ، ومن المفيد الاطلاع على كتاب روبرتسون السالف فى الفصل السادس عشر من الجزء الثانى وكذلك :

Stephen, Leslie. Hist. of English Thought in the Eighteenth Century. vol 1' 1881.

S. Maréchal, Dictionnaire des Athées الطبعة الثالثة عام ١٨٨٥

J. M. Wheeler, Biographical Dictionary of Freethinkers مع إيجازها

E. Sayons, Les Déistes Anglais el les Christianisme (1882)

H. H. Clark : Thomas Paine توفيق الطويل : أسس الفلسفة

كلمة أخيرة :

هذه خلاصة موجزة لأمر النزاع بين العقل والإيمان إبان ذلك العهد في انجلترا البروتستانتية ، ومن وازن بينه وبين النزاع في العالم الكاثوليكي أدرك أنه كان في الأولى — في الأغلب والأعم — مقارعة حجة بحجة ، وحتى رجال اللاهوت لجأوا إلى العقل واعتصموا بشريعته ، وكاد الاضطهاد الذي أوقعه بأحرار الفكر ذوو النفوذ منهم أن يقتصر على مصادرة كتاب وسجن مؤلفه أو ناشره وإلزامه بدفع غرامة ... إلى آخر ما عرفناه عند عرض هذا النزاع ، أما في العالم الكاثوليكي حيث استحوذت الكنيسة الكاثوليكية على نفوذ مدني إلى جانب نفوذها الديني ، فقد عرف تاريخ النزاع محاكم التفتيش وهي تطارد أحرار الفكر وتسلط عليهم عذابها ، وتتولى تشريدهم والتنكيل بهم إحراقاً وإعداماً ، وتبسط سلطانها على قلوب الناس فتسجل مؤلفات هؤلاء الأحرار في سجل الكتب التي حرمت على المؤمنين قراءتها !! ولكن الحق يقتضينا أن نقول إن السلطة الزمنية كانت تعوز أتباع البروتستانتية في الوقت الذي تهيأت فيه للسلطات الكاثوليكية ، ومن هنا كان نزوع البروتستانت إلى الالتجاء للعقل والاعتصام بمنطقه ، وقد عرفنا في غير هذا المكان كيف استيقظت النزعات الشريرة عند رواد الإصلاح الديني من البروتستانت ، حين تيسر لهم التنكيل بخصومهم ، وفرض عقيدتهم على الناس غصباً واقتداراً .

الفصل الثامن

النزاع بين اللاهوت والعلم

فى القرن الماضى

النزاع بين الفلسفة واللاهوت فى القرنين الماضى والحاضر — قيام النزاع بين العلم والدين فى العصر الحديث — عدة القرن (١٩) فى نزاعه — انتصار العلم على اللاهوت فى خلق الكون — العلم الحديث يهدم الرواية الدينية فى نشأة الخلق — ثبات الأنواع وحملات العلم الحديث لتقويضه — نظرية التطور عند والاس وداروين — الحملات على داروين فى شتى بقاع العالم المسيحى انتصار النظرية الجديدة حتى فى المعسكرات الدينية — موقف العالم المسيحى من داروين بعد مماته — تأييد رجال اللاهوت لحرية التفكير — نزع السلطات الدينية ومظاهره — الاضطهاد عند الكاثوليك والبروتستانت — تعقيب .

النزاع بين الفلسفة واللاهوت فى القرنين الماضى والحاضر :

تتمثل الفلسفة إبان القرنين الماضى والحاضر فى معسكرين يقوم بينهما خلاف ملحوظ ، هما معسكر الفلاسفة الروحيين ومعسكر الفلاسفة الماديين ، بدت فلسفة أولهما فى الجملة على وفاق مع الدين وتقارب — فى أغلب الأمر — مع اللاهوت واتفاق مع تعاليمه ، أما فلسفة الحسيين والماديين فقد خاصمت الدين وعادت اللاهوت وحقرت من رجاله ، فلنقف قليلا لبيان ذلك موجزا — لأننا سنعود إلى الموضوع فى الفصل التالى :

عرف القرن التاسع عشر منذ بدايته كثيرين من الفلاسفة يتشيعون للدين ويذودون عن تعاليمه ، ومن هؤلاء من كانوا من أعضاء الجمعية الملكية فى لندن ، وبين هؤلاء جميعا من كان على وفاق مع رجال الكهنوت فى ذلك الوقت ، واستمر هذا الوفاق قائما منذ مطلع القرن الماضى حتى وقتنا الحاضر ، إذ عرف القرن العشرون فلاسفة بدأوا حياتهم فى حظيرة الكهنوت وظلوا على ولاء للدين وتعاليمه ، وقد وجدت — فى بريطانيا خاصة — مؤسسات خيرية تشجع البحث الفلسفى الذى يتمشى مع حقائق الوحى وتعاليم الدين ، وكانت المثالية الألمانية التى عرفت فى القرن الماضى قد باعدت بين الفلسفة والواقع وصرفتها

عن المادة وحصرت هما فى عالم المعقول ، وهاجرت هذه المثالية إلى البلاد الأخرى ووجدت بينها أنصارا ودعاة لمبادئها ، ونفرت هذه الفلسفة من اتجاهات الحسيين الماديين الذين يتعذر قيام وفاق بينهم وبين رجال الدين .

وإلى جانب هذا الاتجاه فى الفلسفة وجدت فى القرنين الماضى والحاضر اتجاهات فلسفية خاصمت الدين واستخفت باللاهوت وحطت من شأن رجاله ، كان أظهرها فى فرنسا مذهب الوضعية Positivism وفى انجلترا مذهب الحسيين أو التجريبيين Sensualism & Empericism وفى أمريكا الفلسفة العملية Pragmatism وفى النمسا — وانجلترا وأمريكا — اتجاه الوضعية المنطقية Logical postivism وكلها مذاهب حسية مادية تنكر ما وراء العالم المحسوس وتستخف بالأديان وتهاجم اللاهوت ورجاله أو تسقطهم من حسابها . وإذا كانت الفلسفة العملية قد سلمت بالأديان فإن مبررات التسليم بها لا ترضى أحدا من رجال الأديان . . . . حسبنا هذه الأشارات الموجزة فسنعود إلى هذا الموضوع فى الفصل التالى تحت عنوان : العلاقة بين الدين والفلسفة فى القرنين الماضى والحاضر .

قيام النزاع بين العلم والدين فى العصر الحديث :

كان العلم (الطبيعى) مذابا فى الفلسفة منذ أقدم الأزمان حتى مطلع العصور الحديثة ، فلما وضعت أسس مناهج البحث التجريبى فى القرن السابع عشر تطلعت الدراسات التى تستطيع اصطناع هذه المناهج الاستقرائية الى الاستقلال عن الفلسفة علوما لها موضوعاتها المستقلة عن موضوعات البحث الفلسفى ، ومناهجها التجريبية التى تختلف عن المناهج العقلية والحدسية التى تصطنعها ، وبدت بوادر الاستقلال إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر ، واستقام استقلال العلم عن الفلسفة فى القرن التاسع عشر[١] ولهذا آثرنا أن نقف قليلا عند قيام النزاع بين العلم والدين فى القرنين الماضى والحاضر :

---

(١) أنظر فى تفصيل هذا الفصل الثانى من الباب الأول فى كتابنا أسس الفلسفة .

تملك الغرور العلم منذ بداية استقلاله ، فاعتز بمناهجه التجريبية ونزعته الحسية المادية حتى استخف بالدراسات الفلسفية التى تتجاوز عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، وتتخطى دنيا الحس إلى دنيا الروح ، وكان طبيعيا أن يستهين الكثيرون من رجاله بالدين ويهزءون باللاهوت ويضنون باحترام رجاله ، وكان يزعم إبان ذلك أن مناهجه ستتكفل بتيسير أسباب الحياة وتحقيق السعادة للبشرية ، ثم تبين — وتبين الناس معه — أن نظرياته كثيرا ما تستغل فى تدمير الحضارة وإشقاء الناس — وإن جاء هذا على كره من العلم ومناهجه — والحروب بما تعج به من آلات التخريب وأدوات التدمير شاهدة على ما نقول ؛ أثار هذا ثائرة بعض المفكرين على العلم ونزعاته المادية الحسية ، وبدأوا ينصرفون عن عالم المادة إلى عالم الروح ، وفى غمرة هذا التطور وضح النزاع بين العلم واللاهوت . فالعلم يدرس الأشياء المحسوسة بمناهج الملاحظة والتجربة ، فإن تجاوز نطاق المحسوسات خرج عن نطاق العلم ، وإن أغفل مناهج الاستقراء (الذى يقوم على الملاحظة والتجربة) واصطنع المناهج العقلية أو الحدسية دخل فى نطاق الفلسفة واستبعد من مجال العلم ؛ أما الدين فإنه غيبى وموضوعاته تقوم وراء عالم الحس ، وحقائقه تجىء عن طريق الوحى الالهى ، لا عن طريق التجربة (التى تصدر عنها حقائق العلم) ولا عن طريق التأمل العقلى أو الحدس الباطنى intuition اللذين تصدر عنهما حقائق الفلسفة من هنا يبدو الخلاف بين موضوع العلم ومناهجه من ناحية ، وموضوع الدين ومصدر حقائقه من ناحية أخرى ، ولكن هذا الخلاف لا يوجب بطبيعته قيام نزاع بين العلماء ورجال الدين ، إذ أن مناهج البحث العلمى توجب على صاحبها أن يخلص لها فى دراساته حتى تنتهى به إلى نتائجها دون نظر إلى حقائق الوحى ، بمعنى أن هذه المناهج لا تبيح للعالم أن يهاجم حقائق الدين ولا أن يؤيدها . . ! كما سنعرف فى الفصل التالى عند الحديث على هذا الموضوع ، والدين من ناحية يكفل حرية الباحث على النحو الذى أسلفناه فى فصولنا السالفة ، وما سنشير اليه فى الفصل التالى .

ويتحدث « إميل بوترو » E. Boutroux فى كتابه عن « العلم والدين » : عن

النزاع بين الدين والعلم، خلال مراحل التاريخ مع تصالحهما مرة بعد مرة ثم يقول: « لم يبرح العلم والدين قائمين على قدم الكفاح ، ولم ينقطع بينهما صراع يريد به كل منهما أن يدمر صاحبه ، لا أن يغلبه فحسب ، على أن هذين النظامين لا يزالان قائمين ، ولم يكن مجدياً أن تحاول العقائد الدينية تسخير العلم فقد تحرر العلم من هذا الرق ، وكأنما انعكست الآية منذ ذاك ، وأخذ العلم ينذر بفناء الأديان . » ولكنه يقول بعد هذا مفسراً هذا النزاع فى وقتنا الحاضر : « ليس التصادم الآن فيما يظهر بين الدين والعلم باعتبارهما مذهبين ، بل التصادم أدنى أن يكون بين الروح العلمى والروح الدينى ، فليس يعنى العالم أن يكون ما جاء فى الدين من عقائد متفقا مع نتائج العلم ، لأن الأساس الذى يعتمد عليه الدين فيما يجىء به يختلف عن الأساس الذى يعتمد عليه العلم ، فالدين يقدم مسائله على أنها عقائد يجب أن يتقيد بها العقل والوجدان ، ويعرضها فى صورة تدل على اتصال الإنسان بنوع من الأشياء يعجز علمنا الطبيعى عن إدراكه ، وفى ذلك مما يحمل العالم — إن لم يرفض هذه المسائل نفسها — يرفض الأسلوب الذى يسلكه المتدين فى الأخذ بها ، والمتدين من ناحيته إذا وجد جميع عقائده وعواطفه وأحكامه العملية مفسرة بل مثبتة بالعلم ، يكون حينئذ أبعد شىء عن سامة العلم ، فإن هذه الشئون إذا شرحت على هذا الوجه فقدت كل خواصها الدينية[1] » .

وهذا صحيح ، والخلاف واضح بين منهج البحث العلمى ومسلك الوحى الدينى ، ولكن التوتر — على هذا الخلاف — قد تلاشى أو تضاءل كثيراً — فى القرن العشرين بين العلماء ورجال الدين ، لأن العلم قد انتقل فجأة — على يد الكثيرين من رجاله — من المادية المتطرفة إلى الروحية المسرفة ، واصطبغت آراء أهله بروح صوفية دينية كرجع لضيق العلماء بغلبة الروح المادية على رواد

---

(١) النص منقول عن كتاب Science et Religion طبعة فلاماريون ص ٤٣١ ، والترجمة لأستاذنا المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتابه « الدين والوحى والإسلام » ص ٧ — ٨ .

العلم فى القرن الغابر — وقد أدت هذا الروح إلى التقارب بين نزعات الفلاسفة ورجال اللاهوت معاً .

إذا كانت الفلسفة قد لانت من ناحية اللاهوت فى القرن الغابر ، بل انتصر الفلاسفة — أو الكثير منهم للدين وأيدوا تعاليم الكنيسة ، فلا سبيل إلى تأريخ نزاع كان قائماً بينهما ، وما دام ميدان العداء قد تحول إلى مجال العلم ، فمن الخير أن نختم هذا البحث بتأريخ هذا النزاع وهو قائم بين اللاهوت والعلم ، وحسبنا من هذا التأريخ لمحة خاطفة نصور فيها أبرز معالم هذا النزاع وأسطع آثاره ، كما تبدو فى أظهر الحالات التى شهدها القرن الغابر — ومن الطبيعى أن يتوقف تأريخنا للنزاع بعد ذلك ، لأن القرن العشرين حين أقبل كان التوتر اللاهوت والفلسفة قد خف كثيراً .

عدة القرن فى نزاعه :

ازداد إيمان الناس بشريعة العقل فى القرن الغابر ، فظهرت — فى ألمانيا بوجه خاص — موجة من النقد العقلى التاريخى اجتاحت الرواية الدينية لكثير من الحقائق ، وأتت على الكثير من ترهات رجال الدين ، حتى جنحت بعضهم إلى محاولة التوفيق بين التعاليم الدينية والآراء العلمية ، وبتأويل النصوص المقدسة وجعلها متمشية مع منطق الآراء العلمية الحديثة[1] ! ونضج العلم فى هذا القرن ، وكان لهذا أثره البين فى إثارة الشك فى عصمة الكتاب المقدس ، فازدهر البحث الجيولوجى وتقدم الفلك بالتصوير الشمسى ، وظهرت مكتشفات علمية فى مجال الطبيعة والرياضية وغيرها ، واهتدى العلماء إلى كثير من المخترعات ، وكان التقدم فى ميدان البحث البيولوجى أكبر الأخطار التى

---

(١) اقرأ تفصيل هذا النقد التاريخى للكتاب المقدس فى الفصل السابع من كتاب J B. Bury السالف الذكر ، وفى القسم الثانى من الفصل الحادى والعشرين من كتاب Robertson السالف كذلك ، واقرأ أيضا Encyclopedia Biblica فى مقالات مفرقة فى أجزائها الأربعة ثم A. Duff فى وكتابه Hist. of Old Testamenf Criticism (1910) واقرأ كذلك F.C. Conybeare فى كتابه Hist. of New Testament Criticism(1610

تهدد لاهوت ذلك القرن الذى سمى بحق عصر النشوء والارتقاء ، فلنعرض للحديث عن بعض مظاهر النزاع فى هذا الميدان ، كنموذج للعداء بين العلم واللاهوت فى هذه المرحلة من الزمان[١] ، وسيضطرنا تصوير هذا النزاع إلى الاستطراد منحدرين إلى عصور طويلة سبقت هذا القرن ، ليكون تصوير الجو العقلى أتم وأكمل .

انتصار العلم على اللاهوت فى « خلق الكون » :

انعقد الرأى عند رجال اللاهوت المسيحى — من الكاثوليك إلى البروتستانت — على أن الله قد خلق من العدم كل شىء ، أما زمان الخلق فقد وردت بصدده روايتان فى « سفر التكوين » تقرر أولاهما أن الله قد أنجز خلق الكون فى ستة أيام كل منها نهار وليل ! وقد ورد فيها تفصيل ما تم من الخلق كل يوم ! أما الرواية الثانية فتذكر « اليوم » الذى خلق فيه الله الأرض والسموات ، وذهب البعض إلى أن الخلق قد تم فى لحظة واحدة ، فقد ورد فى سفر التكوين « تكلم فخلقت العوالم » . وحاول البعض أن يوفق بين هاتين النظريتين فقال إن العالم قد خلق فى ستة أيام ولكنه تبدى للوجود فجأة ! وشاع هذا الرأى طوال العصور الوسطى ؛ وانتهى البحث فى تحديد تاريخ الخلق إلى القول بأنه وقع حوالى سنة ٤٠٠٠ ق . م ، بل أدت أبحاث جون ليتفوت J. Lightfoot وكيل جامعة كمبردج (فى القرن السابع عشر) إلى أن الخلق قد وقع بقدرة الثالوث الأقدس فى التاسعة من صباح اليوم الثالث والعشرين من أشهر أكتوبر عام ٤٠٠٤ ق . م !![٢]

---

(١) كان من أهم مصادرنا فى تاريخ النزاع بصدد نظرية (التطور على A. D. White فى الباب الأول بفصوله الأربعة من كتابه السالف الذكر واقرأ كذلك: A. W. Benn, The Hist. of English Rationalism in the 19th Century 2 Vols 1902

(٢) من الطريف أن هذا الزعم لم يمض عليه قرنان حتى اهتدى الباحثون إلى أن العالم كان قد عرف فى ذلك التاريخ الذى حددوه لخلق العالم نهضة ناضجة على ضفاف النيل ومدنيات أخرى فى أرض آسيا ، ولم يكن هذا التاريخ بدء لخلق فجائى كما توهم الواهمون . وإذا كان علم طبقات الأرض قد قضى على هذا الزعم فقد بقى القول بوجود آدم وحواء قبل التاريخ ، وهذا ما تصدى للقضاء عليه علم الحيوان كما سنعرف بعد .

والواقع — فيما يقول بيورى — أن الاعتماد على تواريخ الكتاب المقدس، لا يرجع بخلق الإنسان إلى أبعد من ذلك!

وإلى مثل هذا نزعت المباحث اللاهوتية فى تصوير مادة الخلق وتحديد الخالق ونحوه، وهى أفكار اصطبغت باللون المسيحى ولكنها تحدرت عن بعض الأمم الشرقية القديمة. وإلى جانبها سار رأى — لعله شرقى قديم — عرف عند بعض مفكرى اليونان والرومان، وهو يؤيد الأسلوب النشوئى فى خلق الكون ويرفض القول بالطفرة، ويرد الكون إلى الأثر التدرجى لفعل النواميس الطبيعية، وقد استقام أمر هذا الرأى فى العصور الوسطى رغم ضيق الكنيسة به، حتى قوّض التصورَ اللاهوتى للكون أساطين العلم الحديث من كوبرنيكوس وكبلر وجاليليو ونيوتن، ممن مهدوا لظهور نظرية التطور الحديثة، وأحست الكنيسة بحيدة المحدثين عن التصور اللاهوتى فتأهبت لنزالهم، واتهمت بالهرطقة كل من أيد الرأى السديمى الذى استشهد فى سبيل التمهيد له «برونو» من قبل.

ثم كشف المحدثون من علماء الفلك — من أمثال «هرشل» — كثيراً من البقع السديمية ودللوا على أن النظرية السديمية تعلل جانباً كبيراً من حقائق الكون. وترقى تركيب «المرقب» فأثبت أن البقع السديمية نجيمات متقاربة الأبعاد، وزاد هذا الرأى المكتشفات الأخرى تأييداً؛ وفى منتصف القرن الغابر، أجرى Plateau تجربة لإثبات الرأى السديمى بدوران كرة مائعة، اعترف بعدها المستر جلادستون — وهو من أقوى المدافعين عن المذهب الدينى — بأن من المحتمل أن يكون وجه من وجوه الرأى السديمى صحيحاً.!

وإذا اشتد ضغط العلم برجال اللاهوت وأنقضت أدلته وبيناته ظهورهم، لجأوا إلى الاستسلام اللبق بمحاولة التوفيق بين الدين والعلم، وأذاعوا أن العلم إنما ينصر مذاهب اللاهوت ويوطد قضاياها! ولطالما ظهر هذا الاتجاه كلما اشتدت أزمة اللاهوت وبدا انتصار العلم رائعاً، وقد وضح هذا فى فكرة الخلق إبان القرن التاسع عشر. فنهض بعبء هذا التوفيق عالم من أشهر علماء

الكيمياء فى نيويورك ، إذ ألقى محاضرة فى هذا الصدد تحت رعاية كنيسة من أحدث الكنائس فى هذا الوقت ، وقد أذاعوا فى الصحف وعلى جدران البيوت فى الطرق العامة عن هذه المحاضرة التى ترمى إلى البرهنة على تأييد العلم لنظرية الخلق الموسوية كما بدت فى الكتب المقدسة ! وقام المحاضر أمام جميع حاشد من المستمعين بإجراء تجارب أدخل فيها الأوكسيجين والأيدروجين وحامض الكربونيك على طريقة بلاثو ! وكانت التجارب من المهارة بحيث كانت عند نهايتها تثير صياح المستمعين وهتافهم وتحرك بالتصفيق أكفهم ؛ ثم نهض احد أثرياء المدينة ورفع شكر جموع المستمعين إلى هذا العالم الممتاز على هذا التدليل الكامل على صحة التطابق التام فى الجمل والتفاصيل بين تعاليم الكتاب المقدس وأحدث نظريات العلم . . ! وانصرف هذا الحشد من المستمعين شاكراً جهود المحاضر ونشاط الكنيسة فى تدعيم الدين وخدمة تعاليمه . . !

وانتهى العلماء آخر الأمر إلى إقرار فكرة النشوء والقول بأن الرأى الدينى ليس إلا تحريفاً لرأى قد شاع فى العصور الأولى عند قدماء الشرقيين ، وأذعن بالتسليم بهذا بعض رجال الدين من أمثال أستاذ العبرانيات ورئيس «كنيسة كريست» فى أكسفورد ، الموقر الدكتور دريفر Rev. Dr Driver وأستاذ الإلهيات فى جامعة كمبردج الموقر الدكتور رايل Rev. Dr. Ryle حتى تساءل رئيس أساقفة كنتربرى بهذه المناسبة قائلا : ألا يجوز أن يكون الروح القدس قد استخدم فى بعض الأحايين الخرافات والأساطير . . !!

العلم الحديث يهدم الرواية الدينية فى نشأة الخلق :

جرى رجال اللاهوت على التمسك بحرفية النص فى مسألة الخلق كما ورد فى الكتاب المقدس بنفس الروح التى حاربوا بها مكتشفات العلم الحديث ، وقد ورد فى « سفر التكوين » أن الله قد خلق الإنسان على صورته ، وجمهرة رجال اللاهوت على اتفاق فى أن الحيوانات قد خلقت منذ البدء وطبعت على صورتها ولم يطرأ عليها تغير أو تطور ، فلما اهتدي علماء الحيوان إلى أنواع

جديدة منه اضطر رجال اللاهوت إلى التدرج معهم ، فكبروا سفينة نوح تكبيراً يتناسب طردياً مع المكتشف من هذه الأنواع ليتحاموا القول بأنها نشأت بعد الطوفان . . . !

وقد ادى الكشف الجغرافى إلى معرفة عشرات الأنواع من الحيوانات وأفضى إلى الدهشة من توزيع هذه الأنواع على بقاع الأرض ، فاضطر رجال اللاهوت إلى التفكير فى الطريقة التى تم بها هذا التوزيع بعد أن كانت الأنواع كلها مجتمعة فى سفينة نوح ! فزعم البعض أن الإنسان هو الذى وزعها على هذا النحو بدافع الرغبة فى الانتفاع بها أو بدافع الميل إلى التسلى ! ورأى غيرهم أن هذا التوزيع قد تم بهجرة الحيوانات نفسها ، ولكن خصوم اللاهوت قد عجبوا لهذا الإنسان الذى حمل معه فى سفينة نوح الدببة والآساد والنمور ! ودهشوا للحيوانات الثقيلة كيف هاجرت من أرارات — التى رست فيها سفينة نوح — إلى بقاع قاصية . . ؟ وكيف وصلت إلى أمريكا الحيوانات التى لا تعرف السباحة أو الطيران ؟ وتساءلوا لماذا وجد القنغر فى أستراليا وحدها وكيف بلغ هذه القارة بقفزاته على الجبال والوديان وعبر المحيطات ! ولماذا استقر فيها دون غيرها ؟ وتأيد هذا كله بظهور منهج البحث التجريبى منذ مطالع العصر الحديث وقيام الجمعيات العلمية التى أبت أن تستقى الحقائق من سلطة دينية أو غير دينية ، ونزعت إلى اكتشافها فى ضوء هذا المنهج الجديد ، وتقوضت النظرية اللاهوتية نهائياً فى نهاية القرن الثامن عشر ، ولكن بعض رجال اللاهوت قد أقاموا على الرأى القديم وأنذروا خصومهم بشر مستطير .

ثبات الأنواع وحملات العلم الحديث لتقويضه :

ظهرت فكرة الخلق على النحو الذى أسلفناه عند رجال اللاهوت ، قالوا بثبات الأنواع أى أن أنواع الحيوانات قد لازمت صورها التى نشأت عليها منذ الخلق ، ومنذ أن فارقت سفينة نوح بعد الطوفان ؛ ولكن هذه الفكرة قد سايرتها فكرة قديمة أخرى تقدر أن الكائنات الحية قد نشأت على نحو

وتغاير وتطور مضطرد ، ومرد الفكرتين إلى تراث الشرق القديم الذى انتقل إلى العبرانيين وبدا فى الكتب المقدسة ، وقد قرر « دى ميليه » Benoist De Maillei فى مستهل القرن الثامن عشر تحوّل الأنواع عن طريق التغير الذى يعترى أعضاءها فضاقت الكنيسة برأيه واتهمته بالإلحاد ، فحاول اتقاء شرها بنشر كتابه تحت اسم مستعار ، ولفّ الحديث فى المقدمة والإهداء بحيث يستطيع إذا قدم للمحاكمة أن يدعى أن الكتاب ليس إلا مجرد لهوٍ خيالى[1] .

وفى النصف الثانى من هذا القرن ظهر أبو علم النبات الحديث « لينيوس » Linnaeus ١٧٧٨ + وانتهى فى أواخر حياته إلى معارضة الرأى اللاهوتى فى ثبات الأنواع ، ولكنه خاف غضب خصومه من رجال اللاهوت من الكاثوليك والبروتستانت على السواء ، بيد أنه اعتصم بالشجاعة وجاهر بالنظام التناسلى فى النبات ، فإذا برجال اللاهوت الذين كانوا لا يتورعون عن الثناء على الفجرة من أمثال لويس الخامس عشر ، ويعلمون رجال الكهنوت علاقة الرجل بالمرأة من الناحية الجنسية ، يفزعون لآراء هذا العلامة ، ويحرمون إذاعتها حتى عام ١٧٧٣ فى كل بلد امتد إليه سلطانهم ! حتى اضطر « لينيوس » إزاء حملاتهم إلى الاستكانة والتظاهر بأنه ينتصر لرأيهم القائل بأن الله خلق الأشياء فى البدء ، ومنذ هذا البدء لم تظهر البتة أنواع جديدة ! وبعد هذا ذهب العلامة الفرنسى « بوفون » Buffon إلى القول بنظرية التطور بتغاير الأنواع ، فأثار هذا ضيق رجال السربون فاضطر أن يستجيب للكنيسة ويعلن اعتذاره عما قال علناً ومطبوعاً على الناس . . . وفى هذا يقول : أعلن أنى أتخلى عن كل آرائى التى وردت فى كتابى بصدد تكوين الأرض ، وأقلع

(١) فأعلن أن الكتاب حديث فيلسوف اهتدى ، موجه إلى مبشر مسيحى ، وجعل فيلسوفه الهندى يصرح بأن أيام الخلق فى سفر التكوين قد تكون عصورا طويلة من الزمن ، وكان هذا مما لا يرضى عنه رجال اللاهوت ، ولهذا طبع الكتاب عام ١٧٣٥ ولم ينشر إلا فى عام ١٧٤٨ أى بعد وفاة مؤلفه بثلاثة أعوام !

بوجه عام عن كل ماكان منها منافياً لرواية موسى(٢) وأكره على الإيمان بما ورد فى الكتاب المقدس عن أسباب التكوين . . !

وفى مطلع القرن التاسع عشر ، ظهر « تريفيرانوس » Treviranus فى ألمانيا ، ولامارك Lamarck فى فرنسا ، فأصدر أولهما كتابه « علم الحياة » عام ١٨٠٢ وقرر فيه أن العضويات الراقية قد تطورت بالتدريج عن أخرى بسيطة ، وأن انقراض الأنواع ليس إلا تحوّلا إلى أنواع أخرى ، ثم نشر « لا مارك » كتابيه : « الأبحاث » و « فلسفة الحيوان » أضاف فيهما إلى ذلك الرأى القول بأن الحيوان نفسه يسعى جاداً ليتطور حتى يسد ما يظهر فى بيئته من حاجات جديدة ، وأن الأعضاء تنمو طرديا مع استعمالها ، وأن الصفات المكتسبة تنحدر إلى الأبناء عن آبائهم ؛ وقد انحدرت هذه الآراء إلى أعلام العلم الطبيعى من أمثال سانت هيلير G. Saint - Hilaire

نظرية التطور عند والاس وداروين :

ولبثت المعركة محتدمة بين من أيدوا نظرية النشوء ومن عارضوها ، والكنيسة مطمئنة لنفوذها فى العالم الأوربى حتى أقبل شهر يوليو من عام ١٨٥٨ حين قرئت امام جماعة لينيوس Linnaen Society بلندن مقالتان وضع أولاهما تشارلس داروين Ch. Darwin وكتب الثانية أ . ر . والاس Alfred Russel Wallace وبقراءة هاتين المقالتين نشأت نظرية النشوء بالانتخاب الطبيعى وانبثقت ثغرة فى حصن اللاهوت . .

---

(١) أنظر فيما ورد عن دى ميليه : كتاب Quatrefages وهو Darwin et ses Précurseurs Français وكذلك الفصل السادس من كتاب Perrier وهو La philos. Zoologique avant Darwin ثم المقال الشائق الذى كتبه Huxley فى دائرة المعارف البريطانية عن مادة التطور ؛ أما كتاب دى ميليه فقد كان عنوانه :

Telliamid,ouEntretiensd'unphilosopheindienavecunMisslonnaeirefrauca aur la Diminuitin de la Mer. 174 88 & 56. أما عن مقاومة السلطات اللاهوتيــة كاثوليكية وبروتستانتية — لرأى « لينوس » ، فانظر Alberg Life of Linneaus (لندن ١٨٨٨) ص ١٤٣ — ٤٧ و ٢٧٣ .

لبث داروِن نحو عشرين عاما يدرس فى هدوء ويجمع مشاهداته فى صمت ، يجمع مادته من فضاء الأرض وأعماق البحار وحمم البراكين وقنن الجبال وبطون الغابات ، ويتنقل من الأقطار الاستوائية إلى البقاع المتجمدة ، ويستنطق الطبيعة ويستلهم سرها حتى اهتدى إلى فكرة النشوء بالانتخاب الطبيعى ، لم يبح بسره طوال هذا الزمن المديد لغير الدكتور يوسف هوكر عام ١٨٤٤ ، بعد أربعة عشر عاما من بدء بحثه ، ثم تلقى من ألفرد رصل والاس رسالة أدرك منها أنه قد اهتدى بعد البحث والتنقيب إلى مثل ما اهتدى إليه داروِن بصدد فكرة النشوء بالانتخاب الطبيعى ، ويسجل داروِن فى أمانة العالم النزيه هذه الظاهرة فى مطلع كتابه عن أصل الأنواع فيقول إن والاس قد اهتدى مستقلا إلى النتائج العامة التى اهتدى إليها هو — داروِن — من قبل !! وأجاب داروِن مطلب والاس وأذاع مذكرته التى أرسلت إليه أمام منتدى لينيوس على ما عرفنا — وكان فى هذا وفاء وأمانة تستحق الإعجاب .

* * *

وفى العام التالى أصدر الجزء الأول من كتابه «أصل الأنواع» The Origin of Species وفيه رد النشوء الآلى إلى التنازع على البقــاء Struggle for existence وبقاء الأصلح Survival of The fittest وعامل الوراثة ، وكانت هذه النتائج ثمرة عقل جبار أقام على البحث ثلاثين عاما ، واستطار نبأ هذا الكتاب فأعيد طبعه مرارا ونقل إلى كثير من اللغات[1] وشاعت آراؤه فى العالم طولا وعرضا وفشت فى الدوائر العلمية يمينا ويسارا ، ونشط البحث فى الأحياء فى شتى الدول فتصدى لمقاومة هذا التيار الجارف رجال اللاهوت ومن جرى مجراهم من أساطين العلماء ممن كانوا يهابون السلطة الدينية ويخشون بطشها أو لا يجرءون على التصريح بمعاداة الكنيسة أو تخالط نفوسهم ميول دينية واضحة — ويمثل هذه التيارات على الترتيب : لينيوس وكوفييه وأجاسير.

---

(١) نقل إلى العربية الأستاذ إسماعيل مظهر بعض أجزائه تحت عنوان « أصل الأنواع » .

الحملات على داروين فى شتى بقاع العالم المسيحى :

كان مثل كتاب داروين فى « أصل الأنواع » إزاء عالم اللاهوت كمثل محراث صادف قرية من قرى النمل فشتت جموعها وأحال هدوءها فرقا وفزعا! إذ هب النيام فى العالم المسيحى وقد أفزعهم هذا النذير وأطار النوم من عيونهم وأشاع الضيق فى نفوسهم وأثار الغضب فى رءوسهم ، فأجمعوا أمرهم على محاربة هذا المفكر الجديد وحشدوا لتقويض مذهبه جهودهم ، مقالات تجرى فى أنهر المجلات ، ومواعظ ترسل من المنابر ، وكتبا تترى ثقيلة وخفيفة ، وكلها تتآزر على الجهاد فى سبيل الله ! وقد شرع فى قيادة هذه الحملة : أسقف « ولبرفورس » Wilberforce فى المجلة الربعية Quarterly Review فأعلن أن داروين قد أجرم « بنزوعه إلى تحديد مجد الله فى فعل الخلق » وأن « مبدأ الانتخاب الطبيعى Natural Selection يتعارض مع كلمة الله كل التعارض » « لأنه يناقض العلاقة بين الخليقة وخالقها كما قررها الوحى » وأنه غير متسق مع كمال المجد الإلهى . . . إلى آخر ما ورد فى حملته . وعندما انعقد المجمع البريطانى لتقدم العلم British Association for the Advancement of Science[1] نهض هذا الأسقف للكلام وأشار إلى آراء داروين الذى اضطره مرضه للتغيب عن هذا الاجتماع ، وأعلن الأسقف على الملأ أنه يشعر بالغبطة لأنه لم ينحدر عن جد من القردة . ! فنهض هكسلى Huxley للرد عليه وقال ما فحواه « لو خيرت لآثرت أن أكون من سلالة قرد وضيع على أن أكون ابن رجل من البشر يسخر علمه وفصاحته فى الإساءة إلى أولئك الذين يقضون حياتهم فى خدمة البحث عن الحقيقة . . ! » وقد دوى هذا الصوت فى انجلترا وتردد صداه فى غيرها من البلاد .

إذا كان هذا قد وقع فى الكنيسة الإنجيلية فقد تردد صداه عند قادة

(١) أقدم جمعية فى انجلترا وقفت جهودها على ترقية العلم الطبيعى الذى يصطنع مناهج البحث التجريبى وانصرفت عن الفلسفة بتأملاتها العقلية الخالصة ، نشأت عام ١٨٣١ م — أنظر كتابنا أسس الفلسفة (أواخر الفصل الثانى من الباب الأول) .

الكنيسة الكاثوليكية فى انجلترا ، إذ ألقى الكردينال مانتج Manning خطابا أمام أعضاء الأكاديمية التى نشأت لمحاربة ما يسمونه « العلم » ، فأعلن مقته للمذهب الجديد فى الطبيعة ! ووصفه بأنه « فلسفة وحشية — تقرر عدم وجود إله وتصرح بأن القرد أبونا آدم » وسار فى تيار هذا الركب معهد بروتستانتى كان قد نشأ لمحاربة العلوم الضارة فأعلن نائب رئيسه أن مذهب دارون « محاولة يراد بها إنزال الله عن عرشه ! » وصرح ناقد آخر بأن هذا المذهب يوعز إلى الناس « أن الله قد مات ! » وقال ثقة من رجال اللاهوت . إذا صح مذهب دارون كذب سفر التكوين وتحطم كيان الحياة وكان وحى الله إلى الإنسان — كما يعرفه المسيحيون — هذيانا وأحبولة !

وتردد الصدى فى أمريكا ، فأعلنت مجلة من أوسع مجلات الطوائف الدينية انتشارا أن دارون قد حاول أن يزيد المسألة تعقيدا ، وصرحت مجلة ثانية بأن مذهبه « خيانة ! » وراحت مجلة ثالثة تمثل فرع الكنيسة الانجيلية فى أمريكا تصب احتقارها على دارون ، وتقول إن مذهبه « سفسطة مجردة عن كل منطق ! » وأخذت غيرها تبرهن على أن المذهب يناقض النصوص التى وردت فى العهدين القديم والجديد . . !

واقتحم رجال اللاهوت فى أستراليا هذه المعمعة ، فصرح الدكتور برى Perry كبير أساقفة ملبورن فى كتاب عنيف عن « العلم والإنجيل » بأن الغرض الواضح الذى قصد إليه شامبرز Chambers ودارون وهكسلى هو أن « يغرسوا فى نفوس قرائهم الكفر بالإنجيل . . ! »

ومن وراء هذا الملحمة وقفت أفرع الكنيسة القديمة ، فصرح بايما Bayma فى « العالم الكاثوليكى » بأن من حقنا أن نعتقد بأن دارون يردد أقوال أولئك الملاحدة الذين لا هدف لهم إلا أن يجتاحوا كل فكرة عن وجود الله !

ومما يبين عن اتجاه رجال اللاهوت فى هذا العصر تضافرهم على إنشاء مؤسسات لمحاربة الأفكار الجديدة . ومن أظهر هذه المؤسسات « الأكاديمية التى دعا إليها الكردينال ويزمان Wiseman وقد أذاع رسالة دورية أنذر فيها

الناس بالخطر الزاحف وختمها بقوله : والآن يصبح من واجب الكنيسة التى تحظى وحدها بالثقة الإلهية أن تقوم على رأس حركة تهدف إلى مقاومة كل ما يهدد المعتقد المسيحى فى انجلترا ؛ وقد باركت روما هذه الحركة وأذنت بإنشاء هذه الأكاديمية . . !

وفى المعسكرات البروتستانتية ظهرت مثل هذه الحركة ، فنشأ « المعهد الفكتورى » وكان أكبر أعماله خطراً نداء لنائب رئيسه الموقر والترمتشل Rev. Walter Mitchell الذى صرح بأن « مذهب دارون يحاول أن ينزل الله عن عرشه[1] ! »

وفى فرنسا كانت الحملة على عنف مرير ؛ فكرر بعضهم ما قيل من أن كل نظرية تخالف نظرية ثبات الأنواع تتنافى مع النصوص المقدسة ، أما « ديسورج » Désorges وهو أستاذ سابق لعلم اللاهوت فقد اتهم دارون بأنه « مغرور » أما المونسنيير سيجور Ségor فقد أشار إلى دارون وأتباعه وقال فى مس هستيرى : إن هذه المذاهب الممقوتة ، لا تؤيدها إلا أحط الأهواء ، فأبوها الكبر وأمها القذارة ! أقبلت من جهنم وإليها المعاد ، ومعها أنصارها المجردون من كل حياء !

* * *

(١) اقرأ مقال ولبرفورس فى « كوارتلى رفيو » عدد يوليه ١٨٦٠ ، وأما رد هكسلى فقد ورد فى مجلة Quartrefages وفى « حياة دارون ورسائله » Life & Letters of Darwin رواية مختلفة بعض الاختلاف وعن حملة الكردينال ما ننج أنظر Essays on Religion & Literature (London 1895)؛ وعن مقالات المجلات : أنظر مجلة لكوارترلى السالفة الذكر عدد يوليه ١٨٧٤ ومجلة North British Review. May 1810 وكذلك Addresses of Rev. Waller Michell before the Victorian Institute لندن ١٨٦٧ وغيرها — أما عن مجلات أمريكا فانظر Methcdist Quarteily Review عدد أبريل ١٨٧١ وكذلك The American Church Revew عدد يقوليه وأكتوبر ١٨٦٥ ويناير ١٨٦٦ وعن حملات استراليا . أنظر كتاب الموقر تشارلس پرى Rev, Ch Perry عن Science & Bible لندن ١٨٦٩ وعن نابا أنظر الجزء السادس والعشرين من Catholic Wrld ص ٧٨٢ ، وعن الأكاديمية أنظر Essaya التى نشرها الكردينال ماننج وقدور د ذكرها من قبل وغير هذا كثير — انظر كتاب وايت A.D. White السالف الذكر

وفى ألمانيا كانت الحملة أقل إسفافا ، وأعظم عنفاً ، إذ تضافر الكاثوليك والبروتستانت على مقاومة المذهب الجديد ، فأعلن الدكتور ميشيلس Dr. Michelis أن نظرية دارون « صورة تخطيطية — كاريكاتورية — للخليقة ! » وصرح الدكتور هجرمان Dr. Hagermann بأنها قذفت بالله خارج الأبواب ! وأصر الدكتور شند Dr. Schund على أن الكتب المقدسة فى كل صفحة من صفحاتها تناقض مذهب دارون كل التناقض ، ودعا روجمنت Rougement فى سويسرا إلى القيام بحرب صليبية لمقاومة هذا المذهب الفاسد !! إلى آخر الحملات التى تعاقبت وتلاحقت لسحق هذا الخطر الزاحف !!

وفى عام ١٨٦٣ أثار الاضطراب فى معسكر اللاهوتيين تأييد « تشارلس ليل » Sir Ch. Lyell لنظرية دارون — مع صدق عاطفته الدينية وحرصه على الحيطة والحذر ومعارضته لنظرية التطور عند لامارك وانتصاره لفكرة الخلق المتعاقب ! ووضح تأييد « ليل » — وهو أكبر جيولوچى فى عصره — لمذهب دارون فى كتاباته ولا سيما « قدم الإنسان » وكانت هذه لطمة عنيفة أنقضت ظهر اللاهوت وأحرجت صدره .

وسار فى الركب « هكسلى » فنشر فى ذلك الوقت كتابه « مكان الإنسان من الطبيعة » وفيه زود نظرية التطور بالانتخاب الطبيعى بأدلة جديدة .

وكانت اللطمة الثانية التى أثارت فزع رجال اللاهوت صدور كتاب دارون « تسلسل الانسان » عام ١٨٧١ Descent of man ، ومع أن هذا الكتاب كان ترداداً لما قاله النقاد من قبل فإن أثره كان مروعا ، فنهضت « مجلة جامعة دبلن » لمقاومة هذا التيار ، وأحيت الاتهام القديم بأن دارون يحاول إنزال الله عن عرشه ! وتصدى طبيب فرنسى كاثوليكى ذائع الصيت « هو قسطنطين جمس » للرد على دارون ، فنشر كتابه فى باريس « مذهب دارون أو الإنسان القردى » عام ١٨٧٧ وفيه صب احتقاره على كتاب دارون ووصفه بأنه « قصة خيالية » وأضحوكة كبرى . . . إلى آخر هذه الأوصاف من غير أن يعرض لنقد الكتاب ودحض آرائه علمياً ؛ ولكن

رجال اللاهوت قد أسكرهم الرضا بهذا الكتاب فصرح الكردينال أسقف باريس للمؤلف بأن كتابه قد أضحى مقرأته الروحانية ! وأشار عليه بإهداء نسخة إلى البابا بيوس التاسع ، وطرب البابا لهذا الكتاب لأن مؤلفه قد استطاع فى لباقة محمودة أن يدحض ضلال المذهب الجديد ! والرأى عنده أن هذا المذهب يتنافى مع التاريخ وتقاليد كافة الشعوب والعلم الصحيح والحقائق المشاهدة ، بل يتنافى مع شريعة العقل نفسها ، فهو مذهب يقوم على غير أساس ، ولو استقامت الأمور ماكان هناك مايدعو إلى محاولة نقضه ، ولكن الميل إلى الإلحاد والنزوع إلى المادية يجنح بأهله إلى الاستعانة بمثل هذه الآراء الخرافية ، إن الكفر قد حمل أصحابه على رفض الإيمان بالله خالق الأشياء جميعاً وإعلان استقلال الإنسان بنفسه بحيث يكون سيد نفسه وكاهن نفسه وإله نفسه ، ومضى هذا الغرور بأهله حتى أنزلهم منزلة السوائم التى تجردت عن العقل بل منزلة الجماد الميت ! فأكد هذا الغرور على غير وعى منه القول اللاهوتى : أنى وجد الغرور وجدت الوقاحة ! ولكن مثل هذه الأوهام ينبغى دحضها ، وما دام أهلها يلقون بها فى ثياب العلم الصحيح فليكن دحضها بالعلم الصحيح . وبارك البابا بعد هذا جهود المؤلف فى عصر أحوج ما يكون إلى مثل هذه الجهود ، ومنحه البركة المستمدة من الرسل وخلع عليه رتبة القديس سلفستر البابوية ! وأشار أسقف باريس السالف الذكر على المؤلف أن يعنى فى الطبعة التالية لكتابه ببيان العلاقة بين قصص سفر التكوين ومكتشفات العلم الحديث لإقناع الملحدين بالتطابق التام بينهما ! واطلع هذا الكردينال على تجارب الطبعة الثانية التى ظهرت عام ١٨٨٢ بعنوان « موسى ودارون » إنسان سفر التكوين مقارناً بالإنسان القردى ، أو التعليم الدينى مقارناً بالتعليم الإلحادى ، وأسكر النصر هذا الكردينال فعانق المؤلف باسم الدين والعلم معاً . . !

وإلى مثل هذا التطرف ذهب قادة البروتستانتية فى انجلترا ، فالمستر جلادستون فى خطاب ألقاه فى ليفربول يقول : بقواعد نظرية التطور

يتخلص الخالق من متاعب الخلق ! وباسم القوانين الثابتة أفلت منه حكم الدنيا ! وإن كان قد تراجع عن هذا الرأى حين نبهه هربرت سبنسر إلى أن نيوتن يتعرض لهذا الاتهام بنظريته فى الجاذبية وآرائه فى علم الفلك ، وأعلن الموقر دكتور كولز Rev Dr. Colls أن إله التطور ليس بإله المسيحية ، ونشرت جمعية تقدم المعارف المسيحية Society for Promoting Christian Knowledge كتابا وضعه المستر بيركس أعلن فيه أن نظرية التطور تناقض العقيدة الأساسية فى الخلق كل التناقض ؛ وإلى مثل هذا ذهب سائر خصوم هذه النظرية !

انتصار النظرية الجديدة حتى فى المعسكرات الدينية :

وفى عباب هذه الحملات أخذ يفيق بعض عقلاء رجال اللاهوت ويشفقون على الكنيسة من موقف التاريخ منها إذا ثبتت نظرية دارون ! إنها لا تزال تنوء بعبء موقفها من نظرية دوران الأرض والتنكيل بدعاتها إلى الأمس القريب ! أليس من الخير أن يتريث رجال اللاهوت فى حملاتهم ، وأن يجعلوا لشريعة العقل مكانا فى مهاجمة هذا المذهب الجديد ! هذه روح جديدة بدت طلائعها فى أمريكا ، فصرح الدكتور « نوح بورتو » رئيس كلية « ييل » Yale بتدريس نظرية التطور فى جامعته مع اعتقاده بعدم صحتها ! بل صرح بأنه لا يجد تنافيا بين هذه النظرية والنصوص المقدسة . . !

وعلى كثب من كلية « ييل » يقوم المتحف البالنتولوجى Museum of Paleontology وفيه حاول الأستاذ « مارش » أن يثبت تطور الحصان منذ أقدم عصور التاريخ حين كان حجمه لا يزيد على حجم الثعلب وله خمسة أصابع حتى وصل إلى حالته الراهنة حجما وشكلا ، وهذه الحلقات التى تتابعت فى سلسلة هذا التطور قد اتخذها « هكسلى » دليلا قاطعاً على قيام الانتخاب الطبيعى عاملا فى إحداث النشوء ، على أن هذا لم يوقف تيار النزاع الذى حمله رجال اللاهوت على جناح العنف البالغ ، فالموقر الدكتور هودنى فى جامعة برنستون أعلن أن نظرية دارون تناقض نص الكتاب المقدس ، وأن

ليس إلهاً من غاب عن خلق الكون ، وأن إنكار القصد والتدبير فى فكرة الخلق إنزال لله عن عرشه ، وإنكاره فى الطبيعة كفران بالله ، وأن من يؤمن بالغائية فى الخلق لا يستطيع أن يكون من أتباع دارون ، وتابع غيره فى جامعة برنستون هذه الحملة المثيرة .

ولكن هذه الجامعة « برنستون » Princeton قد تولى رآستها الموقر الدكتور جمس ماكوش Mc Coch فناهض هذه الحملة الظالمة معلناً أنها خطر على المسيحية نفسها ، وأعلن فى خطاب له أن أخطر شىء يتهدد المسيحية فى هذه الجامعة أن يتكرر القول على مسمع من الطلاب أسبوعا بعد أسبوع بأن نظرية التطور بالانتخاب الطبيعى أو التطور بوجه عام إن صحت ثبت بطلان الكتب المقدسة ، ومن رأيه أن هذه هى آكد الطرق فى إحالة الطلبة ملحدين لا يؤمنون بشىء ، ومن أجل هذا منع قيام التبشير بهذا الهذر ودعا إلى التبشير بالنظرية الجديدة ، وكان عهده بدء التوفيق بين القضيتين مع ما ناله من معسكرات الخصوم . وسرعان ما ظهر من بين رجال اللاهوت من جاهر بالقول بأن فى إمكان الإنسان أن يجمع بين الإيمان بالمسيحية والاعتقاد فى مذهب دارون .

ولكن هذا النزوع الجديد قد لقى من خصومه عنتا ، ففى عام ١٨٧٣ ظهرت مجلة الدين الشهرية فى بوسطن Monthly Religion Magazine تحمل تهانيها إلى قرائها بجهود الدكتور « بير » فى تقويض نظرية التطور والإجهاز عليها وإلقائها إلى الكلاب ! وتابع هـــذه الحملة فى واشنجطون مجلس « المتوديزم » — وهو مذهب شيعة بروتستانتية .

ولكن رواد العلم الحديث قد غضوا الطرف عن حملات خصومهم من رجال اللاهوت وأرسلوا بيناتهم تترى مؤكدة صحة المذهب الجديد ، فأثارت الفزع والقلق فى معسكرات الرجعيين ، والتمسوا الخلاص من ضغط هذا الخطر الذى يتقدم نحوهم زاحفاً فى يقين وثبات ، ونزع بعضهم إلى التوفيق

بين النظريتين هربا من مقاومة التيار الجديد ، وبدت طلائع هذه الحركة الجديدة بين رجال الكنيسة فى انجلترا وأمريكا معا ، فالجامعات الإنجليزية قد أذعنت للتسليم بالنظرية الجديدة ، ففى أكسفورد أعلنوا فى اجتماع لحزب الكنيسة العليا فى كلية « كيبل » Keble College أن نظرية التطور « تقدم فى سبيل تفكيرنا اللاهوتى » .

ومن معسكر الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ارتفع صوت ينادى بأن العقيدة الكاثوليكية لا تمنع أحداً من أتباعها من التسليم بنظرية دارون ، وأعلن ثقة من الكاثوليك فى أمريكا أن نظرية التطور لا تتعارض مع عقيدة الكنيسة الكاثوليكية أكثر مما تتعارض نظرية دوران الأرض !

موقف العالم المسيحى من دارون بعد مماته :

ومات الرجل الذى أثار العالم المسيحى وأيقظ علماءه ورجال اللاهوت فى شتى نواحيه ، مات دارون + ١٨٨٢ فكان مثواه فى دير وستمنستر إلى جوار القبر الذى ثوى فيه إسحق نيوتن ، ورثاه الأسقف « فارار » Farar بخطاب نبيل تردد صداه على أعواد المنابر فى أوربا وأمريكا ؛ ولكن دوائر الرجعيين مازالت قلقة تتابع حملاتها بين الحين والحين . فمن ذلك قول الدكتور « لانج » Rev. Dr. Laing إن دفن دارون فى وستمنستر يشهد بأن انجلترا لم تصبح بعد أمه مسيحية ! وتردد الصدى فى استكلندة وأمريكا معا !

ولكن الكنيسة الإنجليزية قد قاومت هذا العدوان الآثم ، ووقف رئيس أساقفة وستمنستر « فارار » فاعترف بأنه لا يجد فى نفسه القدرة على التسليم بالرأى العلمى الحديث ، ولكن مما يشين الكرامة « أن تكون محاولة زعزعة المذهب الجديد قائمة على الحجج الخطابية وإثارة الحماسة فى نفوس الجهلة والدهماء ممن يمقتون العلم وأهله !

وفى كلية ترنتى بكمبردج نرى « ويويل » Whewell الحكيم الكلى الحكمة وواضع كتاب « تاريخ العلوم الاستقرائية » يرفض الإذن بحفظ

نسخة من كتاب أصل الأنواع فى المكتبة ، وفى الكثير من المعاهد التى تخضع لرقابة رجال اللاهوت — من البروتستانت والكاثوليك على السواء — وجدت محاولات ترمى إلى حظر التعاليم النشوئية أو تحقيرها ؛ ولعلنا لا نزال نذكر الكلية الأمريكية فى بيروت ونذكر كيف طردت الشبان من أساتذتها بحجة اعتناقهم لنظرية دارون ! ومثل هذا نراه فى جامعة Vanderbirlt فى تنيسى حين أقصت الدكتور ونشل Winchell من أجل هـــذا السبب نفسه . . !

وأطرف من هذا قصة الدكتور « ودرو » Woodrow فقد عُين فى عام ١٨٥٧ أستاذا للعلم الطبيعى من حيث صلته بالدين المنزل بالمعهد المشيخى فى كولومبيا ، وقد أداه البحث والنظر إلى اعتناق نظرية التطور فلم يغفر له ما عرف عنه من إخلاص للدين ووفاء لتعاليمه ، ثار فى وجهه الكثيرون من رجال اللاهوت وأدت ثورتهم إلى إقصائه من منصبه . ! وفى أسبانيـــا الكاثوليكية تردد الصدى فنشر الدكتور « مارانجو » Chily Marango عام ١٨٧٨ كتابا عن جزر الكنارى وضمن مقدمته الفروض الحديثة فى نظرية التطور ، وأيدها بأدلة استقاها مما عرفه عن الإنسان البدائى فى جزر الكنارى ، فأثار هذا ضيق السلطات الإكليركية وسرعان ما صدرت الأوامر بمصادرة الكتاب وبإكراه القراء على رد جميع نسخه المتداولة فى أيديهم ! أما عن مؤلف الكتاب فقد صدر ضده قرار بالحرمان !

ومن أجل الآراء العلمية الحديثة وبسبب نقد الكتاب المقدس وقع مثل هذا الاضطهاد فى قرننا الماضى ، فالأستاذ شتراوس David Strauss عزل من منصب الأستاذية فى Tübingen وتحطم مستقبله من أجل كتابه « حياة يسوع » ١٨٣٥ م وقد رفض فيه رفضا باتا أن يعترف بشىء خارق للطبيعة ، ومن أجل هذا السبب نفسه ، كما بدا فى كتاب « رينان » Renan « حياة يسوع المسيح » فقدَ « رينان » كرسيه فى كلية فرنسا — كوليج دى فرانس — وطُرد بخنر Buchner المادى عام ١٨٥٥ من طوبنجن السالفة الذكر من أجل كتابه

« القوة والمادة » الذى أبان فيه للناس تفاهة تفسير الكون تفسيرا لا يتمشى مع قوانين الطبيعة ؛ وقد سعى البعض لطرد « هيكل » Haeckel من جامعة يينا Jena ، بل عوقب فى عام ١٩٠٧ القس لوازى Loisy — وهو فرنسى كاثوليكى — بالحرمان الأكبر لأنه ساهم مساهمة مثمرة فى دراسة الكتاب المقدس وإخضاع مبادئه لفكرة التطور ! وقد حظر الكهان قراءة كتاب بادن پاول Baden Pawell « دراسة فى حجج المسيحية » لأنه أنكر المعجزات ، وآمن بنظرية التطور ؛ وفى عام ١٨٦٢ قدم للمحاكمة من أجل المساهمة فى هذا الكتاب اثنان يبيح منصبهما محاكمتهما ، وأدانتهما المحكمة الإكليركية فى أمور وقضت ببراءتهما فى أخرى ، فصدر أمر بإيقافهما عاما كاملا ، وإن جاء استئناف الحكم فى صالحهما — كما سنعرف بعد — ومثل هذه الاضطهادات تكرر وقوعها كثيرا . أما عن الحرمان الكنسى فقد فسرناه فى كتابنا « قصة الاضطهاد الدينى » فليرجع إليه من شاء .

ولكن القافلة كانت تمضى فى طريقها قدما لا تثقل رجلها ولا تقف التماساً لمرضاة الساخطين عليها ، وسارت فى الركب كثرة من الجامعات فى العالم القديم والحديث ، وانطلق المستنيرون من رجال الكنيسة إلى محاولة التوفيق بين الرواية الدينية والمذهب العلمى الحديث ، ففى كنيسة « روتشديل » Rochdale صرح الموقر الدكتور « واسون » رئيس أساقفة مانشيستر فى إذاعاته بصحة المذهب المغرى الذى بشر به دارون وحاول أن يربطه فى لباقة بوجهة النظر الدينية ، وقد تكفلت بنشر هذه الكلمة « جمعية تقدم المعارف المسيحية » وهى التى كانت إلى الأمس القريب تقوم بنشر أعنف الحملات الموجهة إلى النظرية الجديدة ! وإلى مثل هذا الاتجاه الجديد ذهبت المجلات الدينية ، وأفسح اللاهوت الطريق لموكب العلم الحديث[١] .

---

(١) ارجع إلى White فى تأريخ هذا النزاع ، وثمة مصادر تناولت هذا الموضوع فى إسهاب أنظر فى عداء الولايات المتحدة لنظرية التطور Dr Ch. Hodge, What is Darwinism ١٨٧٤ نيويورك وكذلك كتابه Systematic Theology (نيويورك ١٨٧٢ فى الجزء الثانى من القسم الثاني) وكذلك The Light by which we see or Nature & the Scripture =

تأييد رجال اللاهوت لحرية التفكير :

فإذا تجاوزنا المعارك التى أثير عثيرها من أجل نظرية التطور لاحظنا أن القافلة كانت إبان ذلك القرن تمضى فى طريقها قدما وقد أثرت حتى فى المعسكرات الكنسية نفسها ! فمن ذلك ظهور حركة فى الكنيسة الكاثوليكية تعرف بالحركة العصرية أو التجديدية Modernism وهى فيما يقول البعض أخطر أزمة مرت بالكنيسة الكاثوليكية منذ القرن الثالث عشر : والمعروف

= وفى مجلة كوارترلى الأمريكية الكاثوليكية عدد أكتوبر عام ١٨٧٧ مقال عن « المذهب الوضعى ونظرية التطور » وفى نفس العدد مقال للموقر A. M. Kirsh عن » الأستاذ هكسلى والتطور » وفى عدد يولية ١٨٧٩ مقال للأستاذ ماك سوينى Mc. Sweeny عن « منطق التطور » وفى عدد يناير ١٨٧٨ مقال لجون دوفيل عن «نظرية التطور إزاء الإنسان والإنجيل» وفى مايو ١٨٨٦ «محاضرة عن التطور قبل القرن التاسع عشر «واقرأ كذلك مجلة الدين الشهرية المشار إليها فى صلب الكلام عدد مايو ١٨٧٣ وكذلك مقال «التطور وعدمه» فى مجلة NewYorkWeeklySun فى عدد أكتوبر ١٨٨٨ — أما فيما يتصل بالسلطات الأسبانية فاقرأ Revue d'Anthropologie عدد أبريل والمجلد التاسع عشر من العالم الكاثوليكى ص ٤٣٣ وعدد مايو ١٧٧٤ من Curch Jovrnal وفى تفصيل أضطهاد الدكتور « وتشل » و « ودرو » وأساتذة جامعة بيرو — اقرأ المصادر السالفة والفصل الذى عقده أندرودكسون وايت A. D. White فى كتابه المشار إليه من قبل عن The Fall of Man & Anthropology ، وعن الآراء الحرة بين المفكرين الدينيين بصدد نظرية دارون ومحاولات التوفيق بينها وبين الكتاب المقدس انظر رسائل كنجزلى إلى دارون (نوفمبر ١٨٧٩) فى الجزء الثاني من « حياة دارون ورسائله » وفى مجلة The Spectator بلندن فى عدد مارس ١٨٦٠ وفى Duplin Reven عدد مايو ١٨٦٠ The Christian Examin عدد مايو ١٨٦٠ وفى Life & Letters of Sedgiwck فى الجزء الثاني وفى عدد يناير ١٨٧٤ من The popular Science Monthly (مقال عن التكوين والجيولوجيا ونظرية التطور للموقر جورج Henslow وقد ظهرت هذه المقالة أولا فى كتابه Evolution&Religion — وعدد يناير ١٨٨٢ من Lutheran Quarterly ورسالة صغيرة للأستاذ وين W. H. Wynn عن ديانة التطور إزاء ديانة اليهود ، ومادة « تطور » فى DictionaryofReligion ١٨٨٧ والاستاذ هكسلى فى AnEpiscopalTrilogy القرن التاسع عشر (نوفمبر ١٨٨٧) وهذا المقال يناقش ثلاث مواعظ ألقاها أساقفة Carlisle و Bedford ومانشتر فى كاندرائية مانشستر أثناء اجتماع عقده المجمع البريطانى فى سبتمبر ١٨٨٧ ثم طبعت هذه المواعظ مستقلة تحت عنوان The Advarce of Science ثم رايل H. E. Ryle أستاذ اللاهوت فى كمبردج فى The Early Naratives Of Genesis (لندن ١٨٩٢ والمقال الذى كتبه سيرل G. M. Searle. بالجامعة الكاثوليكية فى واشنجتون فى مجلة « العالم الكاثوليكى » عدد نوفمبر ١٨٩٢ . . . . . الخ الخ .

أن أتباعها لا يؤلفون حزباً ولا يلتزمون برنامجا ، وأنهم مخلصون للكنيسة وتقاليدها وجمعياتها ولكنهم يرون أن المسيحية دين خاضع للتطور ، وأن حيويته مرهونة باستمراره فى هذا التطور ، ومن هنا كان حرصهم على إعادة تأويل العقائد فى ضوء العلم والنقد الحديث وقد جاهدوا حتى تتمثل المسيحية بعض نتائج الفكر فى عصرهم ، وكان القس « لوازى » Loisy أظهر داعية فى هذه الحركة ، وقد أشرنا إلى قرار الحرمان الذى أصدره ضده البابا فى عام ١٩٠٧ وذلك أن البابا « بيوس العاشر » قد أنفق كل ما فى وسعه لقمع هذه الحركة ، وقد استنكر فى قرار أصدره (عام ١٩٠٧) كل ما انتهى إليه لوازى من نتائج ، وبعد ثلاثة أشهر أصدر رسالة دورية مسهبة عرض فيها أفكار هؤلاء المجددين فى داخل الكنيسة ووضع خطة لقمع الحركة والقضاء على دعاتها .

وقد جرى فى تيار هذه الحركة الأحرار من أحبار الكنيسة البروتستانتية منذ عدة أعوام ، فكانوا إذا ذكروا ألوهية المسيح جردوها من كل مولد خارق للعادة . . ! وإذا تحدثوا عن « البعث » أوّلوه بحيث لا يتضمن نشوراً جسمانياً معجزاً ، وإذا تكلموا عن وحى الإنجيل المنزل استخدموا معنى الوحى فيما يشبه الإلهام الذى عرف عند أمثال أفلاطون !

ظهر من أحرار رجال الدين من حاولوا مقاومة طغيان السلطة . . ! فوضع سبعة — منهم ستة رجال دين — كتاب « مقالات ومراجعات » عام ١٨٦٠ فسموا من أجله « أعداء المسيح السبعة » ، إذ طالبوا فيه بأن يفهم الإنجيل كما يفهم أى كتاب فى التاريخ ! ولهذا حرموا التأويل وحظروا محاولة التوفيق بين المتناقضات وأوعزوا إلى القارىء بأن التنبؤات العبرية ليس فيها عنصر الإلهام . . ! وأثاروا الشك فى كثير من المسائل التى كانت مقررة عند الكنيسة — ومن هنا كان فزع رجالها من هذا الكتاب .

وظهر بعد هذا كتاب « بادن باول » Baden Powell الذى أسلفنا الحديث عنه فى هامش سابق ، وقد أشرنا إلى اثنين من القساوسة قدما

للمحاكمة عام ١٨٦٢ بتهمة المساهمة فى هذا الكتاب ، وأنهما استأنفا الحكم فأصدر قاضى القضاة فى المجلس المخصوص « اللورد وستبرى » Westebury قراره بإلغاء حكم المحكمة الإكليركية ، ونص فى القرار على أنه ليس من الضرورى لرجل الدين أن يؤمن بعذاب الآخرة ! فكتب على قبر هذا القاضى : فى أواخر أيامه طرد جهنم ، وانتزع من أتباع الكنيسة الإنجليزية آخر أمل عقدوه على الخلود فى الجحيم ! ومن هنا أدرك الناس مدى التزام رجال الدين للعقائد اللاهوتية ، وبدت روح الحرية الفكرية فى داخل الكنيسة وبين رجالها .

ثم استقرت هذه الحرية فى عام ١٨٦٥ بقانون اعتمده البرلمان ، غيّر صيغة القسم الذى كان يقسمه رجال اللاهوت عند توقيع « قانون إيمان الكنيسة الإنجليزية » Thirty Nine Articles .

وكان من دلالات هذا الجو الجديد إقبال الجماهير على أحرار المفكرين ، وقد ظهر هذا فى انجلترا مع « هوليوك » Holyoake الذى سجن بتهمة التجديف فى أوائل حياته ، وأنشأ أواخر أيامه National Press Association لنشر المذهب العقلى وإذاعة ما يكتبه أحرار الفكر بين الناس ؛ وقد ألغى هذا المفكر الضرائب التى كانت مفروضة على المطبوعات فساعد بهذا على إشاعتها بين الجماهير ، وكانت الرقابة المفروضة على المطبوعات قد اختفت فى انجلترا منذ عهد مديد . وألغيت فى أكثر الدول الأوربية إبان القرن الغابر ، وأصبحت المؤلفات تذاع على الناس فى أواخر ذلك القرن وفيها إنكار لوجود المسيح تاريخياً من غير أن يثير هذا ضجة أو صخباً ! وتلاشى القول بأن التفكير الحر لا يستقيم مع اتباع قواعد الأخلاق ! فاتفق الناس — مع استثناء رجال الفاتيكان — على أن كل شىء — فى الأرض أو فى السماء — خاضع للبحث العقلى من غير ما حاجة إلى الاستعانة بمزاعم السلطات الكنسية ! ومن هؤلاء الأحرار « برادلو » Bradlaugh الذى كان أجل عمل أداه إحرازه فى عام ١٨٨٨ حقاً أتاح الملحدين فى انجلترا أن يكونوا أعضاء فى البرلمان من غير قسم يقسمونه . . !

فزع السلطات الدينية ومظاهره :

هذا الفيض الجارف من حرية الفكر — حتى فى داخل الكنيسة نفسها — قد أثار فزع المعسكرات الدينية ، أشفق رجالها على تعاليم الدين ان يكتسحها التيار ، وعلى نفوذهم أن يتلاشى فى غمرة هذا الفيضان ! فتكاتفوا لمقاومته ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وفى عام ١٨٦٤ أصدر البابابيوس التاسع منشورا عرض فيه خطايا العصر ، ومنها حرية الإنسان فى اعتناق المذهب الذى يبدو أمام عقله صوابا ، والاعتراض على أن من حق الكنيسة استخدام القوة فى مقاومة خصومها وإبادة آرائهم ، ثم دراسة الفلسفة الميتافيزيقة العقلية من غير الاستعانة بالكنيسة أو اتخاذ الرواية الدينية مرجعاً ! ومن هذه الأخطاء دعوة البابا إلى تأييد التقدم ومبادىء الحرية والمدنية الحديثة . . الخ . وقد كانت هذه الوثيقة فى نظر الناس إعلاناً للحرب على حركات التنوير ؛ كما كان مجلس الفاتيكان فى نظرهم أول حشد حربى من جيوش الظلام يتقدم لمقاومة كل أثر للنهوض[1]

* * *

وزاد مجلس الفاتيكان ففاجأ الناس فى العالم الأوربى ، بل فاجأ بعض أتباع الكنيسة فى روما — بقرار مثير لكل دهشة ، أصدره عام ١٨٧٠ وأعلن فيه أن البابا معصوم من الوقوع فى الخطأ ! ! وكان للكردينال «ماننج» أوفر نصيب فى إصدار هذا القرار العجيب . !

جاء هذا القرار فى غير أوانه ، وإن كان القرار متمشيا مع اتجاهات غلاة المتعصبين من رجال اللاهوت المتعسف ، فقد ثارت ثائرة هؤلاء المترمتين قبيل صدور هذا القرار ، عند ما جاهد « ا . د . وايت صاحب كتاب « تاريخ النزاع بين اللاهوت والعلم » مع « عزرا كورنل » لإنشاء الجامعة التى تحمل

---

(١) وقد أشرنا من قبل إلى منشور البابا جريجورى السادس عشر وفيه هاجم حرية الضمير .. فى عام ١٨٣٢ م وقد أورد القرار مختصرا Lecky ج ٢ ص ٦٩ — ٧٠ وبيورى ونشره كاملا Lemennais فى Affaires de Rome ص ٣١٨ — ٣٥٧ — وانظر فى نشأة الحرية الدينية وتطورها الفصل السابع وكلمة أخيرة فى نهاية كتابنا قصة الاضطهاد الدينى .

اسم الأخير ، وعقدا النية على أن تتخلص هذه الجامعة من كل سلطة تعوق حرية البحث وتتحرر من سيطرة الأحزاب السياسية والطوائف الدينية معا ، من غير أن يخطر لهما أن يمسا المسيحية بسوء . بل لقد كانت تربطهما برجال الكهنوت صلات مودة ومحبة ، وكان من أغراضهما العمل على ترقية الدين المسيحى إلى جانب غرضهما الثقافى . ولكن رجال اللاهوت المتعسف قد بادروا — من فرط الهلع الذى استولى عليهم — بمقاومة المشروع خطابة وكتابة !

بيد أن الثورة قد أخفقت إذ لم يمض على إنشاء الجامعة ربع قرن حتى استقرت قدمها وتوطدت دعائمها وامتلأت بالطلاب الذين كانوا يتهافتون على الالتحاق بها ، وأجرى عليها الأرزاق المحسنون بغير حساب ، وأحاطتها ثقة الجمهور من كل جانب ، بل انتصرت مبادئها فى غيرها من معاهد — فيما يقول وايت نفسه فى مقدمة كتابه عام ١٨٩٤ .

بل لقد جنحت إلى هذا الاتجاه الشعوب الحديثة المتقدمة ، كانت الهيمنة على التعليم العام فى أمريكا وغيرها — عند صدور القرار بعصمة البابا وبعد صدوره بقليل — فى يد رجال الكهنوت . وسرعان ما تغير الوضع وانتقلت الهيمنة إلى أيدى العلمانيين ، وفى كبرى الجامعات فى الولايات المتحدة — مع استثناء جامعة أو اثنتين — وفى البلاد الأوربية التى كانت تعتبر قلاعا للاهوت المتعسف ، أصبح الرؤساء من العلمانيين ؛ ويقول « وايت » إنه حين زار جامعتى اكسفورد وكمبردج فى عام ١٨٥٤ ألفاهما خاضعتين للسيطرة الإكليركية كل الخضوع ، ولكن هذا الوضع قد تغير بعد أربعين عاماً من زيارته !

الاضطهاد عند الكاثوليك والبروتستانت :

كانت معسكرات البروتستانت فيما يظهر أقل غطرسة وخيلاء من معسكرات الكاثوليك ، بل إن بيورى يرد الحالات التى حاولت فيها المدنية قمع الفكر الحر منذ القرن الثامن عشر إلى الرغبة فى عدم إذاعة الأفكار الحرة

بين الجماهير ، فالدين أداة ناجحة فى إخضاع الناس وحفظ الأمن بينهم ، والجهل يحمل أصحابه على الرضا والقناعة والخضوع لحكامه .

ويقول « درابر » Draper فى كتابه عن « النزاع بين الدين والعلم » فى معرض الموازنة بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستانتية : ليس بين الكنائس البروتستانتية كنيسة اعتصمت بالغطرسة والاستبداد ، وكان لها من النفوذ السياسى الواسع النطاق ما كان للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ! بل لقد كانت الكنائس البروتستانتية فى أكثر حالاتها تنفر من الإكراه وتمقت الاستبداد ، وكانت مقاومتها للفكر الحر — اذا استثنيت حالات بالغة الندرة — أثراً من آثار الحقد الذى أثاره المتزمتون من رجال اللاهوت فى وجوه خصومهم .

ولعل ترفق البروتستانت بأحرار الفكر يرجع إلى حاجتهم إلى السلطان الزمنى الذى تهيأ لزملائهم فى الدول الكاثوليكية ، أكثر مما يرد إلى تمسكهم بمبادئهم فى التسامح وحرية التفكير ، والناظر إلى الدول المسيحية الثلاث الكبرى فى غربى أوربا حيث يوجد من سكانها أغلبية كاثوليكية ، يلاحظ أن الميل إلى التقدم والنزوع إلى حرية التفكير يصاحبه تدهور فى قوة السلطات الأكليركية ، ففى أسبانيا حيث تظفر الكنيسة بوفرة من القوة والمال وتستطيع أن تملى إرادتها على الحكام لا نكاد نجد لفكرة التقدم أثراً جدياً كالذى نراه لها فى فرنسا وإيطاليا ! وإذا كانت حرية الفكر تزاولها أقلية مستنيرة من الأسبان فإن السواد الأعظم من السكان يعيش فى جهل ملحوظ — ومن مصلحة الكنيسة أن يظلوا كذلك ! وليس من اليسير التحرر من ضغط هذا الجهل طالما وجدت هذه السلطة الدينية فى أسبانيا ، وليس أدل على ذلك من مصرع « ف . فيرير Fransisco Ferrer »[1] الذى يعيد إلى الأذهان ذكرى العصور الوسطى ، ذلك أنه نهض بإنشاء مدارس حديثة تقوم بتدريس العلوم الدنيوية فى مقاطعة « قطالونيا » ، فأزعج الإقبال عليها السلطات الدينية حتى

---

(١) انظر تفصيل مأساته فى Mc. Cabe, T., The Martyrdom of Ferrer, ١٩٩٠

أخذت تهاجمه وتثير الحرب فى وجهه ، وفى صيف عام ١٩٠٩ أضرب العمال فى برشلونة حيث تصادف أن كان هناك فيرير بضعة أيام فى بدء هذه الحركة ، واشتدت حركة الإضراب حتى تحولت إلى ثورة عنيفة دامية ، فأعلن خصومه اتهامه بإثارة هذه الفتنة !! وأخذت الصحف الكاثوليكية والسلطات الأكليركية تطالب الحكومة بمعاقبة منشىء المدارس الحديثة التى أوقدت نار الثورة ، وأدانت « فيرير » المحكمة العسكرية وقررت إعدامه فقتل رمياً بالرصاص !! (فى أكتوبر ١٩١٣) فراح شهيدا فى سبيل الدفاع عن حرية التفكير . وقد أثارت هذه المأساة الحنق فى العالم الأوربى كله — وفى فرنسا بوجه خاص — وهى ظلم جائر يحتمل تكراره فى كل بلد تؤتى فيه الكنيسة هذا النفوذ ويتولاها مثل هذا التعصب ويشيع فى سياسته مثل هذا الفساد — فيما يقول بيورى .

تنبأ « وايت » فى أواخر القرن الغابر بما وقع فى القرن الراهن فعلا ، إذ قال إن العلم الذى سحق اللاهوت المتعسف سيسير فى المستقبل مع الدين جنباً إلى جنب ، وبينما يتضاءل نفوذ اللاهوت يقوى الدين وينمو فى ثبات .

وقد روينا عن « ولف » أن العلم قد انتقل فجأة — عند الكثيرين من أتباعه — من المادية المتطرفة فى القرن الغابر إلى روحية مسرفة موغلة فى القرن الحاضر ، واصطبغت نظرته بصبغة دينية صوفية ، واهتم بعض رجاله بالتفكير الدينى وأساليبه ، فتلاشى الجفاء بين رجال الدين وأهل العلم فى قرننا الحاضر ، كما تلاشى بينهم وبين الفلاسفة فى القرن الغابر ، وتآخى اللاهوت مع العلم — فى القرن العشرين ، ومع الفلسفة التى سبقت العلم إلى هذا التآخى على ما عرفنا فى مطلع هذا الفصل . وبهذا صفا الجو حتى كاد يخلو — فى القرن العشرين — من جفاء بين اللاهوت من ناحية والفلسفة والعلم من ناحية أخرى ، فخلا كتابنا من حديث عن النزاع فى قرننا الحاضر . . !

تعقيب :

وبعد ، فقد توج الفشل جهود المتزمتين من رجال الدين فى اضطهاد الفلسفة وجندلة رجالها ، لأنهم لا يستطيعون أن يطفئوا للحق نورا ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، إن غلاة المتعصبين من أصحاب السلطة يملكون إبادة خصومهم واستئصال شأفتهم من الوجود ، ولكنهم لا يقوون على أن يطمسوا آية الحق الذى يستشهد فى سبيله هؤلاء الأبطال ، إن الحق لا يموت بموت شهدائه إنه يبقى أبداً لا يحده زمان ولا مكان ، وإذا عدم الأنصار فى عهود الاضطهادات الكالحة المشئومة ، وجد هؤلاء الأنصار بعد هذه العهود وقد زادهم تاريخه إيمانا به وكلفا بالاستشهاد فى سبيله . . ! ومن هنا كان الفشل هو المصير المحتوم للجهود التى أنفقها اللاهوت المتعسف والتعصب المتزمت فى عرقلة الفكر الحر والتنكيل بأهله .

الفصل التاسع

كلمة أخيرة

تلخيص وتعقيب

تمهيد — بواعث النزاع بين العقل والإيمان — شرط قيام الاضطهاد — كيف قام الاضطهاد طوال التاريخ — وجه الخطأ فى موقف رجال الدين — مسئولية الإنجيل والقرآن فى آثام الاضطهاد ومناقشتها — من تاريخ الحرية الدينية فى أوربا — العلاقة بين العلم والفلسفة فى القرنين الماضى والحاضر — العلاقة بين العلم والدين فى القرنين الماضى والحاضر — العلاقة بين الدين والفلسفة فى القرنين الماضى والحاضر — تعقيب .

تمهيد :

رأينا كيف يرتد النزاع بين العقل والإيمان إلى طبيعة العقل البشرى ، وخصائص المعتقد الدينى ، وكيف أن النزاع لا يتحول إلى اضطهاد إلا متى تهيأت السلطة الزمنية لرجال الدين ، وتوافرت للعقل أسباب اليقظة والنضج ، وأوتى الجرأة التى تمكنه من نشر آرائه والإصرار على إذاعتها ، واستفحل — مع هذا كله — الجهل بين الناس واستشرى داؤه ، فلنعد إلى تذكير القارئ ببعض ما قلناه فى هذا الصدد ، معقبين عليه ببعض ما ذكرناه فى مناقشة :

بواعث النزاع بين العقل والإيمان :

أما عن العقل البشرى فإنه — كغيره من قوى الإنسان وحواسه — يقوم بوظيفة طبيعية يزاولها بفطرته ، وإذا كانت وظيفة العين الإبصار ، ووظيفة اللسان التذوق . . . فإن وظيفة العقل التى يزاولها بطبيعته هى التفكير المنطقى والتأمل النظرى ، وإن جاز أن يتوقف العقل عن التأمل بموانع تشغله عن تأدية وظيفته — شأنه فى ذلك شأن غيره من حواس الإنسان وقواه ؛ والإنسان بطبعه طلعة ، يميل إلى ارتياد الآفاق المجهولة والكشف عن خباياها ،

ويطيب له أن يهتدى إلى جديد لم يعرف من قبل ، أو يقع على رأى بكر يخالف ما ألف الناس وعرفوا ، وعندئذ لا يقنع بغير إذاعة الجديد من أفكاره ونشره بين الناس ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فإن عاقه عن ذلك عائق ضاق به ونهض لمقاومته ، ووجد فى كفاحه من أجل الحقيقة لذة وراحة ، وهذه هى حرية النشر التى خاضت البشرية بحيرات من الدماء حتى توصلت إلى إقرارها حقا طبيعيا للإنسان ... ومن هنا يبدو طبيعيا أن يصمد أحرار الفكر فى نصرة الحق وأن يجاهدوا فى سبيل إقراره ، وأن يستعذبوا التضحية والاستشهاد من أجله .

ومن طريف المفارقات أن يكون هـذا العقل النزاع بفطرته إلى التحرر من كل قيد يعوق طلاقته ، ميالا — من فرط كسله — إلى الاستكانة لمعارفه والرضا بمعتقداته والارتياح لكل ما ألف من ألوان الفكر ، لأن هذا يوفر عليه عناء التفكير فى الرأى الجديد ، ومتاعب النظر فى اختبار معلوماته والتمييز بين ما تتضمنه من حق وما تحويه من باطل . . . ! من هنا جاء ميل سواد الناس إلى مقاومة كل ما نبا عن العرف وخالف المألوف ، وإذا اهتدى مفكر إلى رأى يتنافى مع معتقدات الناس ولا يجرى مع مشاعرهم ، استهدف لا محالة لسخطهم ، فإن قاوم سخطهم عرض نفسه للاضطهاد والتنكيل فى شتى صوره .

أما عن طبيعة المعتقد الدينى فقد قيل إن المعتقد بطبيعته ينزع بصاحبه إلى عدم التسامح ، لأن الإيمان متى احتل قلوب الناس قل اصطبارهم على من ليسوا على دينهم ، ناهيك بالمتمردين على تعاليمه ! وينشأ عن هـذا أن الكتب المقدسة — حتى مع افتراض خلوها من نص يوجب الاضطهاد ، ومع تبشيرها فى صراحة بحرية النظر العقلى — لا تحول دون الاضطهادات الدامية التى لطخت تاريخ النزاع بين العقل والإيمان ؛ ونرى أن نرجىء مناقشة هذه الوجهة من النظر حتى نستكمل الإشارة إلى دوافع النزاع وأسباب الاضطهاد ، فان مما يقوى من أمر هذا النزاع ويزيده شدة وبأساً ، جهل السلطات الدينية وجمود رجالها ، وضعف الرأى العام وافتقاره إلى الوعى المستنير .

شرط قيام الاضطهاد :

على أن قيام الاضطهاد والتنكيل بأحرار الفكر لا يستقيم إلا مع توافر شرطين يدور اجتماعهما مع الاضطهاد وجوداً وعدماً ، أولهما أن تتهيأ لرجال الدين سلطة زمنية تمكنهم من اضطهاد العقل وإيذاء رواده ، فإن أعوزتهم السلطة قنعوا بالغيبة وانتقموا بالنميمة . . ! أو لاذوا بالعقل وجاروا خصومهم في الاعتصام بشريعته ، فلا يلبث منطقه حتى يثير الشقاق في معسكرهم ويفت في عضد دعوتهم .

وثانيهما أن يوجد عقل قوي يقوى على اقتحام « منطقة الحرام » وارتياد آفاقها ، والانتهاء منها إلى كشف مجهول أو إنكار مألوف ؛ وعندئذ يصبح بفضل جرأته ويقظته أهلا لاضطهاد خصومه — وبغير هذين العاملين مجتمعين لا يستقيم اضطهاد — كما قلنا من قبل .

كيف قام الاضطهاد طوال التاريخ :

واستقراء تاريخ النزاع يشهد بصحة هذه الظاهرة — وهي توافر سلطة دنيوية في يد رجال الدين ، مع وجود عقل يقظ جريء — فقد قام النظر العقلي حراً أيام اليونان الذين عاشوا بغير دين تحوطه القداسة ، ثم شاخ هذا النظر العقلي في أواخر عصرهم فخضع لسلطان دين فتيّ جديد نزل بأرضه واستبد بقلوب أهله ، وآثر العقل الواهن حياة الأمن والهدوء ، واستطاب السلامة واتقى أسباب النزاع قروناً طوالا ؛ ومنذ أن أصدر الامبراطور قسطنطين مرسوم ميلان (عام ٣١٣ م) وأقر فيه مبدأ التسامح مع المسيحية ، بدأت تعلو شوكة رجالها ، ومكن لهذا ضعف الحكومة القائمة حتى جاهر الأساقفة بإعلاء كلمة رئيسهم الديني على سلطة الملك ، وتهيأ للسلطات الدينية نفوذ دنيوي مكنهم من المطالبة بفرض التربية التي يؤخذ بها التلاميذ في مدارسهم ، ومصادرة الكتب التي لا تساير نزعاتهم ، وإقصاء المعلمين المارقين عن وظائفهم ، ونفي المفكرين الذين يخطئهم التوفيق في إرضائهم . . . ولكن العقل

قد ظل طوال عصر الآباء وشطرا من العصر المدرسى فى ركود لا يثير ضيقا ولا يبعث قلقا ، فعاش الإيمان مع العقل فى صفاء ، ولما دبت اليقظة إلى العقل وتكشفت أمامه دائرة المعارف القديمة ممثلة فى التراث الأرسطاطاليسى المنقول عن فلاسفة الإسلام ، ضاق العقل باستكانته لاستعباد السلطات الدينية ، وأعلن فى منتصف العصر المدرسى تمرده ، فأخذ يرتاد الآفاق التى كانت محرمة عليه ، وينتهى منها إلى وجهات نظر لا تتمشى مع تعاليم الكنيسة ولا تتفق مع مقرراتها ، وعندئذ نهض الإكليروس لمقاومته وزج بأهله إلى السجون وتعقبهم بالنفى والتشريد والتعذيب الذى ارتفع إلى مرتبة الإعدام ، ونشأت محاكم التفتيش وأثارت الفزع فى نفوس المفكرين ، ولم تنقض العصور الوسطى حتى أشرف العالم الأوربى على عهد إرهابى يثير الهلع .

وأقبل عصر النهضة يحمل فى ركابه نذر الصراع الدامى ، إذ اعتصم رواد الفكر الحديث إبانه بمنطق العقل وأخذوا فى هدم الخرافات التى اقترنت بالديانة ، وغلوا فى هذا غلوا أثار ثائرة الكنيسة ، وإن كانوا فى الجملة قد أبقوا على العقيدة ونحوها بعيدة عن معاول نقدهم ؛ وما أقبل العصر الحديث حتى تحولت هذه النزعة إلى مذهب عقلى rationalism فسر أصحابه فى ضوئه كل ما يعرض لهم من ظواهر — حقيقة أن القرن السابع عشر — ممثلا فى ديكارت أبى الفلسفة الحديثة — قد أبعد حقائق الوحى عن جدل العقل ومناقشاته ، ولكن سرعان ما خضع الدين على يد الديكارتيين إلى النقد المر والسخرية اللاذعة ، وأعرض الكثيرون من العقليين عن اللاهوت المسيحى ورفضوا الكتاب المقدس مصدرا للحقائق ، شجعهم على هذا ما كشفه البحث العلمى من حقائق أثارت الشك فى قيمة الوحى الإلهى وما يعزى إليه من حقائق ، وسرعان ما انهار البناء الذى شادته السذاجة وأقامه الجهل ، وتكفل النقد التاريخى فى القرن الماضى بتقويض السلطة التى تهيأت للكتب المقدسة ومدعى احتكار تأويلها .

والطريف فى هذا النزاع أن السلطات الدينية قد خاصمت العقل خصاما

شديدا ، فلما تزايدت عليها حملاته وتداعت أمام معاوله قلاعها ، اعتصمت بمنطق العقل وأخذت تقارع خصومها حجة بحجة وبرهانا ببرهان ، فكانت هذه هى نقطة الضعف فى كفاحها ، ومنها تداعى بنيانها الشامخ ، إذا انتهى منطق العقل إلى إثارة الشقاق بين رجالها ، وانزلق بعضهم إلى مهاوى الإلحاد ، فكأن سلاح خصومهم حين انتقل إلى معسكراتهم قد انقض على قواهم وأدار الدائرة عليهم . . . !

على أن من الإنصاف أن نقول إن بين رجال اللاهوت فى أوربا وأمريكا قوما أوتوا من سعة العقل ورحابة الصدر وصدق الإدراك ما مكنهم من مسايرة الركب والتطور مع الزمن ، فباركوا حركات التجديد وأدنوا من حضرتهم رواد الفكر الجديد وتولوهم بالرعاية والتقدير .

وجه الخطأ فى موقف رجال الدين :

إن من حق رجال الدين أن يكون لهم فى نفوس الناس نفوذ روحى واسع النطاق ، أما أن يتهيأ لهم سلطان دنيوى يمكنهم من التحكم فى رقاب الناس فذلك هو الخطر المبين الذى يشهد به استقراء تاريخ الفكر منذ أقدم العصور فما من فرصة أتيح لهم فيها السلطان إلا فرضوا فيها رقابتهم الجائرة على أحرار الفكر ، وأوقفوا تقدم المعرفة وعرقلوا نشاط العقل وعاقوا حرية النظر وأوصدوا أبواب الإبداع فى التفكير ، فجمدت الحياة ووقف التقدم .

وقد كان الاضطهاد فى العالم البروتستانتى أخف منه فى العالم الكاثوليكى ، بوجه عام ، إن الاضطهاد الذى أنزله فى الأول رجال الدين بأحرار الفكر يكاد يقتصر على مصادرة كتاب أو سجن مؤلف أو حبس ناشر أو إقرار غرامة أو إقصاء عن وظيفة . . . أما فى العالم الكاثوليكى حيث استحوذت الكنيسة على سلطان زمنى — إلى جانب نفوذها الروحى — فقد ارتفع الاضطهاد إلى مرتبة الإعدام بمختلف صنوفه ، ونهضت محاكم التفتيش بمطاردة أحرار الفكر وإثارة الفزع فى نفوسهم أنى كانوا ، وكانت قصة المآسى الدامية التى عرفنا أنباءها .

أما فى الإسلام فقد جرد رجاله من كل سلطة زمنية ، فجعل رسول الله مبلغا ومذكرا وليس مسيطرا ولا مهيمنا « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » فانتفت السلطة الدينية وأضحى تأويل الكتاب والسنة حقا مشروعا لكل مؤمن ، وامتنعت العصمة من الخطأ حتى على خليفة المسلمين ، إن زل وجب تقويمه ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق كما جاء فى الحديث النبوى ، من أجل هذا خلت صفحة الإسلام من آثام الاضطهاد ، وارتدت حالات الاضطهاد التى وقعت فى تاريخه إلى الأسباب السياسية والبواعث الشخصية ، وقد سجل الإسلام على المتزمتين من رجاله إثم ما يفعلون ، وجاءت آياته البينات صريحة فى إقرار حرية الفرد فى اختيار دينه — كما عرفنا من قبل .

على أن رجال الاكليروس كانوا على حق فى مقاومة أحرار الفكر وقمع حركاتهم ، وإن أخطأهم التوفيق فى اختيار طريقة المقاومة ، إذ تهجم أحرار المفكرين على قدسية الكنيسة فى غير رفق ولا هوادة ، وجاهروا بنقد رجالها وشهروا بآثامهم فى غير تورع ولا حرج ، وسخروا من تعاليم الكتاب المقدس وتأويلات آياته مستمسكين بالحقائق التى كشف عنها العلم الطبيعى أو اهتدى إليها النظر العقلى ، وما كان هذا ليرضى الكنيسة ورجالها ، كان هؤلاء على حق فى مناهضة الحركة الجديدة وإيقاف تقدمها ، ولكن التوفيق أخطأهم فاعتصموا بالشدة ونكلوا بأتباعها وساروا على جثث المخلصين منهم ، ولكن تيارها الغلاب قد كتب له النصر ، لأن الاضطهاد الدامى فى شتى صوره لا يوقف التقدم ولا يغير مجرى التاريخ ، وإن تكفل بإثارة الهلع فى نفوس الناس ، وعاق سير التاريخ فترة قصيرة من الزمن ! إن فى وسع غلاة المتعصبين من أهل السلطة أن يبيدوا خصومهم وأن يستأصلوا من الوجود شأفتهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يطفئوا نور الحق ، لأن الحق لا يموت بموت شهدائه ، وإذا افتقد أنصاره فى عهود الاضطهادات الكالحة المشئومة ، سعى إليه دعاته بعد هذه العهود وقد زادهم تاريخه إيمانا به وكلفا بالاستشهاد فى سبيله ! من هنا جاء إخفاق السلطات فى جهودها الدامية ، وقدر لموكب الحق أن يمضى فى طريقه قدما لا يتمهل إلا لكى يستجم ويعاود السير وهو أوفر ما يكون قوة ونشاطا .

مسئولية الإنجيل والقرآن عن آثام الاضطهاد ومناقشتها :

قلنا إن النزاع كان مرده إلى اللاهوت المتعصب المتعسف وليس إلى الدين السمح اللين ، مع أن بعض المؤرخين لم يقنعوا برد الاضطهاد إلى السلطات الدينية وإنما أرجعوا إلى نصوص الكتاب المقدس ومنطق تعاليمها تبعة التعصب الذى اعتنقته الكنيسة ، وحملوها مسئولية الاضطهادات الدامية التى لطخت بالدم الآثم صفحة الدين المنزل ، واعتبروا الكتاب المقدس عقبة تعوق التقدم العقلى وتعرقل التطور الأخلاقى ، واستندوا فى هذا إلى أدلة كان أظهرها الآية التى حضت المؤمنين على إكراه الناس على اعتناق دينهم . . . على نحو ما عرفنا من قبل .

ولكننا قلنا إن قيمة النصوص المقدسة ليست فى ذاتها بمقدار ما تكون فى طريقة تأويلها ، وأن المؤولين هم المسئولون عن فهم الدين المسيحى وما ينشأ عن هذا الفهم من تصرفات ، وقد روينا كيف فسر الإمام — ورؤساء الدين المسيحى — الآية القائلة : « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » بما يفيد الجمع بين السلطتين الزمنية والروحية ، وكيف أولها صاحب الجامعة وغيره من مفكرى المسيحية بما يفيد الفصل بينهما ، ولكل من الفريقين وجهة نظره ؛ ومثل هذا الخلاف الضخم يمكن قيامه فى أكثر الآيات .

من هنا كان من الإنصاف أن نرد تبعة السلوك المسيحى إزاء النظر العقلى الحر إلى مؤولى نصوصه المقدسة ، وقد انفرد به حتى مطلع العصر الحديث رجال الكهنوت .

ولكن البعض يقولون إن الذى يعنينا من الكتب المقدسة ليس نصوصها المدونة فى بطونها مستقلة عن نفوس المؤمنين بها ، إنما تعنينا آثارها السيكولوجية فى نفوس معتنقيها ، وحتى مع افتراض أن الكتب المقدسة قد خلت من نص يبيح القمع والتنكيل والاضطهاد ، فإن الإيمان بطبيعته يفضى من الناحية السيكولوجية لا محالة إلى نتائج قد لا تتمشى مع حرفية هذه النصوص ، فالإيمان متى احتل قلوب الناس قل اصطبارهم على من ليسوا على دينهم ، ناهيك بالمتمردين على تعاليمه . . . ومن هنا كان بعض كبار رجال الدين

هم الذين صاغوا قواعد الاضطهاد الآثم ووضعوا مبادئه ومهدوا الطريق لقيامه .

وردنا على أصحاب هذا الافتراض — هو ما قلناه فى كتابنا قصة الاضطهاد الدينى — وهو أن إثارة مثل هذا الاعتراض لا تكون متمشية مع منطق العقل إلا حين تهدف إلى إلغاء الإيمان والانصراف عن الأديان ، مع أن الإنسان بطبيعته لا يستطيع — بالغا ما بلغ احترامه لشريعة العقل — أن يحيا فارغ القلب ، وليس الإلحاد الصادق فى كل صوره إلا إيمانا انحرف عن طريقه المرسوم ! ومن هنا قال الملحدون الذين أرخوا ظاهرة التدين عند البشر : لا يموت فى قلب الإنسان إله حتى يحتل مكانه إله آخر ! ناهيك بما يترتب على الإيمان من وجوه النفع الأدبى والمادى فى حياة الإنسان ، إنه يشيع الطمأنينة فى النفس ويملأ شعابها غبطة وروحا . . . ويقول فوليتر : إذا لم يكن الله موجوداً لوجب اختراعه والإيمان بوجوده حتى تكون زوجتى أكثر وفاء لى ، وخادمى أقل اشتهاء للسرقة . . . وهذا رأى أعرق فى القدم من فولتير .

من هنا جاز القول بإغفال كل اعتراض من شأنه الحط من جلال الإيمان ، وإهمال الرأى الذى يلقى تبعة الاضطهاد الآثم على الأديان حتى ولو خلت نصوصها من أية إشارة تحملها وزر آثامه ، فإن فى هذا تجنيا صارخا واضح البطلان ، لأنه يكاد يلغى الفروق التى تفصل بين البراءة والإجرام !

لقد بلغت المسيحية قمما سامية من الروحية فى عظة المسيح على الجبل حين قال لحوارييه مستنا شريعة الحب الذى لا يعرف الانتقام ، والسلام الذى لا يقر الثأر ولا يبيح العدوان « سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا . . . سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم وأحسنوا إلى مبغضيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون

إليكم لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات ، وإن الإنسان ليعجب كيف استحال هذا الروح السمح النبيل فى نفوس المتزمتين تعصبا جارفا يجتاح كل مبدأ كريم ، وحقدا مضطرما يدفع بأصحابه إلى ارتكاب كل جرم أثيم . . ؟ ! وكيف لطخ الدم الآثم تاريخ هذه الديانة التى صيغت من ذوب الحب وروح السلام . . . ؟ !

على أن اختلاف مؤولى نصوصه فى إباحة السلطة الزمنية لرجاله كان فيما يظهر سبب الاضطهادات الدامية التى لطخت تاريخ هذا الدين السمح . أما الإسلام فقد كان موقفه من سلطة رجاله واضحا لا يحتمل جدلا ولا خلافا ؛ وقد رأينا كيف جعل رسوله المصطفى مجرد مبلغ ومذكر وليس مهيمنا ولا مسيطرا ، ولم يجعل لعربى على عجمى فضلا إلا بالتقوى . . . وزاد فأباح للفرد اعتناق الدين الذى يشاء ، أليس يقول تعالى : « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » بل يقول مخاطبا نبيه الكريم : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » . بهذا الموقف الصريح الواضح قضى على سلطة رجال الدين الزمنية ، وأقر الحرية الدينية ، ومكن لها قبل أن تعرف المدنية الأوربية طريقها ببضعة قرون من الزمان . . . !

من تاريخ الحرية الدينية فى أوربا :

جاءت الحرية الدينية فى انجلترا مقسطة — على دفعات — فى سلسلة من القوانين والمراسيم يستكمل بعضها ما فات سابقه : كان هذا منذ القرن السابع عشر حتى القرن الغابر ؛ أما فرنسا فقد جثم التعصب البغيض على صدرها حتى اندلعت ثورتها الكبرى التى أعلنت حقوق الإنسان عام ١٧٨٩ وهى التى نصت على ألا يضار امرؤ بسبب آرائه الدينية ما لم يترتب عليها إضرار بالنظام العام ، وإن سقطت هذه الحرية فى عباب التمرد على الحكومة ، ومضى الناس بعد الملكية التى تداعت أركانها (١٧٩٢ — ١٧٩٥) يدعون

إلى نبذ المسيحية ويبشرون بعبادة العقل ، وإن فصل دستور عام ١٧٩٥ بين الكنيسة والدولة فكفل بهذا حرية العبادة لجميع العقائد .

أما بروسيا فقد ولىَ عرشها المفكر الحر « فردريك الأكبر » وتلقى بعد بضعة أشهر من حكمه (عام ١٧٤٠) بيانا رسميا بصدد قضية دينية فكتب على هامشه يقول : إن من حق كل امرئ أن يصل إلى الجنة بالطريقة التى تروقه ! وأن فى وسع الإنسان أن يكون مواطنا صالحا أية كانت العقيدة التى يدين بها ، وليس للدولة عنده أكثر من ذلك ! فقيل إن هذا الموقف المستنير وثبة فى تاريخ التسامح لا يقوى عليها إلا رجل يمتاز بالجرأة ورحابة الصدر وسعة التفكير . . . وبعد هذا شاعت الحرية الدينية فى أوربا طولا وعرضا . . . شاعت هذه الحرية شكلا وإن بقيت حتى أيامنا الحاضرة موضوعا ! من أجل هذا اضطر وفد مصر فى هيئة الأمم المتحدة فى نوفمبر من عام ١٩٤٦ إلى أن يتقدم باقتراح يطالب فيه الجمعية العمومية للهيئة باتخاذ أسرع التدابير وأفعلها لوضع حد للاضطهادت الدينية فى أوربا الوسطى . . . ! ورفضت جمعية الأمم إدراج الاقتراح فى جدول الأعمال ثم عادت فأقرته بإجماع الآراء . . . !! مثل هذا يحدث فى العالم المتمدين فى منتصف القرن العشرين ، وكان الإسلام قد مكن لهذه الحرية — كما عرفنا — قبل هذا بنحو أربعة عشر قرنا من الزمان ! .

العلاقة بين العلم والفلسفة فى القرنين الماضى والحاضر :

شجع مذهب دارون فى التطور على قيام النزعات الطبيعية والوضعية فى القرن الماضى ، وأغنى الباحثين عن فكرة الغائية teleology والنظام المعقول فى تفسير الظواهر البيولوجية ، وقدم للعلماء تفسيرا آليا ميكانيكيا للوجود ، وكانت الفلسفة — الألمانية خاصة — حتى النصف الأول من القرن الغابر تحاسن الدين وتجامل رجاله ، بل أخذ الكثيرون من الفلاسفة يذودون عن الوحى وحقائقه ؛ وفى النصف الثانى من القرن الماضى اشتد التوتر بين معسكر العلماء من ناحية ، ومعسكر رجال الدين والفلاسفة من ناحية أخرى ؛

كان العلماء يفسرون كل شيء بالمادة والقوة ، وجاهر بعضهم بمهاجمة الدين والتصريح بنبذ عقائده ورفض تعاليمه فيما يقول ولف[1] .

ثم أقبل القرن العشرون فخفت حدة التوتر الذى كان قائما بين معسكر العلماء من ناحية ، ومعسكر الفلاسفة — ورجال الدين — من ناحية أخرى ، وكان مرد هذا فيما يبدو إلى أن العلم نفسه قد انتقل من المادية المتطرفة التى عرفت عنه فى القرن الماضى إلى نوع من الروحية المسرفة فى القرن العشرين ، إذ أخذ العلماء يفسرون المادة تفسيرا جديدا قارب بينهم وبين الروحيين ، فاعتبروا المادة شحنات كهربائية أو إشعاعات موجبة .. واعتبروا العلوم رموزا فسروا بها الوجود ، وكان هذا كله كفيلا بأن يُفضى بأصحابه إلى تفسير العالم تفسيرا مثاليا عقليا ، ومن هنا وصف بعضهم العالم بأنه نور ، ووصفه غيرهم بأنه فكر . . . إلى آخر ما ذهبوا إليه فى هذا الصدد .

وقد أدى هذا بطبيعة الحال إلى إزالة الجفوة التى كانت قائمة فى القرن الماضى بين العلم والفلسفة ، واقترب معسكر العلماء فى القرن العشرين من معسكر الفلاسفة فيما يقول ولف فى بحث آخر[2] وإن عرفت فلسفة القرن العشرين مذاهب ضخمة قد انصرفت عن عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، واستخفت بدنيا الروح وحصرت اهتمامها بدنيا المادة ، وهاجمت الفلسفات الروحية والعقلية فى كل صورها ، كما فعلت الوضعية المنطقية المعاصرة فى النمسا وأمريكا وانجلترا بوجه خاص ، وقريب من هذا يقال بشىء من التجوز فى فلسفة العمليين البرجماتية ومذاهب الواقعية المعاصرة ونحوها[3] ، ومعنى هذا أن الوفاق الذى تحدث عنه ولف بين العلم والفلسة كان قائما فى حدود أضيق من الحدود التى نص عليها فى حديثه السالف .

---

(١) Wolf, A philosophic and Scientific Retrospect (in : Outline of Modern Knowledge-) — انظر آخر البحث .

(٢) A. Wolf, Recent and Contemporary philosophy. فى نفس السلسلة السالفة الذكر — انظر آخر البحث .

(٣) انظر توفيق الطويل : أسس الفلسفة طبعة ثالثة ص ٤٢ وما بعدها ص ٢٢٥ وما بعدها ففيها شرح واف لهذه المذاهب .

العلاقة بين العلم والدين فى القرنين الماضى والحاضر :

أما عن موقف العلم من الدين فإن النزاع بينهما لم يزل بعد قائماً ، كان الصراع بينهما فى الماضى يهدف عند كل منهما إلى تدمير صاحبه ، ولا يقنع بمجرد التغلب عليه ، فمنذ عرف العلم مناهجه التجريبية فى مطلع العصور الحديثة ، تملكه الغرور فاعتز بها واستخف بكل ما عداها من مناهج البحث ، وقيل إن العلم سيتكفل بمناهجه من تيسير أسباب الحياة وتحقيق السعادة للبشر ، وأثبتت الأيام بعد هذا خطأ هذا الوهم حتى جاهر أمثال جان جاك روسو بأن السعادة لا تكون بتقدم العلم وتسلط العقل على الحياة ، وإنما تكون بالارتداد إلى الطبيعة . . ! إن السعادة التى تنشدها البشرية قد تتعذر مع تقدم العلم وشيوع مكتشفاته ويتيسر تحقيقها عن طريق الدين (والفلسفة) ومن هنا خفف العلم من غروره ، ولاَيَنَ الدينَ وأحسن ظنه بالفلسفة ، بل لعل انصراف العلم عن مأديته المتطرفة التى تحدثنا عنها منذ حين هو الذى ساعد على التقارب القائم بينه وبين الدين والفلسفة فى عصرنا الحاضر .

ولكن هذا التقارب لا ينفى أن بين العلم والدين حتى وقتنا الحاضر نوعا من النزاع ، إن التصادم بينهما أدنى أن يكون بين الروح العلمى والروح الدينى ، أو بين منهج العلم ومنهج الدين ، إن الدين يقدم مسائله باعتبارها عقائد يجب أن يتقيد بها العقل والوجدان ، ويعرضها فى صورة تدل على اتصال الإنسان بنوع من الأشياء يعجز علمنا الطبيعى عن إدراكه ، والعلم إذا لم يرفض هذه المسائل فإنه يرفض — على أقل تقدير — المنهج الذى اتبعه الدين فى وضعها وتقديمها ، أو الأسلوب الذى يسلكه المتدين فى الأخذ بها — فيما يقول إميل بترو فيما روينا من قبل .

إن الأصل فى العلم أنه يدرس الجزئيات المحسوسة بمناهج استقرائية تقوم على الملاحظة والتجربة ، فكل ما يقوم وراء عالم الحس لا يدخل فى نطاق العلم ولا يُعالَجَ بمناهجه ، ومعنى هذا أن موضوعات الدين تقوم خارج مجال

الدراسات العلمية ولا يمكن أن تدرس بمناهجها التجريبية : ولكن هذا لا يبرر انصراف العالم — كإنسان — عن العقيدة الدينية ، ولا يبيح له أن يحمل عليها ويهاجم تعاليمها ، ليس من وظيفة العلم أن يسخر أبحاثه لمهاجمة الدين ولا لتأييده !! إن عليه أن يمضى فى أبحاثه قدما بصرف النظر عن اتفاق نتائجها أو اختلافها مع عقائد الدين وتعاليمه .

وإذا كان الكثيرون من العلماء اليوم يميلون إلى ملاينة الدين ومحاسنة رجاله ويطربون للثناء يغدقه عليهم أولئك الذين كانوا إلى الأمس القريب خصوما ألداء لهم ، فإن من الخير للعلم أن يمضى فى طريقه قدما ، معنيا بمناهجه وماتؤدى إليه من حقائق ، دون أن يربط بينها وبين حقائق الوحى ، ومن غير أن يغالى فى التقرب إلى رجال الدين ، وليس فى هذا ما يضير عقيدة رجال العلم ، فقدكان جاليليو وبويل ونيوتن وغيرهم على شعور دينى عميق ، ولم يمنع ولاؤهم للدين من حرصهم على الفصل التام بين معتقداتهم الدينية ومباحثهم العلميـــة .

العلاقة بين الدين والفلسفة فى القرنين الماضى والحاضر :

فى النصف الأول من القرن التاسع عشر بدت الفلسفة عند كثيرين من أتباعها على وفاق مع الدين ورجاله ، بل أخذ بعض الفلاسفة يذودون عن الوحى ويؤيدون بالعقل حقائقه ، قامت طائفة من أعضاء الجمعية الملكية فى لندن بنشر سلسلة مقالات تحت عنوان مقالات « بردج ووتر » امتزج فيها العلم والدين والفلسفة ، وفى النصف الثانى من ذلك القرن مال بعض الفلاسفة إلى النزعات الطبيعية والوضعية مجاراة للعلم الذى كان قد وفق إلى كشف الكثير من مجالات البحث التى كانت مغلقة على الباحثين من قبل ، ولكن الكثيرين من الفلاسفة قد ظلوا على ولاء للدين وإخلاص للكنيسة ووفاء لتعاليمها ، ومن أجل هذا استمرت العلاقة الطيبة قائمة بين هؤلاء الفلاسفة ورجال الدين ، وليس فى هذا من بدع ولا عجب ، فإن من فلاسفة القرن الحاضر من كان فى بدء نشأته من رجال اللاهوت ، فظـل على ولائه للدين

حتى بعد انقطاعه للفلسفة ، وتبدو هذه الظاهرة واضحة فى فلسفة الجزيرة البريطانية بوجه خاص ، وشجع على هذا قيام مؤسسات علمية — كوقف جفورد — تحسن معاملة الذين يسلكون هذا المسلك من الفلاسفة فيما يقول ولف فى آخر المبحثين السالفى الذكر .

وإلى جانب هذا الاتجاه فى فلسفة القرن التاسع عشر وجدت مذاهب عادت اللاهوت أو خاصمت الدين واشتدت على رجاله ، وإذا كانت الفلسفة الألمانية عند هيجل وفشتة ومن إليهما قد ابتعدت عن الواقع وانصرفت عن المادة واهتمت بعالم العقل ، فإن فلسفة الفرنسيين قد عرفت إبان ذلك القرن اتجاها وضعيا نشأ على يد أوجيست كونت ونما وتطور بجهود أتباعه ، كما استمرت فلسفة الانجليز فى ذلك القرن تجريبية حسية على يد النفعيين من بنتام وجيمس مل وابنه جون ستورث مل ، والتطور بين من هؤلاء كما كان هربرت سبنسر وليسلى ستيفن ، وبدت الفلسفة العملية البرجماتية فى أمريكا أواخر ذلك القرن على يد جيمس وديوى ومن إليهما ، وكل هذه الفلسفات قامت على اتصال وثيق جدا بالحياة العملية ، استمسكت بالواقع وتشبثت بالمادة وانصرفت عن النظر المجرد إلى دنيا الحياة اليومية ، وجاهرت — مع استثناء البرجماتية — بعدائها للدين واستخفافها باللاهوت وسخريتها من رجاله ، فالوضعية الفرنسية حسية مادية ، ربطت الفكر بمصلحة الإنسان وعلقت قيمة المعرفة على مدى ما تحققه من منافع وتبعده من مضار — فيما يقول كونت وأتباعه ، وصرح تلميذه وخليفته « لافيت » بأن الوضعية تخدم قيام الجمهورية الفرنسية وتتلاءم مع نمو التفكير وتقدمه ، وأما تجريبية البريطانيين فى القرن الماضى فقد كان أظهر ما يميزها طابعها الشعبى واتصالها الوثيق بحياة الناس ، وأما البرجماتية الأمريكية فانها كانت لا تفهم المعرفة فى كل صورها إلا من خلال حياة الإنسان ومصالحه .

وكانت هذه الاتجاهات على عداء مع اللاهوت ، بل خاصمت — مع استثناء البرجمانية — الأديان خصاما عنيفاً ، فالوضعية تستبعد الميتافيزيقا من

مجال البحث وتقوض أسس الدين وتهتم بعالم الحس والتجربة ، وبلغ الأمر بمؤسسها كونت أن وضع دين البشرية وحاول أن يجعله مكان الدين المنزل المعتمد من الكنيسة ! بل جاهر تلميذه وخليفته « لا فيت » بضرورة نبذ كل ما يتصل بالعالم الآخر ، إذ ينبغي فى نظره ألا يهتم سكان الأرض بما يقع خارجها ، وألا يدخلوا فى حسابهم القوى الخارقة للطبيعة ، وألا يشغلوا بالهم بنعيم الجنة ونار الجحيم ، بل قال بأن اللاهوت مصيره الإنقراض ولو استعان أهله (بالبوليس) ما استطاعوا اقناع الناس بعد اليوم بوجهات نظرهم . . .[1]

وأما الفلسفة العملية (البرجماتية) فقد سلمت بالأديان على أساس منفعتها فى حياة الإنسان . لا على أساس أنها حق فى ذاته ، واعتناق الإنسان لدين على أمل أن يكون مفيداً نافعاً فى حياته أفضل فى نظر جيمس وأتباعه من رفض اعتناقه مخافة أن يكون زائفا باطلا[2] ؛ وهذا رأى لا يرضى أحداً من رجال الأديان جميعاً .

وقد استمرت هذه الاتجهات كلها قائمة إلى يومنا الحاضر ، ونشأت — منذ ثلاثين عاما — الوضعية المنطقية المعاصرة التى تبنت اتجاه « دافيد هيوم » فى ضرورة إحراق كل بحث لا يقوم على الرياضة أو التجربة ، وانتهت بنزعتها الحسية المادية المتطرفة إلى الاستخفاف بالأديان ورجالها ، فكانت على رأس الاتجاهات التى خاصمت اللاهوت وتجاوزته إلى معاداة الدين نفسه .

ومن هذا نرى أن فلسفات القرنين الماضى والحاضر قد تراوحت بين تودد للدين ونفور منه ، محاسنة لرجاله وتهجم عليهم ، وتوقف الأمر فى كل حال على مذهب كل فيلسوف ونزعته الفردية .

---

(١) ورد هذا الموضوع بشىء من التفصيل فى صفحات متفرقة فى كتابنا أسس الفلسفة وانظر فى طبعته الثالثة ص ٤٢ وما بعدها و ١٩٢ — ٩٥ و ٣٦٩ — ٧٦ و ٤٨ وما بعدها و ٣٢١ — ٢٦ . . . الخ .

(٢) انظر كتابنا : مذهب المنفعة العامة فى فلسفة الأخلاق ص ٢٦٥ وما بعدها و ص ٢٧٥ وما بعدها .

تعقيب :

وبعد ، فهذه هى قصة النزاع بين العقل والإيمان فى شتى العصور ، رأينا كيف بدأت بمجرد خلاف فى منهج البحث أو وجهة النظر ، ولكنها سرعان ما تحولت إلى اضطهاد آثم ملطخ بالدم نابا ومخلبا ؛ وعرفنا كيف تستحيل سماحة الأديان فى نفس المتدين — الذى يعلو قلبه صدأ الجهل ويفسد تفكيره ضيق الأفق — تعصبا مقيتا وتزمتا بغيضا يبعد صاحبه عن نور الإيمان الصحيح ، ويرده إلى أحط مراتب البهيمية ، ويهوى به إلى حضيض الوحشية الفاجرة ، حتى ليتحول فى قلبه التعاطف الوجدانى الذى دعت إليه الأديان إحناً تحك فى صدره ، وأحقادا تضطرم فى باطن نفسه ، وظمأ لا يرويه إلا أهراق الدم وإزهاق النفس بأخس الطرق وأبشعها . . . ! ومع ما تهيأت للهيئات الدينية المتزمتة من أسباب النجاح المؤقت فى صراعها الدامى ، قُدر لجهودها الإخفاق المرير آخر الأمر ، ومضى موكب الأحرار فى طريقه قُدما وقد استبد بهواه نداء العقل ، وتخلف الجامدون وفاتهم الركب فعسكروا حيث كانوا ، وقد قل عديدهم واضمحل نفوذهم وتضاءلت آمالهم ، وباتوا يسرحون الطرف فى مواكب الفكر الحر الظافر ، فيرتد خاسئا وهو حسير « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

كشـــاف

بأهم أسمــاء الأعلام

فهرس الكتاب

الفصل الثالث

صفحة

موقف الأكليروس من شريعة العقل فى العصور الوسطى

الفصل الرابع

موقف الإسلام وفقهائه من التفكير الفلسفى

الفصل الخامس

النزاع بين اللاهوت والفكر الجديد فى عصر النهضة

الفصل السادس

نمو النزعة العقلية فى العـالم الـكاثوليـكى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر

الفصل السابع

مظـاهر النزاع فى انجلترا البروتستانتية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر

صفحة

الفصل الثامن

النزاع بين اللاهوت والعلم فى القرن الماضى

الفصل التاسع

تلخيص وتعقيب

كتب توفيق الطويل

(ا) تأليفا :

- قصة النزاع بين الدين والفلسفة — الطبعة الثانية ، تقوم بنشرها مكتبة مصر .
- أسس الفلسفة — الطبعة الثالثة ، تقوم بنشرها مكتبة النهضة المصرية .
- مسائل فلسفية (بالاشتراك) بتكليف من وزارة التربية والتعليم — مقرر على طلبة ثالثة ثانوى — تقوم بنشره مكتبة مصر .
- مشكلات فلسفية (بالاشتراك) بتكليف من وزارة التربية والتعليم — مقرر على طلبة ثانية ثانوى — تقوم بنشره مكتبة مصر .
- جون ستورت مل — من سلسلة نوابغ الفكر الغربى — تقوم بنشره دار المطبوعات الحديثة
- مذهب المنفعة العامة فى فلسفة الأخلاق — تقوم بنشره مكتبة النهضة المصرية .
- التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى — تقوم بنشره مكتبة الآداب .
- قصةالاضطهاد الدينى فى المسيحية والاسلام — تقوم بنشره دار الفكر العربى .
- التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام — من سلسلة مؤلفات الجمعية الفلسفية — تقوم بنشره مكتبه الحلبى .
- الشعرانى : إمام التصوف فى عصره — من سلسلة أعلام الاسلام — تقوم بنشره مكتبة الحلبى .
- الأحلام : دراسة مقارنة — تقوم بنشره مكتبة الآداب .
- قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة — الطبعة الثالثة ، تقوم بنشرها مكتبة مصر

(ب) ترجمة وتعليقا .

- الفلسفة والالهيات (فى كتاب تراث الإسلام Legacy of Islam) من وضع ألفردجيوم رئيس مدرسة الدراسات الشرقية بجامعة لندن — تقوم بنشره لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- علم الغيب فى العالم القديم . من وضع شيشرون — تقوم بنشره مكتبة الآداب .
- المجمل فى تاريخ علم الأخلاق : من وضع هنرى سدجويك أستاذ الفلسفة الخلقية بجامعة كمبردج — تقوم بنشره مكتبة الخانجى .
- (تحت الطبع) أفلاطون والأكاديمية (فى كتاب تاريخ العلم — من وضع سارتون - تقوم بنشره مؤسسة فرنكلين .

